أمثولة التأسيسات

إنّ حاصل مجموع الخصائص لا تؤدّي بنا إلى صفة الكلّيّة. بل ان هذه الكلّيّة نجدها في ماهية الشيء. ولأنّ فكرَ تريزا يسوع يتناول الماهيّة، فهو خليق بأن يعرفه الجميع.

١– قديسة تكتب

كانت تريزا قد اجتازت مَعْبرَ القران الروحي عندما شرعت تكتب **التأسيسات**. حدث ذلك في تشرين الثاني / نوڤمبر من سنة ١٥٧٢، لدى تناولها القربان من يد القديس يوحنا الصّليب, حينذاك سمعت، لأوّل مرّة، كلام الربّ يؤكّد لها أنَّها عروس المسيح، وهو أمرٌ لم تكن قد استحقّته من قبل. "أنظري هذا المسماء؛ انه العلامة بأنك تكونين، منذ اليوم، عروسي. أنتِ ما استحقَقْتِهِ حتى الساعة. ومن الآن فصاعدًا، لن تهتمّي بكرامتي كخالق، وكملك، وكإله فقط، بل كعروس حقيقيّة لي: كرامتي صارت كرامتك، وكرامتك كرامتي" (**تقرير** ٣٥).

عندما شرعت تريزا تكتب **التأسيسات**، سنة ١٥٧٣، بأمر الأب ريپالدا اليسوعي، كانت تعيش بملءِ كيانها غائصة في اختبار القران الروحيّ، هذا الاختبار الكبير الذي يعادل القداسة. وعندما نطالع **التأسيسات** نجد أنفسنا أمام قديسة تعمل. ومع انها، هي، ما عَرَتْ قطّ لِذاتها القداسة، فنحن نعلم أن الكينسة الكاثوليكية بإعلانها قداسة تريزا سنة ١٦٢٢، وبإعلانها تريزا معلمةً سنة ١٩٧٠، إنّما تعترف بها قديسة ومعلّمة، ونعلم أيضًا أنَّ تريزا يمكن إعتبارها قديسة منذ اللحظة التي تلقَّت فيها نعمة القران الروحي، هذا القران الذي شرحت فحواه في المنازل السابعة من **القصر الباطني** الذي كتبته بعد أربع سنوات من **التأسيسات** (١٥٧٧). ففي هذه المنازل السابعة تشرح معنى القداسة؛ وانطلاقًا من شرحها هذا ندرك الدواعي القصوى التي دفعتها إلى تأسيس أديار عديدة، وإلى وضع الكتاب. وماهيّة القران الروحي إنما هي إدراكها أنّ أقانيم الثالوث الأقدس وناسوت المسيح تسكن فيها باستمرار تقريبًا كما تقول في كتاب **المنازل** (٧م، ١)، انها تعيش في علاقة نوعيّة مميّزة مع المسيح، مسلّمةً ذاتَها كلَّها إليه، كما ان المسيح يسلِّم إليها ذاتَه كلَّها، "تهتمّ بأموره كأنها أمورُها الخاصّة، وهو يُعنى بشؤونها" (٧م، ٢)؛ وتختبر "مفاعيل النعمة التي نقلتها من الأنانية أو النرجسيّة إلى تقديم ذاتها تقديمًا كاملاً أو إعطائها لله" (٧م، ٣)؛ كل هذا في سبيل "غاية" واضحة هي مساعدة المصلوب بواسطة الأفعال، أي بالعمل الرسولي (٧م، ٤).

تعرف تريزا أن ظلّ الصليب الطويل جدًّا. لقد حقّق المسيح خلاص البشريَّة بصليبه وبقيامته، إلاّ أن ربَّها هذا يحتاج إلى أيْدٍ مستعدّة للمساعدة، إلى أشخاص متضامنين يجدّدون عمل الخلاص في العالم، وإلى مساعدين أكفياء لأن يعملوا شيئًا ما لمساعدة المصلوب القائم من الموت. لا نستطيع فهم كتاب **التأسيسات** ما لم نُصْغِ إلى الصراخ الذي تطلقه تريزا في الفصلين الثالث والرابع من المنازل السابعة: "لقد جعلت [النفس] مجدَها في تقديم مساعدة ما للمصلوب" (٧م، ٣، ٦)؛ "اعتبِرْنَ أنّ هذا أهمّ كثيرًا ممّا أستطيع تقديمَه لكُنَّ. اشخَصّنَ ببصركنَّ إلى المصلوب يسهُلْ عليكنَّ كل شيء. إذا كان جلاله أَفْصَحَ عن حبِّه إيّانا بأعمال، ومحنٍ رهيبة ، فكيف تُرِدْنَ إرضاءَه بالكلام فقط؟" (٧م، ٤، ٨).

٢– تشرع في التأسيسات وتدع المسيح يُكيِّفُها

وهكذا، تقرّر تريزا، بالاتفاق مع عريسها، أن إحدى الطرائق لمساعدته قد تكون تأسيس أديرة جديدة. ولهذا، فإن كتاب التأسيسات يبيّن لنا تبيينًا عجيبًا نشاطَ قدّيسةٍ، عروسٍ ترغب في مساعدة عريسها متعاونةً معه على تخليص البشر، وهذا التخليص هو مشكلة العريس يسوع المسيح الوحيدة، وذلك بإنشاء أديرة صغيرة تكون أضواء ولو يسيرة جدًّا في ليل البشريَّة، فتضمن حضور القربان الأقدس في العالم. إنها نماذج، بل "مرايا" كما تدعوها تريزا، للمجتمع الجديد، يصوّر فيها وجودَ السماء على الأرض نساءُ ورجالٌ تحرّروا من كل رباط يقيِّدهم. إنه نهج حياة فقيرة وبسيطة، يُقَدَّم مثالاً للبشريَّة في إطار الصلاة، وتضحية الحياة، حياة يعيشون فيها اخوةٌ في محبَّة جماعيّة.

بدأت الإنطلاقة في دير التجسّد في آڤيلا زمنًا طويلاً من قبل، بعد سنوات شاقّة من الصراع الباطنيّ. ما كانت تريزا راضيةً عن نفسها؛ فقد كانت تتنازعها تنازعًا خطيرًا قوّتان متناقضتان: الله والعالم: "لقد كان الله يدعوني من جهّة، وكنت، ومن جهّة أخرى، أتبع العالم. كلّ أمور الله كانت تسرّني سرورًا عظيمًا؛ لكنّ أمور العالم كانت تقيّدني. كأنّي كنت أريد التوفيق بين هذين الضّدَّين" (**السيرة** ١٧/٧). وفي اللحظة الحاسمة، تحزم أمرها، بمساعدة النعمة، وتقرّر تقديم ذاتها كلّيًّا لله. وأمام صورة للمسيح مثخنًا جراحًا، تتذكّر توبة مريم المجدليّة، وتوبة القديس أغسطينوس، فتتحوَّل تحوّلاً تامًّا: "كانت نفسي تَعِبَةً تصبو إلى الراحة، إلاّ أنّ عوائدها البائسة كانت تحول دون تنعّمها بالسكينة. وحدث أني كنت أدخل المصلّى ذات يوم فشاهدت تمثالاً جيءَ به للإحتفال بعيد في الدير. كان تمثالَ المسيح مُثخَنًا جراحًا ويثير مشاعر التقوى، بحيث إنّي، حين شاهدته، اضطربتُ بكلّيتي لرؤيتي إيّاه على هذه الحال، لأنّ يمثّل تمثيلاً دقيقًا ما احتمله لأجلنا. فاعتراني غمّ شديد لسوء تشكّري تلك الروح حتى خِلْتُ قلبي يتفطّر، فانطرحت قربَه وأنا أذرف دمعًا مدرارًا، وأتوسَّل إليه أن يقوّيني نهائيًّا فلا أعود أهينه" (**السيرة** ١/٩).

ومذّاك – في صوم سنة ١٥٥٤ –، وطوال عدّة سنوات، أخذ ربُّها يسوع المسيح يعلّمها حياة جديدة، ويُكيِّفُها، ويصوغُها على صورته. ولقاؤها المسيحَ نزع منها اللامبالاة؛ وهذا دليلٌ على أصالة هذا اللقاء: لقد غيَّر تريزا وربطها بصليب ربّها. لا بدّ من عمل شيء ما لمساعدة المصلوب! وتضع نصب عينيها نماذج تقتدي بها: بولس، ومريم المجدليّة، وأغسطينوس.

ويحضّ البعض تريزا فتؤسّس دير القديس يوسف وعينٌ لها مصوَّبةٌ نحو الهند [أميركا] والعين الأخرى نحو البروتستانت المنفصلين عن الكنيسة. وتعتبر أن تأسيس دير القديس يوسف في آڤيلا إنّما يعني جعلَه سماءً ضغيرة على الأرض، "أوْكارَ حمائم صغيرة للعذراء سيّدتنا" (**تأسيسات** ٥/٤)، "مرايا اسپانية" فيها تسبّح الله وتساعده "نعالجُ العذراء" (**تأسيسات** ٧/١٨).

ممّا قلناه نستنتج أن كتاب **التأسيسات** يجب أن يُفهَمَ انطلاقًا من **المنازل** (**القصر الباطني**) ومن **السيرة**. ففي المنازل نجد المعنى الأقصى والمكان الأبعد الذي منه تكتب: أي القداسة. وانطلاقًا من **السيرة**، لأن فيها تبدأ قصّة إنشاء أول دير نتيجةَ لقائها المسيح، وارتدادها التامّ إليه. **فالتأسيسات** تتمّة لقصّة دير القديس يوسف تضاف إليها تأسيسات أديار أخرى كثيرة لرهبان وراهبات، حتى بلغ بالقديسة المطاف إلى تأسيس دير بورغُس قبل وقت قصير من انتقالها إلى السماء سنة ١٥٨٢.

٣– دليل للعمل

القداسة وحدها فعّالة في فكر تريزا. وكلّما ازداد الإنسان قدّاسة إزدادت فاعليّته. ونرانا هنا أمام تناقض تريزياني ظاهري جديد: فالقداسة بدلاً من أن تثبّط عزم الإنسان، وتحمله على الإنكماش، والإنطواء على ذاته بعيدًا عن العالم، تُطلقه إلى داخل العالم، وتُغرقه في الحياة، وفي التاريخ. وتريزا التي تتفجّر طاقة باطينّة لأنّها تعيش من الحياة التي تلقّتها، تشعر بحاجة ملحاح إلى مساعدة عريسها يسوع المسيح في خلاص البشريّة.

فلا عجب أن يكون كتاب **التأسيسات** دليلاً للعمل، من خير ما حفظته لنا الكنيسة في تراثها. عمل تأسيسي، وتأمّل في العمل، وتصوير أسخاص في لوحات شيّقة (أبرزها صورت صديقها الحميم الأب أيرونيموس غراثيان). والكتاب على اتصال، في آنٍ، بأقرب ما يكون إلى الانسان: المال، البيوت المستأجَرَة أو المستملكة، والف مشكلة تنبت في كل مشروع ينطلق تنفيذه. انه عمل قديسة ممتلئة من حياة الله، مندفعة كلّها في مهمّة تبشيريَّة.

وأهم ما علينا فهمه لندرك معنى "العمل" لدى تريزا هو التأكيد أن الشخص يخرج من ذاته. أعني أن من يعمل بصفته مسيحيًّا، في مفهوم تريزا، إنّما يعمل كمساعد لآخر هو المسيح. فهو ينضمّ، شخصًا كان أو جماعة، إلى ما يعمله آخرون كثيرون في الكينسة لمساعدة ربّهم على إتمام عمل الخلاص اليوم. والعمل لدى تريزا إنّما يُفهم إنظلاقًا من صليب يسوع المسيح. فالمطلوب مساعدة يسوع على حمل الصّليب. وهذا الشّرط اللازم تفرضه تريزا من اللحْظة الأولى من الحياة الروحيّة: "وليساعِدْه على حمل صليبه مفكرًا أن يسوع قضى حياته كلَّها من الآلام، ولا يَبحَثْ عن الملكوت من هذه الدنيا، ولا يُهملنّ التأمّل أبدًا (**السيرة** ١١/١٠).

٤– الكتاب الواجب وضعه اليوم

كل قارئ يأتي إلى كتاب من زاويته الخاصّة: فالأديب، والمؤرّخ وغيرهما، يختار كلٌّ منهم شرفةً يطلّ منها عليه؛ والمسيحيون الذين يطالعون كتاب التأسيسات، يجب أن يطَّلعوا عليه من شرفتهم الخاصّة بحيث لا تَدَعهم مطالعته في اللامبالاة.

لكل كتاب من كتب تريزا الكبرى صفة خاصّة يستطيع القارئ أن يجد ذاته منعكسة فيه. فكتاب **السيرة** قصّة خلاص شخص بما فيها ارتداده؛ **وطريق الكمال** هو الحياة في الجماعة؛ و**القصر الباطنيّ**، هو عقيدة القداسة والمسيرة إليها؛ و**التأسيسات** هو المرآة التي تصوّر فيها تريزا كيف عاشت وهي تعمل لتقدّم مساعدة للمصلوب القائم من الموت؛ فنكتشف، نحن، ما نستطيع أن نفعله متضامنين، إنطلاقًا من موقعنا في العالم وفي أيّامنا هذه.

وأختم هذه الأسطر التي تلطّف صديقي العزيز أنطوان سعيد خاطر فسألني أن أخصّ بها ترجمة **التأسيسات** هذه بتسجيل ما يجب أن يبقى دائمًا من كلام تريزا، برأيي، في خلفيّة مطالعتنا الكتاب وهو:

أولاً، أن نلتمس في نعمة الله سندًا لضعفنا لدى إقدامنا على أيّ عمل. "فقد كان يحدث لي أحيانًا، عند القيام بتأسيسٍ ما، أن أجدَني مثقّلة بالأدواء والآلام، فينتابني غصَصٌ خانق، فإخالني عاجزةً حتى عن البقاء في الغرفة ولو مستيقظة، فأعود إلى ربِّنا، وأتشكّى إلى جلاله قائلة له كيف يريدني أن أفعلَ ما لا أستطيع فعله. فكان جلاله، من ثَمَّ، يعطيني قوّة؛ وبالاندفاع الذي يبثّه فيَّ وبرعايته لي، كنت إخالني أنسى ذاتي ولو شقَّ عليّ الأمر. واذكر الآن أني ما تقاعستُ قطّ عن القيام بتأسيس خوفًا من المشقّات، ولو انني كنت أشعر بأن الدروبَ تناهضني، خصوصًا

ما كان منها طويلاً؛ غير أني ما إن أباشر سلوكها حتى تبدو لي قصيرة إذ أنظر إلى مَنْ في سبيله اجتازها؛ وأعتبر أنَّ الربَّ سيُسَبَّح في ذلك البيت وان القربان الأقدس سيوجَد فيه" (**التاسيسات** ١٨/٤-٥).

وثانيًا، أن لا نخاف المستحيل، بل أن نحلم فيه كي نساعد المسيح.

"وكيف لا يرسو عليكَ، يا ربّي، أن لا ينجح من يحبّونك في أن يعملوا أعمالاً عظيمة، بل ننجح بفضل جبننا وحقارتنا! فإن لم نحزم أمرنا قطّ، بل نَدَعُ ألفَ خوفٍ وحَذَرٍ بشريّ تسيطر علينا، فإنّك، يا إلهي، لا تصنع معجزاتك وعظائمك" (**التأسيسات** ٢/٧).

إلا جعلت نعمةُ الله، والشجاعةُ التي تنفحنا بها، حوارنا مع هذه **التأسيسات** نافعًا، ولتكن مصدر نعم أوفَر فأوفر في حياتنا!

سرقسطه ١٩٩٦/٩/٥

أنطونيو ماس أرّوندو

(كاهن أبرشي)

سرقسطه – إسبانيا

التأسيسات

تمهيد

يسوع مخلّص البشر

خير الطاعة

١. أترك جانبًا ما طالعتُه في مؤلَّفات عدّة فأقول: إنّي عرفت بالاختبار الخيرَ العظيمَ في أن لا تخرجَ النفسُ على الطاعة. وأرى في هذا التقيّد السَّيرَ قُدُمًا في معارج الفضيلة، واكتسابَ التواضع؛ وفيه مأمَنٌ من الشكّ في أن نَضِلَّ طريق السماء، وهو مأمنٌ يجدر بنا، نحن البشر، أن نتمسَّك به ما دمنا على قيد الحياة. في الطاعة تُصادَف الطمأنينةُ التي تقدِّرها أيَّ تقدير نفوسٌ تبتغي مرضاةَ الله. فإذا سلّمت حقًّا أمرها إلى الطاعة المقدَّسة، وأخضعت لها عقلها، عازفَةً عن أن يكون لها رأيٌ غيرُ رأي معرّفها — وإذا كان الأمر متعلقًا برهبان فرأيُ رئيسهم –، فإن الشيطان يكفّ عن مهاجمتها بوساوسه المتواترة، إذ يرى أنه يؤوب خاسرًا أكثر منه رابحًا؛ وتتوقّف ايضًا الحركات الصاخبة التي تدفعنا إلى تنفيذ إرادتنا، بل إلى اخضاع ذهننا لأمور تتَّفق مع ما يسرّنا، إذ نتذكّر أننا وضعنا إرادتنا، بعزمٍ، في إرادة الله معتمدين واسطةً لذلك الخضوعَ لمن يقوم مقام الله.

أمّا وقد جادَ عليَّ، جلّ جلاله، بنورٍ لأَعرفَ الكنز الغالي الذي تنطوي عليه هذه الفضيلة الثمينة، فقد سعيت، على ضعفي ونقصي، ان اكتسبها، ولو ان ضعفَ الفضيلة الذي ألاحظه فيَّ غالبًا ما يناهض سعيي، فأراني لا أنفّذ بعضَ شؤونٍ يأمرونني بها. فليسُدَّ الجلالُ الإلهي ما ينقص فيَّ لإتمام هذا العمل.

دوافع الكتابة

٢. حين كنت في [دير] القديس يوسف في آڤيلا، سنة ألف وخمسماية واثنتين وستين، وهي السنة التي تاسَّس فيها الدير المذكور، أمرني الأب غرثيا دي توليدو، الدومنيكي، معرّفي آنذاك، أن أكتب قصّة تأسيس ذلك الدير، وأمورًا أخرى عديدة، يطلع عليها من يطّلع إن رأت النور. وإذ أنا الآن في سلمنكا، سنة ألف وخمسماية وثلاث وسبعين، أي بعد إحدى عشرة سنة من ذلك التاريخ، أسترشدُ لدى رئيس اليسوعيين، المعلّم ريبالدا، فقد رأي هذا الأب كتاب التأسيس الأول، فاعتبر أنني أقوم بخدمة ربّنا إذا كتبت قصّة إديارٍ سبعة أخرى تأسّست، مذ ذاك وحتّى الآن، بفضل الربّ، إلى جانب قصّة أول دير للآباء الحفاة من هذه الرهبانية، فأمرني أن أفعل. بدا لي الأمر مستحيلاً (بسبب الشؤون الكثيرة، والمراسلات، ومشاغل أخرى اضطرارية كونها تتناول شؤونًا أمر بها الرؤساء)، فأخذت أتوسّل إلى الله وأنا أشعر ببعض الضيق، لأنني غير أهل للمهمّة، وصحّتي في سوءٍ أيِّ سوء بحيث كنت إخالني غالبًا، بقطع النظر عمّا سبق، عاجزةً عن احتمال المشاقّ نظرًا إلى طبعي الضعيف؛ فقال لي الربّ: "**يا ابنتي، إنّ الطاعّة تعطي القوّة**".

رواية كلّ الحقيقة

٣. ألا رَضِيَ جلالُه ليصحّ ذلك، وليعطني نعمةً لأصيب في رواية المِنن التي صنعها إلى هذه الرهبانية لمجده، بواسطة هذه التأسيسات. وليكن ثابتًا أن سَتُروى كلُّ الحقيقة، بحسب ما أعرفه، من دون مغالاة، بل وفقًا للواقع

الذي حدث. فأنا، حتى في شأنٍ تافهٍ جدًّا لا آتي كذبًا مهما كلّف الأمر؛ ففي هذا الذي يُكتَب ليُحْمَدَ ربّنا، يكون ضميري مثقلاً جدًّا [لو أتيت كذبًا]، وأعتقد أنّني لا أكون ضيّعت وقتي فحسب، بل خادعت في أمورِ الله؛ وبدلاً من أن يُحْمَدَ بسببها، تلحقه الإهانة؛ فتكون تلك حياته عظمى. أَلا لا يَسْمَحَنَّ جلالُه بأن يرخي بي بده، كي لا آتي هذه الخيانة.

سأتناول تأسيس [كلُّ دير] وأحاول الإيجاز إذا استطعت، لأنّ أسلوبي ثقيلٌ جدًّا بحيث إنّي، ولو صحَّ عزمي، أخشى أن أُضجِرَ الآخرين، وأن يصيبني السأم. إلاَّ أن ذلك يستطاع احتمالُه بفضل الحبّ الذي تكنّه لي بناتي اللواتي سيؤول إليهنَّ الكتاب بعد وفاتي.

الحمد لله

٤. وما دمت لا أسعى في أيّ أمر إلى منفعةٍ خاصّة، ولا دافعَ لديَّ إلاّ حمدُ ربِّنا ومجدُه، وستُرى أمور كثيرة تدعو إلى ذلك، ألا رَضِيَ بأن لا يخطرَ ببال أحد ممّن يطالعون الكتاب أن يخصّني بحمدٍ، لأن ذلك يكون مخالفًا للحقيقة؛ بل فليسألوا جلاله أن يغفر في إساءَتي الاستفادةَ من جميع مِنَنه. على هذا استحقّ اللوم يا بناتي أكثر كثيرًا من شكري على صُنِعَ؛ فلنشكرنَّ صلاحَ الله جميعنا، يا بناتي، على المِنن الكثيرة التي صنعها معنا. وإنّي أسأل من يطالع الكتاب أن يتلو السلام الملائكي حبًّا بالله فيساعدني على الخروج من المطهر؛ فأصل إلى رؤية ربّنا يسوع المسيح، الذي يحيا ويملك مع الآب والروح القدس إلى أبد الآبدين، آمين.

أمور في التأمّل

٥. وأراني، لضعف ذاكرتي، سأغفل أمورًا عديدة كثيرة الأهمية، فيما أذكر أخرى يمكن إهمالها. ويمكن أن يُنسَبَ ذلك إلى تقصير ذهني وغباوتي، وإلى قلَّةِ الطمأنينة التي أنعمُ بها. وأمروني أيضًا، إذا أتيح المجال، أن أتناول بعضَ أمورٍ في التأمّل، وبعضَ الخدائع التي قد تقع ضحيَّتَها من يمارسونه فتحول دون تقدّمهم.

حُكم الكنيسة

٦. وإني أَخضع في كل شيء لحكمِ أمّنا الكنيسة الرومانية المقدّسة؛ كما أنّي عازمة، يا أخواتي وبناتي، على أن أعرض الكتاب على علماء وذوي حياة روحية قبل أن يوضع بين أيديكنَّ. وأبدأ باسم ربّنا، مستعينةً بأمِّه المجيدة التي ألبس ثوبها ولو أنّني غير أهل له، وبأبينا وسيّدنا القديس يوسف المجيد الذي أسكن منزله، فَتَحْتَ حمايته وُضِعَ دير الراهبات الحافيت هذا اللواتي ساعدتني صلواتهنّ دائمًا.

٧. سنة ١٥٧٣، في عيد القديس لويس ملك فرنسا، في اليوم الرابع والعشرين من آب / أغسطس.

لله الحمد!

تأسيس دير القديس يوسف للكرمليات

في مدينا دِل كومبو

الفصل الأول

في الظروف التي شُرِعَ فيها السعي لهذا التأسيس وسائر التأسيسات.

إزدياد عدد الراهبات

١. بعد إنشاء [دير] القديس يوسف في آڤيلا، نكثتُ فيه خمس سنوات كانت، على ما أرى الآن، أهنأ سنيّ حياتي، وتشتاق نفسي الآن إلى هدوئها وسكينتها أكثر ما تشتاق. في تلك الفترة، دخلَتْ [ذلك الديرَ] بعضُ فيتيات تقيّات كان العالم، على ما يبدو، قد اجتذبهنّ إليه نظرًا إلى مظاهر الزينة والترف لديهنَّ. وإذ عجَّل الربّ إعجالاً في إخراجهنَّ من تلك الأباطيل، جاء بهنَّ إلى منزله مانحًا إيّاهنَّ كمالاً رفيعًا فأثرن فيَّ حيرةً كبرى، وبلغ عددهنَّ ثلاث عشرة، وهو العدد الذي كان مقرَّرًا أن لا نتجاوزه.

قداسة وتجرّد

٢. لقد كنت أتنعَّم بين نفوسٍ على هذه الدرجة من القداسة والنقاء، وهمّهنَّ الوحيد خدمةُ ربّنا وتسبيحُه. كان جلاله يرسل إلينا ما هو ضروري من دون أن نطلبه؛ فإذا عازنا شيء، ونادرًا نادرًا ما حصل ذلك، كان ابتهاجهنَّ أوفر. لقد كنت أحمد ربَّنا على كثرة فضائلهنَّ وسموّها، وخصوصًا على عدم اكتراثهنَّ بشيء سوى بخدمته. وأنا، الرئيسة آنذاك، لا أذكر أبدًا أنّي شغلت فكرت في احتياجاتنا؛ فقد كنت راسخة الاعتقاد أنَّ الربّ لا يمكن أن يُعْوِزَ الذين لا همّ لهم سوى مَرضاته. وإذا حصل مرّةً ما نقصٌ في الغذاء للجميع فطلبتُ أن يُوَزَّعَ الموجود على أكثرهنَّ حاجةً، كانت كلُّ واحدة ترى أنّها ليست المعنيَّة، فيبقى الحال هكذا إلى أن يرسل الله ما يكفي للجميع.

اختبار الطاعة

٣. باستطاعتي أن أتبسَّط في الحديث عن فضيلة الطاعة كما كنت أراها تُمارَس في ذلك الدير، وهو فضيلةٌ أكنّ لها كبيرَ التقدير — ولو أني ما كنت أُحسنُ تحصيلَها إلى أن عرّفتني بها خادرمات الله أولئك كي لا أجهلها إذا كنت أمتلك فضيلة — ويَحضُرني الآن أمرٌ، وهو أنّني كنت ذات يوم في غرفة الطعام، فقُدِّمت لنا حصّةٌ من الخيار، فأصابني منها واحدةٌ رقيقةٌ وداخلها مهترئ. فدعوت بلَبْقٍ واحدةً من أحسن الأخوات فهمًا ونبوغًا، وقلت لها، راغبةً في اختبار طاعتها، أن تمضي فتغرس تلك الخيارة في بستاننا الصغير. فسألتني إذا كان عليها أن تغرسها قائمة أو مسطَّحة. فأَجبتها بل مسطَّحة. فمضَت ففعلَت كما قلت لها، دون أن يخطر ببالها أنَّ الخيارة ستجفّ حتمًا. إلاَّ أن إتمامها الطاعّة أعمى بصيرتها الطبيعية فاعتقدت أنَّ الأمر مصيب.

بئر الماء

٤. كان يحدث لي أن أكلّف واحدةً بستّ مهامّ أو بسبع متناقضة، فتقبلها وهي صامتة، وتحسب ممكنًا تحقيقَها جميعًا. وكان هناك بئرٌ ماؤها سيّءُ الطعم أيَّ سوء برأي من ذاته ويبدو مستحيلاً استخراجه لأنّه بالغ العمق. فدعوت عمّالاً ليحاولوا ذلك فسخروا منّي بأنّي أودّ تبديد المال سدى. فسألت الأخوات رأيهنَّ. فقالت إحداهنَّ: "فلنحاول؛ فلا بدّ أن ربَّنا يرسل إليها مَن يجلب لنا ماءً ويوفّر له طعامًا؛ فيكون أوفرَ لجلاله أن يقدِّمه لنا في منزلنا فا يتوانى بالتالي عن أن يفعله". — وحين رأيت إيمانها الكبير ولهجتها الجازمة، وتيقَّنت صحّةَ كلامها، فخلافًا لرأي الخبير في أمور الينابيع والعارف بأمر الماء، فتكرَّم الربّ بأن وجدنا مجرى ماءٍ صالحٍ للشرب يكفينا، وما زلن يستعملنه حتى الآن.

فائدة الكتابة

٥. لا أروي الخبر على أنّه أعجوبة، ففي استطاعتي رواية أشياء أخرى؛ بل إنّما أرويه إظهارًا لإيمان هؤلاء الأخوات، لأنّه حصل كما وصفته، ولأنَّ هدفي الأول ليس الثناء على راهبات هذه الأديرة، فإنهنَّ، جميعًا، بفضل الربّ، يسكلن حتى الآن هذا السلوك. وحول هذه الأشياء وكثيرٍ غيرها يمكن أن يُكْتَبَ مطوَّلاً فيؤدّي إلى فائدة لأن الوافدات حديثًا [إلى الدير] بندفعن في الاقتداء بأولئك. وإذا كانت معرفة هذه الأمور تؤول إلى خدمة الربّ، فباستطاعة الرؤساء أن يأمروا الرئيسات ليضعْنَها كتابةً.

نفوس ملائكيّة

٦. لقد كانت هذه الشقيّة وسط نفوس ملائكية. لا أرى فيهنَّ سوى ملائكة، إذ لا يُخفَين عنّي أيَّة هفوة ولو باطنيّة؛ والمِنن، والرغائب السياميّة والتجرّد التي كان الربّ يَهَبُها لهنَّ كانت بالغة العظمة. عزاؤهنَّ يَجدْنَه في العزلة، حتي كنّ يؤكّدن لي أن الضجر لا يعتريهنَّ في الإنفراد، بل إنَّ الزائرين، ولو اخوتهنَّ، كانوا يُحدثون لهنَّ اضطرابًا. ومن استطاعت منهنّ أن تمكث في محبسة، اعتبرت نفسها أسعدَهنَّ. فحين كنت أتبصَّرُ شجاعةَ هذه النفوس والاندفاع الذي حباهنَّ الله ليحتملن خدمةً له، شجاعة واندفاع ليسا من شأن النساء، فغالبًا ما استنتجتُ أنَّ الربَّ أودعهنَّ هذه الكنوز لغايةٍ ما ساميّة. وهذا لا يعني أنّه مَرَّ في خاطري ما حصلَ فيما بعد، لأنّه كان يبدو لي مستحيلاً آنذاك إذ لم يكن هناك مبدأٌ يتيح لي تصوّره؛ لأنّ رغائبي، مع مرور الزمن، تعاظمت وتعاظمت كي أسهمَ بشيءٍ لخير نفسٍ من النفوس. وغالباً ما حسبتُني كمن يملك كنزاً ثمينًا مكنونًا ويشتهي أن يَنْعَمَ به الجميع، إلاّ أنَّهم يقيّدون يديه ليحولوا دون توزيعه. هكذا كنت إخال نفسي مقيّدة؛ فالربُّ كان يصطنِع معي، خلال تلك السنين، مننًا كبيرةً جدًّا وإخالني أسيءُ استعمالَها. كنت أخدم الربّ بصلواتي الحقيرة، وأحيُّ الأخوات على أن يفعلن مثلي؛ ويهوَيْنَ خيرَ النفوس ونموَّ كنيسته. فمن تعاطى معهنَّ تأثَّر بهنذَ تأثُّرًا حسنًا. بهذا كانت رغائبي الكبرى مُشْبعَة.

عذابها لهلاك النفوس

٧. بعد أربع سنوات، أو أكثر قليلاً فيما أظنُّ، جاءَني زائرًا راهبٌ فرنسيسكاني يدعى الأخ ألونسو مالدونادو، وهو عبد الله حقًّا، تحدوه، كما تحدوني، الرغائب في خير النفوس، ويَضَعُها موضعَ التنفيذ، فحسدته

على ذلك أيّما حسد. كان قَدِمَ من الهند[1] منذ زمن يسير. أخذ يحدّثني عن ملايين النفوس التي تصير إلى الهلاك هنالك بسبب النقص في التعليم، وألقى علينا عظةً وحديثًا حثّنا فيهما على التوبة، ومضى. فلبثتُ معذّبةً لهلاك هذا العدد الكبير من النفوس حتى ضاقت بي نفسي؛ فمضيت إلى منسكة وأنا أذرف دموعًا غزيرة. كنت أهتف إلى ربّنا متوسّلةً إليه أن يوفِّر لي وسيلةً قأقدر على أن أفعل شيئًا لأربح نفسًا ما تكون في خدمته — لأن الشيطان كان يذهب بالكثير من النفوس — وأن تستطيعَ صلاتي أمرًا ما لأني لست قادرة على فعل ما يزيد عن ذلك. لقد كنت أحسد حسدًا كبيرًا أولئك الذين يستطيعون أن ينصرفوا إلى هذا الأمر حبًّا بربّنا ولو قاسوا الموت ألف مرّة. وعند مطالعتنا في سِيَر القديسين أنهم ردّوا نفوسًا، يأخذني من التقوى، والرّقة، والحسد ما يزيد على أنواع الاستشهاد التي يقاسونها، لأن ربّنا جعل فيَّ ميلاً إلى الاعتقاد أنَّه يقدّر نفسًا نكسبها له بسعينا وصلاتنا بفضل رحمته أكثرَ من تقديره جميعَ ما نستطيع أن نقوم به نحوه من خدمات.

كلمة نبويّة من الربّ

٨. وفيما أنا في هذا الحزن العظيم، كنت أقوم بالتأمّل ذات ليلة فتمثّل لي ربّنا بالصورة المعتادة، وقال لي مُفصحًا عن حبٍّ كبير وكأنه أراد أن يعزّيني: **إنتظري قليلاً، يا ابنتي، فترَيْ أشياء عظيمة**.

رسخت هذه الكلمات في قلبي أيَّ رسوخ حتى ما استطعت نزعَها منِّي. ولئن كنت عاجزةً عن إدراك ما قد تعنيه، ولا أرى سبيلاً لأستطيع تخيّله، رغم إعمالي الفكرَ في الأمر كثيرًا، فقد غمرتني بتعزية، وشملني يقينٌ أنَّ هذه الكلمات صحيحةٌ؛ غير أن وسيلةَ تحقُّقها ما خطرت على مخيَّلتي قط. فمضى، في ما أظنّ، نصف سنةٍ أخرى على هذه الحال، جرى بعده ما سأرويه الآن.

[1] المقصود بالهند هنا العالم الجديد أو أميركا. ومالدونادو مارس الرسالة في اسبانيا الجديدة (المكسيك) بين ١٥٥١–١٥٦١. ومنذ هذه السنة دافع أماما ملك اسبانيا وأمام البابا عن الهنود وعن حقوقهم الإنسانيّة ضدّ الحكم الذين يبيحون الاستبداد بهم (م).

الفصل الثاني

في مجيء أبينا العام إلى آڤيلا وما حصل عند مجيئه.

هواجس ما قبل زيارة الرئيس

١. إنّ رؤساء رهبانيَّتنا العامّين يقيمون في روما، وما جاء واحدٌ منهم قطّ إلى اسبانيا؛ فكان يبدو مستحيلاً أن يأتي الآن. ولما لم يكن شيءٌ مستحيلاً لدى ربّنا في أمرٍ يريده، فقد رتَّب جلاله أن يحصل الآن ما لم يحصلْ من قبل قط. وعندما اطَّلعتُ على الأمر، أذكر أنه أحزنني، لأن دير القديس يوسف، كما قيل في تأسيسه، لم يكن خاضعًا للرهبان للسبب الذي ذُكِرَ[١]. وخشيتُ أمرَيْن: أحدهما، أن يغضَب عليَّ [الرئيس العام]، ومن حقّه ذلك لأنّه لم يكن مطّلعًا على مجرى الأمور؛ والثاني أن يأمرني بالعودة إلى دير التجسّد، التابع للقانون الملطَّف، فيسبّب ذلك لي إحباطًا لأسباب عديدة لا فائدة من إيرادها. يكفي واحدٌ منها وهو أنني لا أستطيع هناك أن أحفظ صرامة القانون الأول، وأن عددَ [الراهبات] يتجاوز مائةً وخمسين[٢]، بينما حيث يكون عددهنَّ قليلاً يكون هناك مزيدٌ من التوافق والطمأنينة. أمّا ربّنا فقد صنع الأمر أحسن ممّا كنت أتوقَّع، لأن الرئيس العام إنّما هو خادمٌ له، ورصينٌ جدًّا وذو علمٍ وافر، فرأى أنَّ العملَ صالحٌ، وما أظهر لي أدنى علامات الاستياء. أمّا اسمه فالأخ يوحنا المعمدان روبيو[٣].

عرضٌ صادق

٢. عندما وصل إلى آڤيلا، سعيت كي يزور ديرَ القديس يوسف، وقد رضي الأسقف أن يُستقبلَ بحفاوةٍ كما يُستقبلُ هو. فعرضتُ عليه الأمور بلكٍّ صدقٍ وإخلاص، لأنّي أميل من طبعي إلى التعاطي هكذا مع الرؤساء، كائنًا ما كان الأمر، لأنّهم يقومون مقام الله؛ وكذلك مع المعرّفين؛ وإذا لم أتصرَّف كذلك لا أرى نفسي في أمان. فقدَّمتُ له حسابًا عن نفسي، وعن حياتي كلِّها تقريبًا، على كونها حقيرة جدًّا. أمّا هو فعزّاني كثيرًا وطمأنني إلى أنّه لن يأمر بأن أغادرَ ذلك الدير.

تفويضات دقيقة

٣. سُرَّ حين رأي طريقة حياتنا، وفيها صورةٌ، ولو ناقصة، عن عهد رهبانيتنا العريق، وكيف أننا نحفظ القانون الأول بكلِّ دقَّة، لأن القانون العريق الملطّف وحده متَّبعٌ في جميع أديار الرهبانية. ورغبةً منه في دفع هذه

---

١ تأسيس دير القديس يوسف (آڤيلا) ووضع تحت سلطة أسقف المدينة، لأن الرئيس الأقليمي للكرمليين رفض الرعاية. راجع السيرة، ١٣/٢٣–١٥؛ وفصل ١٦/٣٣.

٢ وقد وصل إلى ١٨٠ راهبة.

٣ Juan Bautista RUBEO, en italiano ROSSI (١٥٠٧ – ١٥٧٨).

الانطلاقة قُدُمًا، أعطاني تقويضاتٍ دفيقةً لإنشاء مزيدٍ من الأديار، وتوقيعاتٍ كي لا يَعترضَ عملي أيُّ رئيسٍ إقليمي. وهذه التوقيعات والتفويضات لم أطلبها منه، لكنه أدرك من طريقة ممارستي التأمّل أنَّ رغائبي العظمى هي أن أسهم في تقريب نفسٍ ما من الله.

تأسيس مزيدٍ من الأديار

٤. وما كنت أسعى وراء هذه الوسائل، بل كنت أعتبر السعي إليها حماقةً، لأنّ امرأةً صغيرةً عاجزةً مثلي تعرف جيّدًا أنّها لا تستطيع شيئًا. غير أن النفس حين تغشاها هذه الرغائب لا تستطيع رفضها. إن محبّة إرضاء الله والإيمان يجعلان مستطاعًا ما ليس بمستطاع بحسب العقل الطبيعي. وعليه، حين لمست رغبة رئيسنا العام الجزيل الاحترام في أن أنشئ مزيدًا من الأديار، خِلتُني أرى الأديار مُنْشَأَة. وحين تذكَّرتُ الكلام الذي كان قد وجَّهه اليَّ ربّنا[٤]، رأيت فيه مستهَلاًّ لما لم أكن أفهمه سابقًا. أسِفت أسفًا عميقًا حين رأيت رئيسنا العام يعود إلى روما؛ لقد كنت مَحَضْتُه مودّةً كبيرةً فخِلْتُني بقيت في مهبّ الريح. لطالما أبدى لي عطفًا كبيرًا وافرًا، وإذا استطاع أن يتفرّغ من مشاغله، كان يذهب إلى هنالك[٥] ليعالج شؤونًا روحيّة، وهو مَن غَمَره الربُّ بمِنن عظمى، فكان سماعُنا إيّاه في هذه الحال تعزيةً لنا. وقبل ذهابه، فإن الأسقف — دون القارو دي مندوثا[٦] – الميّال إلى مساعدة من يراهم يسعون في خدمة الله خدمةً أكثر كمالاً، ألحَّ عليه كي يجيز له أن تُنْشَأَ في أبرشيته بضعة أديار للرهبان الحفاة الذين يتبعون القانون الأول. وطلب الأمر نفسه أشخاص آخرون. وكان بودّه أن يفعل، إلاّ أنّه وَجَدَ خلافًا في الرهبانية فأعرض عن ذلك لئلاَّ تَحدُثَ بلبلةٌ في الاقليم.

إنشاء أديار للرهبان

٥. بعد بضعة أيام، وأنا أفكّر في كم يكون ضروريًّا، إذا أُنْشئت أديارٌ للراهبات، أن يوجد أيضًا رهبان ينضوون تحت القانون نفسه، وكنت أراهم قلّةً نادرة من هذا الاقليم حتى بتّ أحسب أنهّم سينقرضون، أوكلتُ الأمر إلى ربِّنا، وكتبتُ إلى ابينا العام رسالةً ألتمس فيها ذلك بأحسن ما عرفت أن أتوسّل به، وعرضتُ الأسباب التي تبيّن أنَّ في ذلك خدمة عظمى لله؛ أما المحاذير فليست لتبرّر العزوفَ عن مشروع صالح كهذا؛ وقد أبرزتُ بنوع خاص التكريمَ الذي يتوافر لسيِّدتنا العذراء، لأنّه يكنُّ لها إكرامًا مميَّزًا. ولا شكّ إنها هي التي فاوضَتْ، لأن هذه الرسالة وصلت إليه وهو في بلنسية، ومن هذه المدينة أرسل إليَّ إجازةً لتأسيس ديرَيْن رغبةً منه في دفع الرهبانية إلى كمال أوفر. وتجنّبًا لأيّ خلاف، فقد أرسل تفويض التنفيذ إلى الرئيس الإقليمي آنذاك، وإلى الرئيس السابق، رغم الصعوبة العظمى للإتصال به. أمّا وقد رأيت الأهمّ قد تحقّق، فأَمَلْتُ أن الربّ يكمّل الباقي، وهكذا كان. فبفضل مساعدة الأسقف الذي كان حريصًا على هذا المشروع، وافق كلاهما عليه.

الحاجة إلى راهب

---

٤ راجع ١/٨.

٥ أي إلى دير القديس يوسف (م).

٦ Don Alvaro de MENDOZA.

٦. وَجَدْتُ في الإجازات تعزية، لكن همّي تعاظم لأنّه لم يكن في الاقليم راهب، بحسب ما أعرف، ليقوم بالتنفيذ، ولا علمانيّ يودّ الانطلاق بالمشروع.فكان عملي الوحيد التوسّل إلى ربِّنا بأن يوقظ ولو شخصًا واحدًا. ما كنت أملك منزلاً، ولا وسيلةً لامتلاكه. ها هي ذي راهبة فقيرة، حافية، لا عون لها ولا إمكانيّة، عليها أن تنفِّذَ العمل. غير أن اندفاعي ما خار ولا وَهُنَ رجائي. فما دام الربُّ أعطى هذا فهو يعطي ذاك[٧]. لقد صار كلُّ شيءٍ ممكنًا بنظري. وهكذا شرعت في وضعه موضعَ التنفيذ.

ابتهال وتسبيح

٧. اللهمَّ ما أعظمَك! ما أروع ما تفصحُ عن قدرتك وأنت تعطي نملةً جرأة! وما أوضحَ ما يعود تقاعسُ محبّيك عن تحقيق أعمال كبرى إلى جُبنِنا وصِغَر نفسنا وليس إليك، أنت، ربّي! فلأننا لا نصمّم أبدًا، بل يغمرُنا ألفُ خوف والفُ حَذَرٍ بشري، لا تحقّق، يا إلهي، عجائبك وعظائمك. من تُراه يفوقُك حبًّا في العطاء إذا وجد من يعطيه، ومن يَرْجَحُك[٨] جزاءَ لخدماتٍ تُقَدَّمُ له؟ ألا رضي جلالك بأن أكون قدّمتُ لكَ خدمةً ما، وأن لا أُلزَم بعدُ بتأدية حسابٍ عن الكثير الذي تلقَّيتُه، آمين.

٧ سهّل الرب اعطاء إجازة التأسيس، فسيسهّل تنفيذه (م).

٨ يفوقُكَ.

الفصل الثالث

في الظروف التي بوشر فيها السعي لإنشاء دير القديس يوسف في مدينا دِل كامبو.

مساعدة رئيس اليسوعيين

١. كنت غارقة في هذه الهموم كلّها، ففكّرت في أن أستعين بالآباء اليسوعيين المعتَبرين جدًّا في مِدينا، وكانوا مرشديَّ الروحيين طوال سنوات، كما ذكرت في التأسيس الأول، فوفّروا لنفسي خيرًا جزيلاً، فحفظت لهم دائمًا تقديرًا خاصًّا[١]. فكتبت بما أمرَني به الأب العام إلى رئيسهم وهو الذي كان لي مرشدًا سنوات عديدة، كما أشرت، ولو لم أذكر اسمه؛ انه يدعى بلطاسار القاريث[٢]، وهو الرئيس الإقليمي حاليًّا. فوعدني هو وجمهوره أن يفعلوا المستطاع؛ وفي الواقع، عملوا الكثير للحصول على موافقة الشعب والأسقف، ذلك أنّ الأمر متعلّق بدير ميزته الفقر، فالمسألة بالتالي صعبة حيثما كان. فطالت المفاوضات بضعة أيّام.

ذكر خوليان دي آڤيلا

٢. وقد قام بهذه المهمّة كاهن عابدٌ الله حقًّا، ومجرَّدٌ تمامًا من أمور الدنيا، ويمارس التأمّلأ كثيرًا. كان خادمَ الدير الذي أقيم فيه، ويحرّك الربّ فيه الرغائب التي يحرّكها فيَّ، فتفانى في مساعدتي كما سيذكر لاحقًا. انّه خوليان دي آڤيلا[٣].

مساعدة فتاة فاضلة

جصلتُ، إذًا، على الإذن، إلاّ أنّني ما كنت أملك منزلاً ولا فلسًا من ثمن منزل. أمّا الضمانة لتوفير الثقة لي، فلولا أن الربَّ يؤمِّنُها، من تراه كان يَضَع ثقته بجوّالةٍ مثلي؟[٤]. لقد دبَّر الربُّ الأمر. فإنّ فتاة فاضلة جدًّا لم يتوافر لها مكان للدخول في دير القديس يوسف، عَلمَتْ أن ديرًا آخر سيُنْشَأ، فجاءَت تسألني أن أقبلها فيه. كانت تملك بعض الفلوس، فلوسًا من القلّة ما لا يكفي لشراء منزل لكن لاستئجاره — فسعينا لاستئجاره– ولسدّ نفقات السفر. فخرجنا من آڤيلا، ولا عدَّة لنا سوى ذلك، أنا وراهبتان من دير القديس يوسف وأربع راهبات من دير التجسّد — وهو الدير الذي يتبع القانون الملطَّف، وفيه كنت أقيم قبل تأسيس دير القديس يوسف –، وبصحبتنا خادمنا الروحيّ الأب خوليان دي آڤيلا.

حصول بلبلة

---

١ التأسيس الأول هنا، أي في الفصول الأخيرة من السيرة. أنظر مقدمة التأسيسات ٢.

٢ Balltasar ALVAREZ (١٥٣٣ – ١٥٨٠).

٣ Julián de AVILA (١٥٢٧ – ١٦٠٥) ، رافق القديسة في أسفارٍ عديدة.

٤ إشارة إلى كثرة أسفارها واعمادها أكثر الأحيان على الحسنات (م).

٣. عندما شاع الخبر في المدينة حصلت بلبلة. فالبعض قالوا إنّني مجنونة؛ وآخرون كانوا ينتظرون نهاية تلك الحماقة. والأسقف نفسه – كما قال لي فيما بعد – كان يعتبر الحماقة كبيرة، ولو لم يصرّح لي آنذاك برأيه أو يعرقل سعيي، لأنّه يكنّ لي حبًّا كبيرًا ولا يزيد أن يحزنني. وأمطرني أصدقائي بوابل آرائهم السلبية، فأعَرْتهم قليل اهتمام؛ فما كانوا يشكّون، هم، في أمره، رأيته سهلاً يسيرًا، فما استطاعوا إقناعي بأنّه سيؤول إلى فشل.

أنطونيو دي هيريديا

وقبل أن نغادر آڤيلا، كنبتُ إلى أحد آباء رهبانيتنا، الأخ أنطونيو دي هيريديا[٥]، وهو آنذاك رئيس دير القديسة حنّة لآباء رهبانيتنا في مِدينا، وسألته أن يشتري لي منزلاً. فبحث في الأمر مع سيِّدة تكنُّ له احترامًا، وتملك منزلاً منهارًا كلّه، إلاّ غرفة فيه، لكنّه حسن الموقع. فكان من كرمها أن وعدته ببيعه إيّاه. فاتفقا من دون أن تطلب منه عربونًا ولا ضمانة إلاّ كلمته. ولو طلبتهما، لما وجدنا لذلك حيلة. كان الربُّ يدبّر كل شيء. ولم يكن للمنزل جدران؛ فاستأجرنا منزلاً آخر إلى أن يُسْتَصلَح ذاك، وكان يلزمه الكثير.

ظهور المعاكسات

٤. في نهاية اليوم الأول من رحلتنا، وصلنا ليلاً مُتْعَباتٍ بسبب سوء عدّتنا، إلى مدخل **أريڤالو**[٦]، فخرج للقائنا كاهنٌ صديق كان قد أعدّ لنا إقامةً في منزل يخصّ نسوةً متعبِّدات. وأَسَرَّ إليَّ أن ليس لدينا منزل، لأنّ الذي نريد شراءَه قريب من دير لرهبان القديس أغسطينوس، وهم يعارضون أن نقيم هناك، فسيقوم بيننا حتمًا نزاع. ألا، عونك اللهمّ! فعندما تريد، أنت يا ربّ، أن تبثّ قوّةً، فما أضعف ما تكون جميع المعاكسات! والواقع، أنَّ المعاكسات شجَّعتني. فبما أنّ الشيطان أخذ يثير الشغب، بدا لي أنَّ الربّ راضٍ عن إنشاء ذلك الدير. ومع هذا، فقد سألت [الكاهن الصديق] أن يكتم الأمر لئلاَّ يقلق رفيقاتي، بخاصّة رفيقتَّي اللَتين من دير التجسّد، لأنّ الأخريات يقفن إلى جانبي مهما كانت المشقّات. وكانت إحدى الإثنتين نائبة رئيسة الدير آنذاك، والراهبات عارضن بقوّة خروجَها. وكلتاهما من عائلة مرموقة، وخالفتا إرادةَ الأهل بمجيئهما لأنّهم كانوا يرون الأمر حماقة. ورأيت فيما بعد أنّهم كانوا على صواب تامّ. لكن عندما يريدني الربّ أن أؤسِّس ديرًا كهذا، أرى أن أيَّ واحدة لا توافقني على فكرتي لا يشكِّل رأيُها حجّةً كافيةً لأنقطع عن تنفيذ العمل قبل أن أتمّمه. فعندئذ تتراكم عليَّ الصعوبات كما سيُرى لاحقًا.

المعلم دومنغو بانييث

٥. عندما وصلنا إلى المنزل، علمتُ بوجود راهب دومنيكي، يعبد الله عبادةً حقّة، وكان معلّم اعترافي في أثناء وجودي في دير القديس يوسف. ولما كنت قد أَشدتُ مطوَّلاً بفضيلته لدى حديثي عن ذلك التأسيس، فأكتفي الآن بأن أذكر اسمه: إنّه المعلم دومنغو بانييث[٧]، رجلٌ ذو علمٍ واسعٍ ورزانة. كنت أتقيَّد برأيه، وفي تقديره،

---

٥ Antonio de HEREDIA باشر رأسًا الإصلاح الرهباني مع القديس يوحنا الصليب واتخذ اسم أنطونيو ليسوع (١٥١٠ – ١٦٠١).

٦ Arévalo.

٧ Domingo BAÑEZ.

أنَّ ما كنت مقبلةً على صنعه مثله مثل جميع الأشياء، ليس مستعصيًا. فمن إزداد معرفة بالله ازدادت أشغاله سهولة. واستنادًا إلى بعض منن عرف أن جلاله صنعها معي، وإلى ما رأى في تأسيس [دير] مار يوسف، كان يرى كلَّ شيءٍ ممكنًا. فشعرت بارتياح كبير عندما التقيته، وبدا لي أنَّ كلَّ شيء، بفضل مشورته، سيصيب نجاحًا؛ فأخبرته سرًّا بما يجري. أمّا هو، فرأى أنَّ الأمر يمكن تدبيره سريعًا مع الرهبان الأغوسطينيين. وأمّا أنا، فكان كلُّ تأخير شديدَ الوطأة عليّ لجهلي تدبير أمر هذا العدد من الراهبات. فأمضينا جميعًا تلك الليلة قليقات، لأن الخبر شاع.

سرعة في الحل

٦. في الغد، وصل باكرًا رئيس الدير في رهبانيتنا الأخ أنطونيو، فأخبرنا أنَّ المنزل الذي تمَّ الاتفاق على شرائه كان كافيًا، وأنَّ فيه رواقًا يمكن أن نجعله معبدًا إذا جُهِّز ببعض الستائر. فوافقنا على هذا الحلّ؛ وبدا لي، شخصيًا، حلاً جيّدًا لأن التعجيل خيرُ ما يناسبنا، إذ كنَّا خارج أديارها، ولأن المشروع يصادف معارضة، وقد اتَّعظت من التأسيس الأول وعليه أرَدْتُ أن يتمَّ استلام المنزل قبل انتشار الخبر. فقرَّرنا العمل حالاً. وما لبث أن جاء الأب المعلم دومنغو.

مصادفة الثيران

٧. وصلنا إلى مدينا دِل كامپو عشية عيد السيدة في آب/أغسطس عند منتصف الليل، فترجَّلنا أمام دير القديسة حنّة، لئلا نثير ضجَّةً، وسرنا إلى المنزل على الأقدام. ورَحِمَنا الربُّ رحمةً فلم ينطحنا ثور من الثيران التي كانوا أطلقوا إعدادًا للمصارعة في الغد. واستغرقنا في التفكير عطّل التمييز لدينا. إلاّ أنّ الربَّ الذي يرعى من يشتهون خدمته أنقذنا. والحقّ أننا ما كنا نلتمس سوى خدمته.

وصف المنزل

٨. بَلَغْنا إلى المنزل فدخلنا الرواق. بدت لي الجدران مهدّمة لو دون ما ظهرت عليه في وضح النهار. كأني بالربّ أراد أن يُعميَ ذلك الأب المبارك لئلاّ يرى أنه لا يناسب حفظ القربان المقدس هناك. أمّا الرواق فكان لازمًا إزالة الركام منه، وسقفه من دون قرميد، والجدران من دون بلاط، والليل قصير، ولم يكن لدينا إلاّ بعض الستائر، ثلاث على ما أعتقد، وهي ليست بشيء نظرًا إلى طول الرواق. حين رأيت أن لا يليق أن نقيم هناك مذبحًا، حرتُ في أمري. وحَسُنَ للربِّ الذي أراد أن يُتَدَبَّر الأمر حالاً، أن يكون لدى قيّم تلك السيّدة سجوفّ[٨] عديدة وستائر من دمقسٍ أزرق، وكانت أَمرته أن يعطينا كلَّ ما نحتاج إليه لأنّها امرأة صاحلة جدًّا.

إعداد المنزل

٨ سجوف ج سِجف وهي سِتران بينهما فُرجة.

٩. حين رأيت هذه العدّة الكاملة، حمدتُ الربَّ، وحَمَدَتْه، ولا شكّ، مثلي الراهبات الأخريات. لكن ما كنا ندري ما العمل بالمسامير، ولا يمكن شراؤها في تلك الساعة. فشرعنا نبحث في الجدران، فوجدنا عددًا منها بعد عناء. فمضى العبض يعلّقْنَ البُسُط، وأخذنا نحن ننظّف الأرض، وعملنا بسرعة قصوى حتى إذا انبلج الفجر كان المذبح مُعَدًّا، والناقوس الصغير معلَّقًا في الممرّ، وأمكن إقامة القداس. وكان هذا كافيًا لاستلام المكان. ما أدركنا ذلك، بل صمدنا القربان الأقدس، وتابعنا القداس من خلال شقوق باب كانت تجاه المذبح، إذ لم يكن هناك موضع آخر.

تعزية قصيرة

١٠. إلى هذا الوقت كنت مسرورةً جدًّا؛ فرؤيتي كنيسةً جديدة يُصْمَدُ فيها القربان الأقدس كان لي تعزيةً عظمى؛ إلاّ أن هذه التعزية دامت قليلاً. فبعد العداس، نظرت من خلال نافذ إلى الفناء فوجدت جدرانًا كاملة ساقطة في بعض أجزائها يستلزم إصلاحُها أيّامًا وأيّامًا. أَلا، عونك اللهمّ! ويا له كربًا ضغط على قلبي حين رأيت جلاله مُلقى في الشارع في زمن خطير كهذا بسبب اللوثيريين!

ضغط التجربة

١١. وإلى هذا، أُضيفت كل الصعوبات التي كان المعارضون يستطيعون إثارتها، وأدركتُ بوضوح أنّهم قد يكونون على حقّ. بدا لي مستحيلاً السيرُ قُدُمًا في ما بدأت به. كان كلُّ شيء يبدو سهلاً نظرًا إلى أنّي أصنعه في سبيل الله، لكن التجربة كانت تضغط الآن عليَّ أيَّ ضغط فكأنّني لم ألقَ من لدنه أيَّ مِنّة. ما كنت أرى سوى حقارتي وعجزي. وأيّ نجاح أستطيعه في استنادي إلى شيءٍ بائسٍ كهذين العجز والحقارة؟ لو أنني وحدث لكان أسهَلَ عليَّ، في ظنّي، احتمالُ الأمر؛ إلاّ أنّه كان يثقّل عليَّ كثيرًا التفكيرُ في أن رفيقاتي سيضطَرِرْن إلى العودة إلى ديرهنَّ بعد أن غادرنه على تباينٍ في الرأي. كما كان يبدو لي أنَّ هذا الإخفاف في البدء سيؤدّي إلى فشلِ كلِّ ما كنت أعتقد أن الله سيحقّقه فيما بعد. زِد على ذلك الخوف من أن يكون وهمًا ما كنت قد فهمته في أَثناء تأمّلي؛ وليس هذا عناءً يسيرًا بل إنّه أكبر عناء؛ فقد كان يروّعني أن يخدعني الشيطان.

آه، يا إلهي! ما أرهبه أمرًا أن تُرى نفسٌ تسمح، أنتَ، بأن تتعذّب! والحقّ أنني عندما أتذكّر هذه المحنة ومحنًا أخرى قاسيتها في هذه التأسيسات، أعتبر أنّه يجب أن لا نعير المشقّات الجسدية إهتمامًا، مهما اشتدَّت وطأتُها، إذا ما قورنت بهذه.

تعزية وارتياح

١٢. رغم العناء الذي كان سضغط عليَّ شديدًا، لم أكن أُفصح عن أدنى شيء لرفيقاتي لئلاّ أزيد عناءَهن عناء. ولازَمني هذا النَّصَبُ حتى المساء، حين أرسل رئيس اليسوعيين أحد الآباء ليزورني، فشجّعني وعزّاني كثيرًا. لم أكشف له إلاّ عن واحدةٍ من ضيقاتي، وهي أن نُرى مطروحاتٍ في الشارع. فأول ما بحثته معه أن يُستأجَرَ لنا منزلٌ، مهما كان الثمن، لننتقل إليه إلى أن تنتهيَ الترميمات؛ وبدأت أشعر الارتياح عندما رأيت الجماهير تَفِدُ إلى المكان، وأَنَّ أحدًا لم يَدْرِ بحماقتنا؛ لقد أدركَنا الله برحمة منه، لأنّه كان عينَ الصواب أن يؤخذَ

من لدننا القربان المقدّس. وأقدِّرُ الآن غبائي وقلَّةَ انتباهنا جميعًا لتناوله كلِّه؛ بل اعتبرت أنَّنا لو فعلنا لكان تعطُّلِ كلُّ شيء.

وفود الناس

١٣. ورغم كثرة المساعي، لم نجد في المدينة كلّها منزلاً للإيجار؛ فكنت أقضي أيّامًا وليالي مُضنية. ولئن كان هناك دائمًا أناس يسهرون أمام القربان الأقدس، فقد كنت أخشى من أن يناموا، فأنهضَ ليلاً لأنظر إليهم من خلال النافذة على ضوء القمر الساطع فأستطيع أن أراهم. كان القوم يَفِدون في تلك الأيام جماعات، فلا تسيئهم رؤية ربّنا ثانيةً في الرواق بل تحرِّك عبادتهم، وكأن جلاله لا يُتعبة التواضع من أجلنا، فلا يريد مغادرة المكان.

إحسان تاجر وسيّدة

١٤. بعد ثمانية أيّام لاحظ عَوَزَنا تاجرٌ يقيم في منزل فخم، فعرض علينا أن ننتقل إلى العلويّ منه فنقيم كأنّنا في منزلنا الخاصّ. كان في الطابق قاعة كبيرة جدًّا مذهَّبة قدَّمها لتكون معبدًا؛ وتطوّعت سيّدة تدعى هيلينا دي كيروغا[٩] تعبد الله عبادة حقَّة وتقطن منزلاً مجاورًا للمنزل الذي اشتريناه، تطوّعت لمساعدتنا على أن نشرع حالاً بإعداد مُصَلًّى يُصْمَدُ فيه القربان الأقدس وعلى ترتيب سُكنانا كأنّنا داخل الحصن. وقدّم لنا أناس آخرون حسناتٍ وافرةً تؤمِّن لنا الغِذاء، إلاّ أن هذه السيّدة كانت أوفرهم مساعَدَةً لي.

ترميم المنزل

١٥. بدأت أشعر منذئذ بالراحة؛ فحيثما أقمنا استطعنا الاحتباس التامّ وتلاوة ساعات الفرض الإلهي. أمّا المنزل، فكان الرئيس الصالح يجدّ في ترميمه فصادف مشقَّةً عظمى. واستمرّ العمل مدَّة شهرين؛ لكنّه جُهِّز تجهيزًا مناسبًا فاستطعنا الإقامة فيه عدّة سنوات بشكل ملائم. ومن ثمّ أخذ ربُّنا يحسِّن الوضع.

أول متطوّع لإصلاح الرهبان

١٦. وإذ كنت هنا، عكفت على الاهتمام بأديرة الرهبان؛ لكن لم يكن لي واحد منها[١٠]، كما قلت، فحرت في ما أعمل. فقرّرت أن ابحث الأمر سرًّا مع الرئيس هناك[١١] لأسمع نصحه. ففرح فرحًا عظيمًا عندما أطلعته على الأمر ووعد بأن يكون الأول؛ أمّا أنا فحسبت أنّه يسخر، وصارحته بفكري. فلئن كان دائمًا راهبًا صالحًا، يحبُّ التأمّل، ويجدّ في الدرس، ويلازم حجرتَه متبحّرًا في العلم، فما رأيته مؤهّلاً لإصلاح كهذا؛ فقد لا يتوافر لديه الروحي المناسب، ولا يتقيّد بصرامة القانون اللازمة لأنّه نحيفُ الصحّة وغيرُ ميّالٍ إلى ذلك كما يبدو. أمّا هو فأكّد لي تأكيدًا أن الربّ يدعوه منذ زمن إلى حياة أكثر صرامةً، ولذا قرّر أن يذهب إلى الكرتوسيين

---

٩ Dŏna Elena de QUIROGA (١٥٨١) ، قريبة إلى الكاردينال كيروغا، أصبحت فيما بعد كرملية حافية باسم هيلينا ليسوع، في الدير نفسه.

١٠ رئيس دير القديسة حنّة. راجع العد ٧ من هذا الفصل (م).

١١ كانت القديسة تنوي القيام بحركة الإصلاح في رهبانية الرجال أيضًا، وفي الواقع هي التي أطلقت تلك الحركة كما هو معروف (م).

ووعدوه بأن يقبلوه. ورغم هذا كلّه، فما كنت قنعتُ تمامًا ولو أني فرحت لسماع كلامه هذا، فرجوته أن يتريَّث بعض الوقت ويَرتاضَ في الأمور التي عليه أن يَعِدَ بها. ففعل طوال سنة قامت بوجهه في أثنائها مشقَّات، واضطهادات، وتُهَمٌ عديدة، فكأن الربّ أراد أن يجرّبه؛ فاحتمل كلّ ذلك أحسن احتمال وحقَّق تقدّمًا بيّنًا، فحمدت ربَّنا، ورأيت أن جلاله يُعدّه لمباشرة الاصلاح.

لقاء الأخ يوحنا الصليب

١٧. وصدف أن قدم ليزورنا يُعَبْدَ ذلك أحد الآباء، شابٌّ يدرس في سلمنكا يصحبه راهب آخر؛ فهذا روى لي أمورًا عجيبة عن حياة ذلك الأب ويدعى الأخ يوحنا الصليب[١٢]، فحمدت ربَّنا. حادثته فسرّني حديثه كثيرًا، وعلمت منه أن في نيّته الالتحاق بالكرتوسيين. فأطلعته على مشروعي وألحَحْتُ عليه أن ينتظر حتى يوفّر لنا الربُّ ديرًا، وإذا رغب في أن يزداد كمالاً فيكون خيرًا جزيلاً أن يفعل ذلك في رهبانيته نفسها فيؤدّي للربّ خدمةً جلَّى. فوعدني بأن يفعل على أن لا يتأَخّرَ الأمرُ طويلاً. فعندما رأيت أَنَّ هناك راهبين لمباشرة المشروع، وجدث أن قد تمّت العملية، ولو أنّني ما كنت بعد مقتنعةً تمامًا بالرئيس. فانتظرت لذلك بعض الوقت وحتى يتيسَّر لي مكانٌ أنطلق منه.

تعاظم الثقة والتقدير

١٨. وأخذت الراهبات يكسبن ثقة أهل المدينة والشعب يزيد تقديره لهنَّ، وهم في ذلك مصيبون بنظري، لأنّ كلَّ واحدة منهنَّ كان همّها الوحيد كيف تستطيع أن تخدمَ ربَّنا. وكنَّ يسلكن في كلّ شيء على طريقة الحياة في دير القديس يوسف في آڤيلا: فالنظام نفسه، والقانون هو هو هنا وهناك.

وأخذ الربّ يدعو بعض الفتيات ليلبسن الثوب، ويتكرّم عليهنَّ بمننٍ وافرةٍ جدًّا أثارت دهشتي. فليكن مباركًا مدى الدهر، آمين. فيبدو أنّه لا ينتظر سوى أن يحبَّه الناس حتى يحبّهم.

١٢ في الواقع كان اسمه في ذلك الحين الأخ يوحنا للقديس متّيا، وعند بداية الاصلاح بدّب اسمه إلى الأخ يوحنا الصليب (م).

الفصل الرابع

في بعض المِنن التي حباها الربّ راهبات هذه الأديرة؛ وفيه تنبيه على تصرّف الرئيسات معهنَّ.

توقّع الموت القريب

١. لا أدري كم سيمدّ الربّ حياتي أن يطيل إقامتي؛ أمّا الآن فيظهر أَنَّ لدي القليل من هذه وتلك، فبدا لي، قبل المضي قُدُمًا، أن أقدّم للرئيسات بعض مشوراتٍ تساعدهنَّ على فهم المرؤوسات وتوجيههنَّ إلى مزيد كمالٍ لنفوسهنَّ، ولو لم يكن موافقًا لتمام رضاهنَّ.

يمبغي أن يُلاحَظ أنّه عندما أُمِرْتُ بأن أكتب هذه التأسيسات، – وأترك جانبًا أوَّلها وهو دير القديس يوسف في آڤيلا الذي تحدَّثت عنه سابقاً –، كانت قد أُنشئت، بفضل الربّ، سبعةُ أديار بما فيها دير ألبا دي تورميس، وهو آخرها[1]. أمّا سبب عدم تأسيسي مزيدًا من الأديار، فلأنّ الرؤساء قيّدوني بأمور أخرى، كما سيرى فيما بعد.

عجز الشيطان عن خداعنا

٢. نظرتُ في ما يحصل من أمور روحيّة في هذه الأديار في السنوات الأخيرة، فرأيت أن الضرورة تقضي بأن أبسّط ما أريد قوله. ألا رضي ربّنا بأن يأتي رأيي صائبًا وفق ما أرى من ضرورةٍ لإبدائه. وما دام ليس في الأمر خِدَاعٌ، فما على النفوس أن يصيبها الخوف. فكما قلت في غير موضع، عندما كتبت في شؤون صغيرة تخصّ الأخوات[2]، عندما نسلك بضميرٍ نقيٍّ وبمقتضى الطاعة، فإنّ الربَّ لا يسمح أبدًا بإطلاق يد الشيطان ليخدعنا بحيث يستطيع أن يؤذي نفسنا، بل بالأحرى هو من ينخدع. فحين يعرف هذا، أظنّه لا يؤذينا بمقدار ما تؤذينا مخيَّلتُنا ومزاجنا المعتكر، بخاصّة إذا اعترتنا الكآبة. لأنّ طبعَ النساء ضعيف، وحبَّ الذات الذي يسيطر علينا مكّار. لقد قصدني أسخاص كُثُر، رجال ونساء، وراهبات من هذه الأديار، عرفتُ معرفةً جليّةً أنَّهم غالبًا ما يَخدعون أنفسهم دونما إرادةٍ منهم. ويقيني أن الشيطان يتدخّل ليخدعنا. على أن الربّ بجوده، كما رأيت لدى كثيرين منهم وعرفت، لم يُرخِ بهم يدَه. ولعلَّه يودّ ترويضهم في هذه المِحن ليتزوّدوا خبرةً.

الخطر في كل مكان

٣. إنّ شؤون التأمّل والكمال على درجة من الانحطاط في العالم بسب خطاياها، فأراني ملزمةً بأن أُبديَ رأيي كما يلي: ان كان كثيرون يخشون أن يسلكوا في هذا الطريق مع انّهم لا يرون فيه خطرًا، فما يكون من أمرهم إذا عرضنا بعض الأخطار؟ ومَع هذا، فالخطر في الحقيقة موجود في كلِّ مكان، وعلينا، ما دمنا في هذه

---

١ Alba de Tormes ألبا دي تورميس، قرية من مقاطعة سلمنكا على ضفاف نهر التورميس. في هذا الدير توفيت القديسة تريزا وفيه دفنت (م).

٢ إشارة إلى مشوراتها ونصائحها في كتاب طريق الكمال (م).

الحياة، أن نسير بخوف في كلِّ أمرٍ سائلين الربّ أن يعلّمنا وان لا يخذلنا. لكن الذين يُكثرون من التفكير في الله ويسعون في سيرتهم إلى لتقدّم في الكمال، كما قلت ذات مرّة فيما أظنّ، هم أبعد الناس عن أدنى خطر.

حبٌّ على السير

٤. إذا كنتَ، ربّي، تنقذنا غالبًا من المخاطر التي نزجّ فيها ذواتنا، ولو أَسأْنا إليك، فهل يصحّ أن نعتقد أنّك لن تحرّرها حين لا نلتمس سوى مسرّتك وتلذّذِنا معك؟ لن يدور ذلك في بالي إطلاقًا. قد يسمح الله بأحكامٍ منه خفيّةٍ أن تَحْدُثَ أشياء كان يجب أن تحصل في أيِّ حال؛ إلاّ أنَّ الخيرَ لم يُحدثْ شرًّا قط. فليكن هذا مَدعاةً كي نسعى إلى السير سيرًا أفضل في الطريق لنرضيَ عريسنا خيرَ مرضاةٍ ونلاقيَه سريعًا وليس لننقطعَ عن المسير؛ وكي نتشجَّعَ للسير بقوّةٍ في دروب الذُّرى[٣] الوعرة، كما هو درب الحياة هذه، وليس لنتقاعسَ عن سلوكه. ففي نهاية المطاق، إذا سلكنا بتواضع فإنّنا سنصل، برحمة الله، إلى مدينة أورشليم، حيث نجد كلَّ ما قاسيناه ضئيلاً، أو لا شيء، بمقابل ما نتنعّم به.

ظهور عظائم الله

٥. حين بدأتْ تَأْهَلُ بالسكذان أبراجُ حمامِ العذراء هذه[٤]، أخذ الجلال الإلهي يظهر عظائمه في هؤلاءِ النُسَيَّات الضعيفات، ولو أنهنَّ قويّات برغائبهنَّ في التخلّي عن كلِّ خليقة، وهو ما يجمع أكثر ما يجمع النفس وخالقها حين يكون ضميرها نقيًّا. وما كان ينبغي الإشارة إلى هذا الأمر، لأن التخلّي الحقيقي ليس ممكنًا في رأيي إن لم يصحبْه عدمُ إهانة الربّ. فعندما تدور مباحثاتهنّ ومداولاتهنَّ عليه وحده، فإنّ جلاله لا يريد، فيما يبدو، ان يبتعد عنهنَّ. هذا ما أراه الآن وما أستطيع أن أقوله قَوْلَةَ حقّ. فلتحذرِ الأمرَ اللواتي سيأتين من بعد ويُطالِعن ما كتبت؛ وإذا لم يَرَيْنَ ما يُرى الآن، فما عليهنَّ أن يتَّهمْنَ الزمن، لأن الزمن مؤاتٍ دائمًا كي يمنحَ الله مِنَنَه للذين يخدمونه خدمةً نصوحًا، ويجهدن في البحث عمّا إذا كان في هذا المجال من تقصيرٍ، لإصلاحه.

بين السَلف والخلف

٦. أسمع أحيانًا قولاً عن مُنشئي الرهبانيات وهو انهم كانوا الأساس، فكان الربّ بالتالي يولي أسلافنا القديسين أولئك مننًا أعظم ممّا يولينا. وهذه هي الحقيقة. على أنّه ينبغي أن ننظر دائمًا إليهم كأساس للذين يأتون بعدهم. فإذا لم نسقط، نحن الأحياء الآن، عن مستوى أسلافنا، وإن لم يسقط الذين يخلفوننا، فإن البناء يظلُّ راسخًا. ماذا ينفعني، أنا، أن يكون أسلافي قديسين، إذا صرت من بعدهم في غاية الحقارة وأترك البناء يُعيثُ فيه الفساد؟ وواضح أنَّ الذين يأتون بعد غيرهم لا يستذكرون الذين قضوا من زمن طويل كما يتذكَّرون الذين يعايشونهم. ومن التظرّف أن آسف لأني لست من الأوليات ولا أنظر الفرق بين حياتي وفضائلي وحياة أولئك الذين آتاهم الله مِننًا كبيرة وفضائلهم.

ابتهال وتشكٍّ

---

٣ الذُرى أي القِمم.

٤ كناية عن الأديار (م).

٧. عونك، اللّهمَّ ! يا لها أعذارًا ملتويةً وخِدَعًا فاضحة ! يحزّ في نفسي، يا إلهي، أن أكون على هذه الحقارة ومقصّرةً في خدمتك أيَّ تقسير. لكنذي أعرف أَنَّ الذنب ذنبي إذا لم تؤتني كما أتيتَها أسلافي. وتوجعني حياتي، يا ربّي، حين أقارنها بحياتهم، ولا أستطيع أن أقول ذلك دون أن أذرف دمعي. أرى أني ضيّعت ما حقّقوه، ولا يمكنني أن أتشكّى منك في أيّ حال. ولا يحقّ لأيّ واحدة منّا أن تتشكّى، بل عليها، إذا رأت رهبانيتها تتساقط، أن تسعى لتكون حجرًا يُعاد به رفعُ البناء، والربّ سيساعده في ذلك.

تقدّم الجميع في التطلّع

٨. وأعود إلى ما كنت أقوله لأنّي شططت كثيرًا. إنّ المِنن التي يصطنعها الربّ في هذه الأديرة وافرةٌ جدًّ حتى إذا وُجدت راهبة أو اثنتان في كل دير يقودهما الله الآن في طريق التفكُّر[٥]، فإن الأخريات جميعهنَّ يَصِلْنَ إلى التطلّع[٦] الكامل، بل إن بعضهنَّ يمضين إلى أبعد من ذلك حتى يبلغن الانخطاف. كما ان الربّ يؤتي أخرياتٍ منّةً من نوع آخر، كإيحاءاتٍ ورؤىً يُفهَم جليًّا أن مصدَرها الله. ولا يخلو ديرٌ الآن من واحدة أو من اثنتين أو ثلاث من هؤلاء. وأدرك تمامًا أن القداسة لا تقوم على هذه الأمور، ولا تنحصر نيَّتي في الثناء عليها، بل أن يُفهَم أنَّ النصائح التي أودّ أن أعرضها، لها ما يبرّرها.

٥ التفكُّر Meditación أو إعمال الفكر في التأمّل.

٦ التطلّع Contemplación وهو حالة متقدّمة في التأمّل. راجع كتاب يوحنا الصليب متصوّف، شاعر ومعلم الكنيسة. سلسلة "بحوث في تراث الكرمل"، بيروت ١٩٩٣، ص ٦٨ – ٧٣.

الفصل الخامس

بعض نصائح متعلّقة بالتأمّل والإيحاءات. وهي تفيد من يعيشون حياة عملية.

خبرة وتواضع

١. لا أدَّعي ولا يخالطني الفكر في أنَّ ما سأقوله سيكون مصيبًا أي إصابة فَيُتَّخذَ قاعدةً معصومة؛ فادّعاء ذلك حماقة في أمور شائكة كهذه. ولما كانت المسالك في طريق الروح عديدة، فقد أصيب في كلامي على ناحية من واحد منها. فإذا لم يفهمه من لا يسلكون فيه، فهذا يعني أنهم يسيرون في طريق آخر. وإذا لم يستفِدْ من كلامي أحد، فالربُّ يعرف حسن قصدي، لأنّه يعرف أني لئن لم أختبر كلَّ شيء فقد لاحظت الأمر لدى نفوس أخرى.

جوهر التأمّل الكامل

٢. وأوّل ما أودّ أن أعالجه، بحسب فهمي المحدود، هو ما يقوم عليه جوهر التأمّل الكامل. فقد صادفتُ أناسًا يعتبرون أنَّ كلَّ المسألة تقوم على إعمال الفكر؛ فإذا استطاعوا تركيزه طويلاً على الله، ولو أجهدوا أنفسهم، يحسبون أنفسهم روحانيين، أمّا إذا شرد ذهنُهم ولو نحو أشياء صالحة، ولو يستطيعوا تركيزه من بعد، يسيطر عليهم شعورٌ بالفشل ويحسبون أنفسهم خاسرين. لكنَّ هذه الأمور لا تصيب ذوي العلم، ولو أني صادفت البعض منهم في هذه الحال. أمّا نحن، النساء، فعلينا أن نكون على يقظة من هذه الجهالات. لا ازعم ان التأمّل الدائم في أعمال الربّ ليس نعمةً ينالها منه المتأمِّل؛ وحَسَنٌ أن يلتمسها؛ لكن يجب أن يُفهمَ أن ليست كلُّ المخيّلات أهلاً من طبعها لذلك؛ أمّا النفوس، فجميعها أهلٌ لأن تحِبّ. لقد بسطتُ ذاتَ مرّة الأسبابَ التي تدفع مخيَّلتنا إلى الشطط؛ بل بسطتُ بعضها وليس كلَّها لأن ذلك مستحيل؛ فلن أعود إلى الكلام على الوضوع الآن، بل أريد أن أوضحَ أن النفسَ ليست الفكر، وأن الفكرَ لا يأمر الإرادة، وإلاّ لكان حظّها سيّئًا. فاستفادة النفس لا تنتج من ثمَّ من تفكيرها كثيراً بل من حبّها كثيرًا.

العزم على العمل والتألم

٣. وكيف الحصول على هذا الحبّ ؟ انه [يتحقَّق] بالتصميم على العمل والمقاسات، وعلى ممارسة هذا المبدأ حيث تتاح ممارسته. والحقّ الحقّ ان التفكير في ما ندير به للبّ، وفي مَن هو ومَن نحن، يكفي كي يحمل النفس على التصميم، وهذا كسبٌ كبير ويناسب المبتدئين كثيرًا؛ شرط أن لا يعترض ذلك أمورٌ مرتبطة بالطاعة وبمساعدة القريب؛ فهذان الأمران إذا عرَضًا لنا يتطلَّبان وقتًا، فيقصّران الوقت الذي نشتهي بقوّة ان نخصّصة لله، وهو وقتٌ نخاله يقوم بالانفراد للتفكير فيه والتنعّم بأفضاله. فأن نتركَ هذا [الانفرد والتفكير فيه] لأيَّ من هذين العملين [الطاعة ومساعدة القريب] يعني أن نتفضّلَ عليه وأن نعملَ من أجله ما قاله هو بفمه: **كلّ ما صنعتمون لأحدٍ من أخوتي هؤلاء الصغار فلي صنعتموه** (**متى** ٢٥/٤٠). وفي ما خصّ الطاعة، فإنَّ مَن يحبّ الله حبًّا حقًّا لن يريد أن يسيرَ في طريقٍ غيرِ طريق الربّ: **أطاع حتى الموت** (**فيليبي** ٢/٨).

مصدر النفور

٤. وإذا كان هذا صحيحًا، فما مصدر النفور الذي نشعر به أكثر الأحيان عندما لا نقضي أوفرَ قسم من النهار منعزلين تمامًا ومستغرقين في الله، ولو كنّا منشغلين في أمور أخرى ؟ مصدره في رأيي سببان: الول منهما والأهمّ[1] هو حبّ الذات الذي يختلط بدقّة بنشاطنا فلا يدعنا ندرك من نريد أن نُسرَّ أكثر، الله أم أنفسنا. فواضح أن نفسًا بعد أن تبدأ تتذوّق **ما أطيب الربّ** (**مزمور** ٩/٣٣)، تفضّلُ أن ينعمَ جسمُها براحة ونفسُها بالهناء.

حبّ الله الصحيح

٥. ما أعظمَ حبَّ الذين يحبّون هذا الربّ حقًّا ويعرفون أنفسهم ! ما أقلَّ الراحّة التي يشعرون بها حين يرون أنّهم يُسهمون إسهامًا يسيرًا جدًّا كي تتقدَّم نفسٌ واحدة [في الكمال] ويزيد حبّها لله، أو لتوفير تعزيةٍ ما لها، أو لإنقاذها من خطرٍ ما ! ما أسوأ سكونَ بالهم مع راحتهم هذه وحدَهم وعندما لا يستطيعون بالأعمال والتأمّل، وبلجاجتهم على الربّ من أجل النفوس الكثيرة التي يضيمهم أن يروها تصير إلى الهلاك، فإن هؤلاء يخسرون تلذّذهم ويعتبرون هذه الخسارة سعادةً، لأنّهم ينسون مسرَّتهم ولا يَعون إلاّ كيف يعملون إرادة الربّ. وهذا ما يتحقّق في الطاعة. ما أقسى أن يطلب منّا الله بوضوح أن نفعل أمرًا يهمّه فنرفض فعلَهُ كي نُديمَ النظرَ إليه لأن في ذلك لذّةً لنا ! ما أَظْرَفَ تقدّمًا في حبّ الله أن نكبّلَ يديه حين نخال أنَّ تقدُّمَنا لا يتمّ إلاّ في طريقٍ واحد !

الطاعة والتقدّم الروحي

٦. أترك جانبًا ما قلته عما أختبرته[2] فأقول إنّي عرفت أشخاصًا كشفوا لي هذه الحقيقة وساعدوني على فهمها حين كنت أعاني الكثير لأتصرّف بشيء من وقتي، وهكذا كنت أُشفقُ عليهم إذ أراهم منشغلين دائمًا في شؤون وأشياءَ عديدةٍ تفرضها عليهم الطاعة؛ فكنت أفكّر في ذاتي، بل كنت أقول لهم إنّه يستحيل أن ينمو الروح وسط تلك الفوضى، لأنّ روحانيَّتهم كانت ضعيفة. آه يا ربّ، ما أبعد طرقك عن مخيّلاتنا البلهاء! وما أصحّ انك لا تريد من نفسٍ عازمة على حبّك وتُلقي بذاتها بين يديك، سوى أن تطيع، وان تعرفَ جيّدًا ما يؤول أكثر إلى خدمتك وأن تشتهيَه! إنّها لا تحتاج إلى التماس السبل واختيارها، لأنّ إرادتها هي إرادتك. وأنت، يا ربّي، تُعنى بتوجيهها إلى حيث تزداد كمالاً. ولو أن الرئيس لا يعير كمالَ نفسنا هذا الاهتمامَ بل يُعنى بتصريف الشؤون التي يخالها تناسب الجمهور، فأنت، يا إلهي، تهتمّ بكمال النفس وتُعدّها والأشياءَ التي تُعالج بحيث نجد أن روحنا ينمو ويتكمَّل، من دون ان ندري كيف، حتى يَدَعَنا في عَجَبٍ عُجاب.

الطاعة وحرّية الروح

---

١ السبب الثاني تورده في العدد ١٤.

٢ إشارة إلى ما قالته في العدد ١.

٧. هذا ما حصل لشخصٍ حادثته منذ أيام. فإن الطاعة هَمَكَتْه[٣] نحو خمسة عشر عامًا في شغلٍ شاغل في مهامّ ووظائفَ فيذكر أنها ما تركت له يومًا واحدًا لأموره، ولو أنّه كان يلتمس بعض فترات من اليوم ليركن إلى التأمّل والمحافظة على نقاء ضميره. إنّ هذه النفس من أكثر ما عرفتُ من النفوس ميلاً إلى الطاعة وهي تصيب بعدوى الطاعة كلَّ النفوس التي تعاشرها. لقد كافأها الربّ، بحيث وجدت ذاتها، من دون أن تدري كيف، تنعم بحرية الروح تلك التي يملكها الكاملون وتُقَدَّر وتشتهى أيّ تقرير واشتهاء، وفيها تكمن كلّ السّعادة التي يمكن أن تُشتهى في هذه الحياة؛ فهؤلاء [الكاملون] إذ لا يشتهون شيئًا، فإنّهم يملكون كلَّ شيء. لا شيء يخافونه في الأرض أو يشتهونه؛ لا المشقَّات تربكهم ولا المسرَّات تثير تحرّكهم. لا شيء، أخيرًا، يقدر أن ينزعَ سلامَهم، فسلامُهم أمرُه بيَد الله وحده. ولما كان لا شيء يستطيع أن يفصلهم عنه، ولا الخوف من خسرانه بقدر وحده أن يثير الغمّ فيهم، يرون سائر أمور الدنيا كلّها وكأنّها ليست موجودة لأنّها لا توفّر لهم مسرَّةً أو تنزعَها منهم. فما أسعدَ الطاعة والانقيادَ لها وهي التي أصابت ما أصابت !

الربّ وسط الطناجر

٨. ولا يقتصرُ الأمر على هذا الشخص فحسب؛ فقد عرفتُ أشخاصًا آخرين مثله ما كنت رأيتهم منذ سنوات عديدة، وعندما سألتهم كيف قضوا تلك السنين، كان جوابهم أنّهم ملأوها بالانشغال بالطاعة والمحبذة. ولقد رأيتُهم متقدّمين، من ناحيةٍ أخرى، في الشؤون الروحية، ما أثار دهشتي. فهيّا، يا بناتي! لا يأخذنَّكم الشعورُ بالفشل حين تشغلكم الطاعة في أمور خارجية. فإذا شَغَلَتكم في المطبخ، فاعرفنَ أن الربَّ موجودٌ وسط الطناجر يساعدكم باطنيًّا وخارجيًّا.

خبر راهب مطيع

٩. أذكر أَنَّ راهبًا أخبرني أنه صمَّم وعقد ضميره على أن لا يقول لا لأيِّ شيء يطلبه منه الرئيس مهما كان شاقًّا. وذات يوم قود أنهكه العمل، وكان الوقت متأخرًا، وهو لا يستطيع الوقوف، همَّ بأن يجلسَ كي يستريح قليلاً، فصادفه الر ئيس فطلب إليه أن يأخذ المعوَل فيمضي ليحفر البستان. فسكت على مضضٍ كبير من طبعه لأن قواه خائرة؛ لكنّه أخذ المعوَل، وحين همَّ بأن يدخل ممرًّا في البستان — وقد رأيت الممرَّ سنواتٍ كثيرةً بعد أن روى لي الحادثة لأنني أنشأت ديرًا هناك –، ظهر له ربُّنا حاملاً صليبه على منكبيه، مُتعبًا منهوكًا، فأفهمه بهذا أنَّ ما يعانيه ليس شيئًا إزاء تعبه، هو.

جوهر الكمال الأسمى

١٠. في اعتقادي، أنّ الشيطان حين يرى أنْ لا طريق آخر يؤدّي إلى ذروة الكمال بأسرع من طريق الطاعة، يثير مكارهَ وصعوباتٍ جمَّةً تحت ستار الخير. فلاحِظنَ ذلك جيّدًا وسَتَرَيْنَ واضحًا أنّي أقول الحقيقة. واضحٌ أن الكمال الأسمى لا يقوم على المباهج الباطنية، ولا على انخطافات شديدة أو على رؤىً، أو على روح النبوّة؛ بل إنّما يقوم على توافق إرادتنا وإرادة الله توافقًا تامًّا، بحيث يكفي أن نعرف أنّه يريد شيئًا ما حتى نريده بكلّ قوّتنا، ونقبل بفرح عظيم ما هو مُرٌّ قبولَنا ما هو لذيذ، مدركين أنذَ جلاله يريد ذلك. يبدو بالغ الصعوبة، ليس أن

٣ شَغَلته وأَلَّحَّت عليه.

نقوم بالتنفيذ، بل أن نُسَرَّ هذا السرور بأن نَقبلَ بكلِّ قوَّتنا وفي كل شيء ما يخالفُ طبعَنا؛ وإنَّ الأمر لذلك. إلاّ أنَّ الحبَّ، إذا كان كاملاً، يملك هذه القوّة، بحيث ننسى مسرّتنا لِنَسُرَّ مَنْ نحبّ. وإن الأمر لكذلك حقًّا. فحين نعرف أنّنا نرضي الله، فإنّ المشقّات، بالغاً ما بلغت صعوبتُها، تبدو لنا حلوةً. بهذه الطريقة، فإنّ الذين بلغوا هذه الدرجة، يحبّون الاضطهادات، والذلّ، والإهانات. وهذه حقيقةٌ واضحةٌ، ومعروفةٌ، وبسيطةٌ جدًّا فلا يبقى داعٍ إلى التبسّط فيها.

الطاعة وإخضاع الإرادة

١١. إنّ ما أتوخّى إيضاحه هو السبب الذي يجعل الطاعة، بحسب رأيي، الوسيلة الأسرع أو الواسطة الكبرى للوصول إلى هذه الحالة السعيدة. فيما أننا لسنا، في أيَّ حال، أسيادَ إرادتنا لنخصِّصَها كليًّا لله بصفاء ونقاوة، إلاَّ أن نُخضعها للعقل، فتكون الطاعة الطريق الصحيحَ لإخضاعها. ولا نصل إلى هذا الأمر بحجج مُرْضية، لأنّ طبعنا وحبَّنا الذاتي لديهما كثرةٌ من الدواعي تحول دون بلوغنا أبدًا هذه الغاية. فما هو معقول جدًّا يُصَوَّرُ لنا غالباً وكأنّه حماقةٌ إذا كانت لنا رغبةٌ فيه، ورغم رغبتنا في صنعه.

معركة باطنيّة

١٢. ويطول بنا الحديث في هذا الموضوع بحيث لا ننتهي من الكلام على هذه المعركة الباطنيّة وعلى الكثير ممذا ينصبه لنا الشيطان والعالم وشهوانيتنا لتشريد ذهننا.

فما العلاج ؟ – كما أنَّ فريقين ينشب بينهما خلافٌ شائك فيتعبان من التداعي فيتَّفِقان على قاضٍ يُلقيان الخلاف بين يديه، فلتَّتخِذْ نفسُنا قاضيًا، أكان الرئيسَ أو المرشد، عازمةً على أن لا تثيرَ من بعدُ خلافًا أو أن تفكّر في دعواها، بل أن تثقَ بكلام الربّ القائل: **من سمع منكم فقد سمع منّي (لوقا** ١٠/١٦)، وتُهمِلَ إرادتها. إنّ الربَّ يُثمَّن هذا التسليم — وبحقٍّ، لأنّه يعني اعتبار الربِّ سيًّا للحرية التي أعطانا إيّاها – ، حتى إذا تمرّسنا فيه، تُغلَب على أمرنا حينًا، ونخوض ألف معركة حينًا آخر، وكأن الحكمَ في دعوانا حماقةٌ بنظرنا؛ وننتهي، بهذه الرياضة الشاقّة، إلى التوافق وما نؤمر به؛ وشَقَّ علينا الأمرُ أم لم يشقّ، فإنّنا، في نهاية المطاف نفعله، والربُّ من ناحيته يساعدنا أيَّ مساعدة حتى يجعلنا أسياد إرادتنا وعقلِنا بمجرّد إخضاعنا إيّاهما له. فإذا صرنا أسياد أنفسنا يمكننا أن نكرّسَ ذاتَنا تكريسًا كاملاً لله، مقدّمين له إرادتَنا نقيةً ليضمّها إلى إرادته، سائلينه أن يُنزلَ من السماء نارَ حبّه ليحرقَ ذبيحتنا[٤]، نازعين منّا كلَّ ما يمكن أن يكدِّره؛ فنحن لم نقصّر؛ ولئن كلّفتنا مشقّاتٍ ثقيلة فقد وضعناها على المذبح، وعلى قدر استطاعتنا لم ندعها تلامس الأرض.

الاتحاد الحقيقي

٤ إشارة إلى ٣ ملوك ١٨/٣٨.

١٣. واضحٌ أن لا أحد يستطيع أن يعطيَ ما لا يملك، بل ينبغي أن يملكه أولاً. فصَدِّقْنَي أنّه كي نحصل على هذا الكنز، لا طريقَ خيرٌ من أن نحفرَ ونجدّ لنستخرجه من منجم الطاعة هذا؛ فكلّما أمعنّا في الحفر، وجدنا المزيد، وكلّما ازددنا تقيّدًا بالناس بحيث لا يكون لنا إرادة سوى إرادة رؤسائنا، نزداد سيادةً على إرادتنا لنجعلها متوافقةً وإرادة الله.

فانظرن، يا أخواتي، أيَّ مكافأة وافرة يُكافَأ إقلاعُكُنَّ عن ذوق العزلة. وأقول لكنَّ إن ابتعادكنَّ عن هذه العزلة لن يحول دون استعدادكنَّ لبلوغ هذا الاتحاد الحقيقي الذي ذكرته، أي أن أجعل إرادتي واحدةً وإرادة الله. هذا هو الاتحاد الذي أشتهيه وأَتمنَّاه لكنّ جميعًا، وليس الاستغراق اللذيذ الذي قد يحصل والذي يدعونه اتحادًا، وقد يكون كذلك لكنَّه يأتي بعد الاتحاد الذي ذكرته سابقًا. لكن إذا بقي بعدّ تعطّلِ [الحواسّ] هذا، قليلٌ من الطاعة وكثيرٌ من الارادة الذاتية، فإني أرى هذه الإرادة متحدةً بحبّ الذات أكثر منها بإرادة الله. ألا رضيَ جلاله بأن أضع موضعَ التنفيذ ما أنا مقتنعةٌ به.

نفع العزلة

١٤. السبب الثاني[٥]، لهذا النفور يعود في رأيي إلى أنّ ظروفَ إهانة الربّ في العزلة أقلُّ منها [في معاشرة الناس] — ولو ان بعض هذه الظروف لا يمكن إلاّ أن توجدَ حيثُما وجد الشياطين ووُجدْنا –، فكأن النفس تكون أكثر نقاوة؛ وإذا كانت تخشى الله، فإنها تشعر بارتياح لأنّها لا تصادفُ ما تعثرُ به. وفي الحقيقة، يبدو لي هذا سببًا كافيًا جدًّا لنستهي أن لا نعاشرَ أحدًا أكثر من اشتهائنا مباهج الله ومسرَّاته.

نفضيل العزلة مع الطاعة

١٥. هنا يُمتحن الحبّ، يا بناتي، ليس في الزوايا، بل في وسط الظروف/ وصدّقني، لو أتينا مزيدًا من الهفوات، بل ولو حدثت لنا بعض العثرات الصغيرة، كان كَسْبَنا يكون بإزائها أكبر. وليكن معلومًا أنّني أتحدّث دائمًا على افتراض أنّنا نأتيها ونحن نعمل تنفيذًا للطاعة أو بدافع المحبة؛ فإذا لم تتوافر هذه أو تلك، فإني أقطع بأن العزلة أفضل، يجب أن نرغب فيها ولو كنا نسلك في ما ذكرت. وفي الحقيقة، ان الرغبة في العزلة تلازم النفوس التي تحبّ الله حبًّا حقًّا. وإنّما أقول إن في ذلك[٦] كسبًا لنا، لأنّه يتاح لنا أن نعرف من نحن وإلى أيِّ حدٍّ تبلغ فضيلتنا. فإن شخصًا يلازم الاختلاء، فمهما خال نفسَه قديسًا، لا يَعرف ما إذا كان صبورًا، وليس لديه وسيلةٌ ليعرف ذلك. مثله مثل رجل يدّعي أنّه شجاع جدًا؛ كيف يُعرَف أنّه شجاع إذا لم يشترك في معركة؟ إنّ القديس بطرس كان يخال ذاته شجاعًا شجاعًا؛ لكن تذكَّرْنَ ماذا كان منه في إبّان [المعركة]. غير أنه خرج من تلك العثرة وهو لا يثق بنفسه، ومن ثمَّ وضع ثقته في الله وقاسى الشهادة فيم بعد كما رأينا.

المعرفة المتوضعة

٥ أي سبب الحزن الذي يشعر به من لا تتاح لهم العزلة. راجع السبب الأول وسياق عرضة في العدد ٤ (م).

٦ أي في الهفوات والعثرات (م).

١٦. آه، عونك اللهمَّ ! ليتنا ندرك كم هو عظيم شقاؤنا ! إنَّ في كل أمر خطرًا علينا إن لم نعرف هذا الشقاء. ولهذا السبب، فمن الخير العظيم لنا أن نُعطى أوامر لنتبيّن حقارتنا. وإنّي أعتبر منَّةً عظمى من الربّ قضاءَ يوم نعرف فيه نفسَنا معرفةً متواضعة، ولو كلَّفتنا أحزانًا ومشقَّاتٍ كثيرةً، أكثر من قضاءِ أيامٍ عديدة في التأمّل، خصوصًا وأنَّ المحبّ الحقيقي لا ينفكّ دائمًا يحبّ الحبيب في كلِّ مكان ويفكِّر فيه ! لَيَكونُ أمرًا قاسيًا أن لا نستطيعَ ممارسةَ التأمّل إلاّ في الزوايا. وأعرف أنَّ ذلك لا يمكن أن يدوم طويلاً؛ ولكن، آه، يا ربّي، ما أعظم ما يؤثّر فيك نَفَسٌ يخرج من أحشائنا تعبيرًا عن ألمنا، ليس فقط في هذا المنفى، بل لأنّه لا يتاح لنا حتى أن نكون في عزلة ونتلذّذَ معك[٧] !

الالتفات باطنيًّا إلى الله

١٧. هكذا نبيّن أننا عبيده، وقد بعْنا أنفسنا طوعًا، حبًّا به، لفضيلة الطاعة؛ فمن أجلها تخلَّينا، نوعاً ما، عن التلذّذ بالله نفسه. وهذا ليس بشيء إذا اعتبرنا أنّه، هو، جاء من حضن الآب بالطاعة ليصير عبدًا لنا. فأيّ بدل يمكن أن يُقَدَّم عن هذه المنّة أو بماذا تُقابَل ؟ ينبغي أن نكون على يقظة من أمرنا، فلا نتهاونَ، ونحن ننفّذ أشغالاً ولو بأمر الطاعة أو بدافع المحبة، في أن نُكثِرَ من الالتفات باطنيًّا إلى الله. وصدّقْنَني أَنْ ليس الوقتُ الطويل نقضيه في التأمّل هو ما يفيد النفس؛ فإنَّ حسنَ استخدام الوقت في الأشغال يساعد مساعدةً كبرى كي نُعَدَّ، في وقتٍ قصير، لنضطرم حبًّا أكثر من قضائنا ساعات طويلة في التبصّر. كل شيء يجب أن يأتي من يده. تبارك دائمًا أبدًا.

٧ لقد علّق الأب هيرونيموس غراثيان على هذا المقطع بالعبارة التالية: "يا له من عزاء للمنشغلين في أعمال المحبّة".

الفصل السادس

تنبيه إلى الأضرار التي يحدثها للروحانيين عدمُ إدراكهم متى يجب مقاومة الروح. تبحث في أشواق النفس إلى تناول القربان، وفي االوهم الذي يخالط هذه الأشواق. هناك أمور تهمّ اللواتي يدبّرن هذه الأديار.

افتتان كبير

١. لقد جهدتُ وأنا أسعى لأُفهمَ مصدرَ افتتانٍ كبير بأيته وقد أصاب أناسًا ممّن يتكرَّم الربّ عليهم بمسَّراتٍ كثيرة في التأمّل، ولا يقصّرون في الاستعداد لتلقّي مِنَنِه. لا أتكلّم الآن على الوقت الذي يعلّقها الله، جلّ جلاله ويَخْطفُها، لأنني أفضتُ الكتابة في ذلك في مواضع أخرى[١]؛ وليس لي أن أتحدث في موضوع كهذا لأنّنا لا نستطيع أن نفعل شيئًا، مهما حاولنا، إذا كان انجذابًا حقيقيًا. وينبغي أن نلاحظ أن القوّة التي تُعَطِّل فينا، في هذا الانجذاب، سيطرتَنا على أنفسنا، انما تدوم قليلاً. لكن يحدث غالبًا أن نبدأ نأمّل السكينة كنعاسٍ روحي، فتنجذب النفسُ إلى حدّ، وإذا لم نعرف كيف علينا أن نتصرّف، فقد نضيّع وقتًا طويلاً وتخور قوَّتُنا بذنبنا، فنجني كسبًا يسيرًا.

أنجذابٌ مزيَّف

٢. لكنت أودّ لو أني أحسن إيضاح الأمر هنا، إلاّ أنه من الصعوبة بحيث لا أدري إن كنت سأنجح. إلاّ أني أعرف أنّ النفوس التي وقعت في هذه الخدعة ستفهمها إذا أرادت تصديق كلامي. لقد عرفت أناسًا ذوي فضيلة كبيرة كانوا يمكثون سنع ساعات أو ثماني في حالٍ يخالونها انجذابًا؛ وأيَّةُ رياضة روحية شَغَلتهم تملَّكهم، فيستسلمون معتبرين أنّه لا يليق بهم أن يقاوموا الربّ[٢]. وعليه فقد يموتون موتًا بطيئًا أو يصيبهم التبلَه إذا لم يلتمسوا علاجًا.

الطبع الضعيف

وما أعرفه في هذا المجال هو أنه حين يبدأ الربُّ بأن يمتِّعَ النفسَ، وطبعُنا يهوى اللذّة أيَّ هوى، تنشغل بذوق تلك اللذّة أي انشغال، فترغب عن أية حركة من أجله وترفض أن تخسرها أيًّا كان البديل. وفي الواقع، أنها أطيب من لذّات العالم؛ وحين تتملّك ذوي الطبع الضعيف والفهم المماثل له – أو بالأحرى المخيّلة – أفكارٌ

---

١ راجع السيرة ٢٠.

٢ من جملة التيارات الروحانية التي عرفت في عصر القديسة تريزا، أي في القرن السادس عشر في اسبانيا، حركة "المتوكلين" أو "المستسلمين" الذين يعطّلون أيَّ نشاط شخصي، تاركين ذلك أو مسلّمينه إلى الدفعات الإلهية، وقد نظرت إليهم محاكم التفتيش بعين الحذر لأن منهم من قارب البدعة (م).

ثابتة، فإذا فهموا شيئًا يتشَّبثونَ به ولا يحيدون عنه – مثل أناس كثيرين يشرعون في التفكير في شيءٍ بعيد عن الله، فيستغرقون شاردي الذهن أن ينظرون من دون أن يدروا ماذا ينظرون، أناس هادئون أيَّ هدوء، كأنّهم ينسون ماذا عليهم أن يقولوا –، هكذا يحصل هنا لذوي الطبع الضعيف أو البنية النحيلة؛ أما سوداديّو المزاج، فكآبتهم تقنعهم بألف كذبة لذيذة.

ضرورة المقاومة

٣. عن هذا المزاج سأتحدث لاحقًا[٣]. على انه، ولو لم يكن حاصلاً، يحدث ما تكلّمت عليه، كذلك، لدى أناس، صرفوا حياتهم في التوبة. فما إن يبدأ الحبّ يُعجب الحواسّ، كما قلت، تراهُم يستسلمون إليه. وفي رأيي، لكانوا يحبّون حبًّا أفضل كثيرًا لو تحرّروا من الذهول؛ فهم في هذه المرحلة من التأمّل قادرون تمامًا على المقاومة. فكما أنَّ الانسان حين يحلّ به ضعفٌ يشعر بإغماءٍ يعطّل فيه الكلام والحركة، هكذا يكون أمره هنا، إذا لم يقاوم: فإن قوّة الروح تسيطر عليه وتقيّده إذا كان الطبعُ ضعيفًا.

الفرق بين الذهول والانجذاب

٤. قد يقال لي: وما الفرق بين هذه الحال [الذهول] وبين الانجذاب ؟ فهما شيء واحد، أقلّه ظاهرًا؛ وفي هذا لا تفوتهم الحجَّة، لكن الحقيقة مختلفة. فالانجذاب، أو اتحاد جميع قوى النفس [بالله]، يدوم قليلاً، كما ذكرت، ويُحدِث مفاعيل كبيرة، ويغمر النفس بنورٍ باطني، إلى جانب مكاسب أخرى وافرة؛ أمّا العقل، فلا يأتي بعمل، بل إن الربَّ هو الذي يعمل في الإرادة. أمّا هنا[٤]، فالأمر مختلف تمامًا: فلئن كان الجسد أسيراً، فالإرادة، والذاكرة، والعقل تبقى طليقة، وتقوم بعمليَّاتها في حالٍ من الشَطَط؛ وإذا صدف وتركّزت على أَمر، فتظلّ في أخذٍ وردّ[٥].

نصائح للرئيسات

٥. ولا أرى [النفس] تحقّق أيَّ كسب في هذا الضعف الجسدي – وهو ليس إلاّ ضعفًا جسديًّا – سوى أنَّ له منطلقًا صالحًا؛ لكن فلتستغلّه لتستخدمّ استخدامًا حسنًا هذا الوقت الطويل الذي تقضيه مستغرقة؛ وإنَّ فعلاً واحدًا وإيقاظَ الإرادة مرارًا لتزدادَ حبًّا لله، يوفّران كسبًا أعظم كثيرًا من بقاء الإرادة جامدة. وعليه، فإني أنصح الرئيسات بأن يجتهدن ما أمكنهنَّ في إزالة هذه الانقباضات الطويلة؛ وهي ليست في نظري سوى انقباضاتٍ، ولا ينحم عنها إلاَّ تَعطُّلُ القوى والحواس فلا تعمل ما تأمرها به النفس، فتُحرَمَ النفسُ المكسبَ الذي توفّره لها عادَةً فيما لو بقيت يَقِظَة. وإذا تيقّنت الرئيسة أن ذلك ضعف، فلتمنع الصومَ والإماتات – أعني غير الإلزامية، وقد يأتي وقت يمكن أن تعفيَ منها كلّها وضميرُها مرتاح –، ولتكلّف [الأخت] بمهامّ تُشغلها.

---

٣ في الفصل السابع.

٤ أي في الذهول، وهو الانجذاب الصوفي الزائف كما أشارت إليه في العدد ٢ (م).

٥ "أي في جدال ونقاش. وهذا يعني، في سياق النصّ، أنه بينما تكون الإرادة في حال انخطاف، فإنَّ العقل والذاكرة قد يكونان في حال حرب بسبب شططهما" (توماس) وعلى هذا يصحّ أن نترجم العبارة أيضًا بأنهما يبقيان "في كرّ وفرّ" (م).

نصيحة بتغيير الموضوع

٦. ولو لم يبلغ الحال بهنَّ حدّ التلاشي، فهذه التدابير ضرورية لبعضهنَّ حتى لو كانت مخيَّلتهنّ منشغلةً بمواضيع تأمّل ساميّة، لأنّه يحدث أحيانًا أن لا يُسيطرنَ على ذواتهنَّ. وإذاتلقّينّ من الربّ منّةً ما خارقةً، أو رأَيْنَ رؤيا، تبقى النفس وكأنّها مستمرةٌ في معاينة تلك الرؤيا؛ وليس الأمر كذلك، لأنّها لم تَرَها إلاَّ مرّةً واحدة. فعلى من رأت نفسها في هذا الاستغراق أيّامًا طويلة أن تجتهد في تغيير موضوع تبصّرها؛ فبما أنَّ [تبصّرَها] موضوعُه أمور الله، فلا بأس أن يتناول هذا الأمرَ أو ذاك؛ فإذا انشغلت بأمور الله، فالله يأنس أحيانًا أيّ أنسٍ بأن نتبصَّرَ في خلائقة، وفي قدرته على خلقها، كما يأنس حين نفكّر في الخالق نفسه.

جنون لذيذ

٧. ما أتْعَسَ شقاءَ الانسان، وقد صار إليه بفعل الخطيئة، فبات ينبغي علينا معه أن نستعمل الوزن والقياس حتى في شأن الخير، كي لا تؤولَ سحَّتنا إلى الحضيض فلا نستطيع أن نتلذّذ بالخير نفسه! وفي الحقيقة إنّ ذاك[٦] يناسب كثيرين من ذوي الفكر الضعيف، أو المخيَّلة الجامحة؛ ومعرفتُهم أنفسَهم خدمةٌ أوفى لربِّنا أمرٌ ضروري لهم. فحين ترى إحدى الأخوات يرتسم راسخصا في مخيَّلتها أحدث أسرار الآلام، أو مجدُ السماء، أو ما يشبه ذلك، وأنها تقضي أيّامًا عديدةً لا تستطيع التفكيرَ في شيءٍ آخر، ولو أرادت، أو أن تنعتقَ من استغراقها، فلتفهمْ أنه يلائمها أن تخرجَ من هذه الحال بأيِّ طريقة؛ وإلاَّ، فستدرك بعد وقتٍ وجيز، الضررَ الذي ينجم عنها، وأنَّ هذا الضرر يحصل عمَّا قلت، أي: إمّا عن وهن الجسد، أو عن ضعف المخيّلة، وهذا أسوأ من ذاك أيَّ سوء. فكما أنَّ مجنونصا تستبدّ به فكرة لا يكون سيّدَ نفسه، فلا يستطيع طرحها جانبًا ولا التفكير في أخرى، وليس هناك أسبابٌ تدفعه إلى الإقلاع عنها، لأنه ليس سيّد عقله، هكذا يمكن أن يحدثَ هنا، ولو أنَّ هذا جنونٌ لذيذ. وإذا كان مزاجها سوداويًا، فقد يسبّب لها أذىً خطيرًا. ولا أرى كيف يكون هذا خيرًا ما دامت النفسُ قادرةٌ على التمتّع بالله نفسه. فإذا لم تنشغلْ بواحدةٍ ممّا قُلت[٧]، والله متناهٍ، فلماذا عليها إذاً أن تكون أسيرةَ واحدةٍ من عظائمه أو أسراره ما دام لدينا الكثيرُ لننشغل به ؟ فكلّما أعْمَلْنا التبصّر في مزيدٍ من أموره، اكتشفنا مزيدًا من عظائمه.

أهميّة هذا الفصل

٨. ولست أقول إنَّ عليهنَّ أن يفكّرن في أشياءَ كثيرة في ساعة واحدة أو في يومٍ واحد، فهذا قد يحرمهُنَّ التلذّذَ بأيِّ خير. وبما أن هذه الأشياء لطيفةٌ أيّ لطف، فلا أريد أن ينسبنَ اليَّ ما لم يَرِدْ في خاطري قولُه، أو يحملن شيئًا على غير محمله. والحقيقة، أنّه لمن الأهمية بمكان كبير أن نفهم جيّدًا هذا الفصل. فلئن كنتُ ثقيلةً وأنا أكتبه، فإنّه لا يؤلمني، يعزّ عليَّ أن يثقلَ على من لم يفهَمْنَه من القراءَة الأولى. فليطالِعْنَه إذاً مرارًا عديدة، خصوصًا الرئيسات ومعلِّمات المبتدئات اللواتي عليهنَّ توجيهُ الأخوات في طريق التأمّل. فإذا لم يسلكن في حذر في البدء، فسيَرَيْنَ أنّه سيلزمهنَّ وقتٌ طويل فيما بعد لمعالجة أنواع ضعفٍ كهذه.

خبر راهبتين

---

٦ أي النصائح والتوجيهات التي وردت في آخر العدد السابق والتي ترى فيها القديسة صورة عن شقاء الانسان.

٧ في آخر العدد ٦.

٩. لو كتبت عن الضرر الجسيم الذي حصل في حالاتٍ عديدة ولغ خبرهُ سمعي، لظهر أنّي على حقّ في التشديد على هذا الموضوع. لكنّي أكتفي بواحدةٍ وبها يُحكَمُ على الحوادث الأخرى. في أحد أديارنا راهبة وأختٌ مساعدة، تمارس كلتاهما تأمّلاً رفيعًا، وتمارسان الإماتة والتواضع وسائر الفضائل، ويُنعم الربُّ عليهما بأفضالٍ رفيعة، ويُبلغ إليهما بعض عظائمه. وتتميَّزان، بنوعٍ خاص، بتجرّدهما وبانشغالهما بحبّه. وطالما حاولنا أن نراقبهما عن قرب، فما استطعنا أن نرى، بحسب حقارتنا، إلاَّ انّهما تتجاوبان والمننّ التي يمنحهما إيّاها الربّ. لقد شدَّدتُ على فضيلتهما لعلّ اللواتي لم تتوافر لهنَّ الفضيلة يزددن خشية. بدأت تنتابهما اندفاعاتٌ عنيفة نتيجةَ شوفهما إلى الربّ بحيث لا تقويان على احتمالها ولا يُسَكِّنُ اندفاعاتهما، بنظرهما، إلاّ تناولُ القربان. فالتمستا، إذاً، من معرّفَيهما السّماحَ لهما بالإكثار من التناول، حتى إنَّ ضيقَهما صار يشتدّ عليهما ايّ شدّة حين لا تتناولان كلَّ يوم بحيث كانتا تُخالان تموتان. أمّا المعرّفان، وقد رأيا هاتين النفسين وأشواقَهما المضطرمة، فظنّا أن التناول هو العلاج الذي يناسب سوءَهما؛ ولئن كان أحد المعرّفَيْن راسخًا في روحانيته.

استشارة القديسة

١٠. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنّ إحداهما كان يتمكَّن منها الضيق فتضطرّ إلى أن تتناول باكرًا كي تستطيع، في زعمها، أن تعيش. وما كانتا لتتصنّعا المظاهر، أو لتكذبا مهما كلّف الأمر. ما كنت أنا في ذلك تالدير، فكتبَتْ إليّ الرئيسة تُعلِمني بما يجري وتقول إنّها لا تستطيع معالجتهما، وإنّ أناسًا مرموقين يقولون إنّهم عاجزون عن فعل شيء، فيَرَوْنَ أنْ تبقيا على هذا العلاج. ففهمتُ المسألة حالاً، لأنّ الربَّ أرادني أن أفهمها. ومع ذلك، فقد لزمتُ الصمتَ إلى أن حضرتُ، لأني خشيت أن أخطئ؛ والمنطقُ يفرض أن لا أخالفَ رأي الموافقين إلى إن أبسُطَ لهم حُجَجي.

معالجة الراهبتين

١١. كان أحد المعرّفَيْن متواضعًا؛ فما إن وصلتُ إلى هناك حتى أشاع في نفسي الثقة. أمّا الآخر، فلم يكن على قدر ذاك روحانية، او ليُشَبَّهَ به، ولم أجد وسيلةً لإقناعه. على أنّني لم أكترث له إذ كنت أقلّ التزامًا تجاهه. فشرَعتُ أحدّث الراهبتين وأقدّم لهما حُججًا كافيةً بنظري لتقتنعا أنَّ خوفهما من الموت، إذا لم تستخدما هذا العلاج، هو وليدُ المخيّلة. وكانتا متشبِّثتَين بهذه الفكرة أيَّ تشبُّث، فما أمكن أن يقنعهما شيء، وما كانت لِتُقنعهما الحجج. وإذ رأيت أن الحبث لا جدوى منه، قلت لهما إنّي أشعر أيضًا بتلك الأشواق، وارضى الانقطاع عن التناول، وذلك كي تفهما أنْ ليس لهما أن تتناولا إلاَّ مع سائِر الأخوات؛ وارى خيرًا لنا أن نموت نحن الثلاث من أن تشيع عادةٌ كهذه في أديارنا، وفيها من يُحِبْنَ الله بقدر ما تحبّه كلتاهما وبودّهنَّ أن يفعلنَ مثلهما.

موقف تريزا الصارم

١٢. وكان الضرر الذي أحدثته العادة قد بلغ أقصى مبلغ، وتدخّل الشيطان بحيث إنّهما إذا لم تتناولا كانتا تخالان حقًّا تموتان. أمّا أنا فوقفتُ موقفًا صارمًا، لأنّي حين رأيتهما لا تتقيَّدان بالطاعة — وبنظرهما ما كانتا لتستطيعاالتقيّد — أتَّضحَ لي أنّهما كانتا ضحيّةَ تجربة. في ذلك اليوم عانتا مشقَّة كبرى، خفَّت في اليوم التالي، ثم

أخذت تتناقص بحيث إنّهما، رغم رؤيتهما إيّايّ أناول دونهما، وقد أُمِرْتُ بذلك، كانتا تحتملان الأمر بهدوءٍ تام. أمّا أنا، فكنت أراهما ضعيفتين أيَّ ضعف، فأودّ لو أمتنع عن التناول.

انكشاف حالة التجربة

١٣. وفهمتا بعد قليل، كما فهمت سائر الأخوات، أنّهما كانتا ضحيّةَ تجربة، قدّرن الخير في معالجتهما سريعًا، خصوصًا أنّه على أثر ذلك حصلت في ذلك الدير أمورٌ مزعجة مع الرؤساء — ليس بذنبهنّ، وقد أناول الأمر لاحقًا — الذين ما كان عليهم أن ينظروا بعين الرضى إلى هذه العادة أو يتغاضوا عنها.

خبر راهبة قوتوزية

١٤. آه، ما أكثر الأمثلة التي أستطيع أن أوردها في هذا المجال ! على أنني سأكتفي بمثلٍ واحدٍ على ما حدثَ في ديرٍ لراهبات القديس برنردوس وليس لرهبانيتنا. كان هناك راهبةٌ لا تقلّ فضيلةً عمَّن ذكرتُ، بلغت من الهزال مبلغًا بسبب التقشّفات والأصوام حتى إنّها كلّما تناولَت القربان، واضطرمت بالتقوى في مناسبةٍ ما، كانت تسقط على الأرض، وتستمرّ في هذا الوضع ثماني ساعات أو تسعا، فتَحسبُ، هي، ذلك، وتحسَبُه الأخرياتُ إنخطافًا. كان يَقَع لها ذلك غالباً غالباً؛ ولو لم يعالَج لكان أحدث، في اعتقادي، ضررًا بالغًا.

غيبوبةٌ سببها الهزال

انشر خبر الانجذابات في المحلّة كلِّها؛ أمّا أنا، فكان يشقّ عليَّ سماعه لأن الربَّ أتاح لي أن أفهم سببها، وكنت أخشى سوء نتائجها. كان مرشدها أَبًا روحيًّا قريبًا إليَّ، فأطلعني على الأمر. فبسطتُ له رأيي فيه واعتباري إيّاه إضاعةً للوقت، وأنه يستحيل أن يكون انجذابًا، بل إنَّ سببه الهزال؛ واقترحت عليه أن يمنعها عن ممارسة الأصوام والتقشّفات، وأن تتلّهى عن ذلك. كانت مطيعةً، ففعلت ما أُمِرَت به. وشرعت بعد قليل تستعيد قوَّتها، ولم يُذكَر منذئذٍ أن حَصَلَ لها انخطاف. فلو كانت الانخطافات حقيقيةً، لما صحَّ أيُّ علاج إلى أن تتمَّ إرادة الله؛ لأنّ قو الروح عظيمةٌ أيّ عظمة فتعجَز قوانا عن مقاومتها، وهي — كما قلت[٨] – تُحدث في النفس مفاعيلَ كبيرة. أمّا هذه الغيبوبة، فتمرّ وكأنها لم تكن، ولا تخلّف إلاّ تعبًا في الجسد.

تقييد الفكر مشبوه

١٥. فليُفْهَم من هذا أنَّ كلَّ ما يقيّدنا فندرك أنّه لا يدع عقلنا حرًّا، علينا أن نعتبِرَه مشبوهًا، وأنّنا لا نستطيع إدراك حرّية الروح عبر هذا السبيل؛ واحدى غايات حرّية الروح أن نجد الله في كلِّ شيء، وأن نستطيع التفكير فيه. وما عدا ذلك فَقَهْرٌ للروح؛ وإذا تركنا جانبًا الضررَ الذي يُحدثه للجسد، فتقييدٌ للنفس يحول دون نموّها. فكما أنَّ المسافر يقع أحيانًا في مكمن، أو في ورطة فلا يستطيع متابعة طريقه، هكذا يحدث للنفس؛ ولكي تمضيَ قُدُمصا ينبغي لها لا أن تسير فقط بل أن تطير.

المعاملة بالرفق والحزم

٨ قالت ذلك في العدد ٤.

١٦. وعندما تعلن [النفوس] أو يتصوَّرن أنهنَّ مستغرقاتٌ في الألوهة وليس في يدهنّ حيلة لأنهنَّ معلّقات، فلا علاج يصلح ليخرجهنَّ من هذه الحال، التي يكثر حدوثها.

وأعود فأنبّه أن لا خوف إذا دام الأمر يومًا، أو اربعة أيّام، أو ثمانية؛ فليس بكثير على طبعٍ ضعيف أن يظلَّ مرتاعًا خلال هذه الأيام[٩]؛ أمّا إذا تجاوز هذا الحدّ، فالعلاج يصير ضروريًا. والخير في هذا كلّه ان ليس هناك ذنبٌ، ولا خطيئة، ولا ينفككنَ يجمعنَ كسبًا إلى كسب؛ لكن تبقى المساوئ التي ذكرتها، وأكثر منها بكثير. أمّا المناولات، فمهما بلغ الحبُّ الذي تعمر به النفس، فإنّها تأتي ذنبًا كبيرًا إذا لم تخضع في هذا الموضوع أيضًا للمعرّف واللرئيسة. ولئن شعرتْ بالعزلة فلا يعاملاها بشدّةٍ بالغة لئلا تُحْجِمَ عن أن تقصدَهما. وفي هذا الموضوع، كما في مواضيع أخرى، ينبغي أن يعوّداهنّ على الامانة ويُفهماهنّ أنَّ عدم تنفيذ إرادتهنّ يلائمهنَّ أكثر من تحقيق ما يُرضيهنّ.

تداخل الأثرة

١٧. ويمكن أن تتداخل الأَثَرة[١٠] في هذه الأمور. لقد عرفت ذلك بنفسي؛ فقد حدث لي أحيانًا، بعد تناولي مباشرة — والقربانة ما تزال كاملة في فمي تقريبًا –، إذا رأيت الأخريات يقتربْنَ من المنازلة أن اتمنّى لو أنّني لم أتناول القربان لأعودَ فأتناول من جديد. ولما كان الأمر يحدث لي غالبًا، فقد تنبّهتُ فيما بعد — وما كنت قبل ذلك أشعر بشيء يستحقّ التأنيب –، وأدركتُ أنّني أفعل ذلك تجاوبًا مع ذوقي أكثر منّي حبًّا بالله. فبما أنّنا، في أغلب الأحيان، نؤخَذ بشعورٍ من الحنان والرقّة عندما نتقدّم للمناولة، فهذا الشعور كان يدفعني إلى ذلك الموقف؛ فإذا كان الدافعُ أن أجعل الله في نفسي، فإن الله كان فيها؛ أو كان الرغبةَ في تنفيذ ما يأمرنا به، أي أن نتقدَّم لتناول القربان المقدّس، فقد فعلت؛ وإن كان الهدفَ أن أتلقّى المنن التي تُمنَح مع القربان الأقدس، فقد كنت تلقَّيتها. فأدركتُ عندئذٍ إدراكًا جليًّا أنني أفعل ذل لأستعيدَ ثانيةً تلك اللذّةَ المحسوسة[١١].

خبر امرأة تقيَّة

١٨. أذكر أنّي عرفت في محلّة، يقوم فيها دير لرهبانيتنا، امرأةً كانت في رأي سكّان المحلّة جميعهم خادمةً حقيقيةً لله؛ ولا شكّ في ذلك. كانت تتناول القربان يوميًّا، ولم يكن لها معرّفٌ خاص، فتذهب مرةً تتناول في هذه الكنيسة، ومرّة أخرى في تلك. فلاحظت ذلك، وتمنّيت أن أراها تطيع مرشدًا أكثر من أن تتناول بهذا التواتر. كانت تعيش في منزلها وتعمل، في ظنّي، كلَّ ما تريد؛ ولكن بما أنّها كانت صالحةً فكان كلُّ ما تفعله صالحًا. فحدَّثتها بالأمر أحيانًا، فما أعارت كلامي اهتمامًا، وبحقّ، لأنّها كانت تفضُلني كثيرًا؛ على إنّي ما كنت أحسبني

٩ لقد وضعت القديسة على هامش المخطوط عبارة : أعني أحيانًا؛ فيفهم من هذه الملاحظة أنّها لا تقصد استمرار الارتياع والغيبوبة أيّامًا بصورة متواصلة.

١٠ الأثرة : حبّ الذات.

١١ أي الشعور بعذوبة التناول بتذوّق القربانة (م).

مخطئةً في موقفي هذا. وجاء إلى المحلَّة الراهب القديس بدرو دي ألَقنطرة[١٢]، فرتّبت الأمرَ كي تحادثه، إلاّ أنّه ما سرّني التقرير الذي قدَّمَتْه له؛ ومبعثُ هذا الشعور الوحيد هو أنّنا على درجة من الشقاء كبيرة فلا نرضى أبدًا إلاّ بالذين يسلكون الطريق الذي نسلكه. وإنّي على يقين أن هذه المرأة خدمت الربّ وقامت بأعمال التوبة في سنة أكثر منّي في سنين عديدة.

خطورة التجربة

١٩. وأصل إلى الغاية من كلامي. لقد أصابَ تلك المرأة مرضٌ مميت. فالتَمستْ جاهدةً ان يُقامَ القداس في منزلها يوميًّا وتُعطى القربانَ الأقدس. ولما طال المرض، فقد رأى كاهنٌ شديد الغيرة في خدمة الله، كان يقيم لها القداس مرارًا، انَّ تناولها القربانَ يوميًّا في منزلها أمرٌ غير مقبول. كان الأمرُ، ولا شك، خدعةً من الشيطان، لأنّ قوله جاء في اليوم الذي توفِّيَتْ فيه. فلما رأت أنَّ القداس انتهى ولم يُقدَّم لها الربّ، غضبت غضبًا شديدًا وحنقت على الكاهن، فجاء يروي لي ما حدث وقد أخذ الشكُّ منه مأخذًا. فأسفُ كبير أسفٍ لما حصل، لأنّها، فيما أظن، توفّيت بعد ذلك بقليل، ولا أدري حتى الآن إذا كانت قد اعترفت.

فعالية الطاعة

٢٠. فمن ثَمَّ، عرفتُ الضرر الذي يُحدثه تنفيذ إرادتنا في أيّ أمر، خصوصًا في أمرٍ خطير كهذا. فعلى من يقتربنَ غالبًا من الربّ، أن يعرفن حقَّ المعرفة أنهنَّ لسن أهلاً لذلك، فلا يقترين منه استنادًا إلى رأيهنَّ، بل فلتسدَّ طاعتُنا لأمرٍ نتلقّاه ما ينقصُنا للوصول إلى ربٍّ كهذا عظيم؛ ولا أقول فلنُكْرِه على ذلك، لئلاّ أبالِغ.

لقد أتيحت الفرصة لهذه [المرأة] المباركة كي تتَّضعَ كثيرًا، ولعلّها كانت كسبت بالتواضع أكثر منها بالتناول لو عرفت أن الذنبَ ليس ذنبَ الكاهن، بل إنّ الربّ، حين رأى بؤسَها وقلَّةَ جدارتها، رتّب الأمرَ كي لا يدخلَ في مقرٍّ حقيرٍ كهذا. هذا ما كان يفعله شخصٌ كان يتناول القربان غالبًا حين يقطعه عنه معرّفون فَطِنون[١٣]. فلئن كان يأسف لهذا أسَفًا عميقًا، كان يشتهي، من ناحية ثانية، مجدَ الله أكثر من مجده، فلا ينفكّ يحمده لأنه أيقظَ المعرّفَ ليسهرَ عليه فلا يدخل جلالُه في منزل حقير كهذا. واستنادًا إلى هذه الاعتبارات كان يُطيع ونفسُه مطمئنةٌ أشدّ الاهمئنان، لو بشعورٍ من الألم الرقيق المحبّ. ومع هذا فما كان ليخالفَ ما يأمرونه به ولو تجمَّع العالم كلُّه عليه.

حبّ الله المزيَّف

٢١. صدِّقْنَني، إنَّ حبَّ الله – لا أقول الحبَّ الحقيقي بل ما نخاله حبّ الله – الذي يحرّك فينا الأهواء فينتهي إلى إهانةٍ ما تلحق به، أو إلى تعكير سلام النفس العاشقة بحيث يمنع العقل عن الفهم، يعني بوضوح أنّنا

---

١٢ Pedro de ALCANTARA، راهب فرنسيسكاني (١٤٩٩ – ١٥٦٢) اشتهر بحياة مثالية من الفقر والتقشف ومحبّة الله. اتصلت به القديسة تريزا وأسدى إليها نصائح ومشورات ثمينة. وكانت تجلّه أيَّ اجلال. وهي تذكره مرارًا في السيرة ٣/٢٧، ١٦ – ٢٠؛ ٢/٣٠ – ٦... (م).

١٣ تتحدّث عن ذاتها. وقد أبقينا الكلام بصيغة المذكر انسجامًا مع المسند إليه الأساسي أي الشخص، وهو ما لا يشكّل صعوبة في الاسبانية لأن كلمة السخص مؤنث(م).

نبحث عن ذواتنا. ولن ينام الشيطان، بل سيضيّق الخناقَ علينا حين يضمِّمُ على أن يُنزِل بنا مزيدًا من الأذى، كما فعل مع هذه المرأة؛ وما فعله أذهلني في الحقيقة كثيرًا، ولو أنّي لا أشكلُّ في أنّه لم يَحُلْ دون خلاصها، لأنّ صلاح الله كبيرًا؛ إلاَّ أنَّ التجربةَ جاءَتها في وقتٍ حَرِج.

حذر وخوف

٢٢. لقد رويتُ ما رويت كي تكونَ الرئيساتُ على حذر، وكي تخافَ الأخواتُ ويتبصّرنَ الأمر ويفحصنَ ذواتهنَّ والطريقةَ التي يتلقَّين فيها منّةً رفيعةً كهذه. فإذا قصدْنَ مرضاةَ الله، فهنّ يعرفن أنّه يُسَرُّ بالطاعة أكثر منه بالذبيحة (**١ صموئيل** ١٥/٢٢). فإذا كان الأمرُ كذلك وأكون أكثر استحقاقًا، فأيُّ شيءٍ يمكن أن يقلقني ؟ لا أفرضُ عليهنَّ أن يشعرن بحزنٍ متواضع، فإنهنَّ لم يبلغنَ جميعًا درجةً من الكمال يعَملْنَ معها فقط ما يعتبرونه يُرضي الله فلا يشعرْنَ بهذا الحزن؛ على أنه إذا كانت الإرادة متحرّرةً من مصلحتها الخاصّة، فمن الواضح أنّها لن تشعرَ بشيء؛ بل على العكس، ستبتهج بأن تُتَاحَ لها فرصةٌ تسرُّ فيها الله في أمرٍ شاقّ، وتتواضع وترتاحُ أيَّ ارتياح إذا تناولت تناولاً روحيًّا.

العلامات الصحيحة

٢٣. ولأن هذه الأشواق الكبيرة للتقرّب من الربّ إنّما هي منٌّ يصنعها الربّ في البدء — وهي كذلك في النهاية، لكنّني أتحدّث عن البدء لأنّه يجب الانتباه إليها أكثر –، ولأن الكمالاتِ التي تحدَّثتُ عنها لم تتحقَّقْ تمامًا[١٤]، فيمكن أن يُقسَحَ في المجال لمن حُرِمْنَ ذلك أن يشعرن بحنانٍ وحزنٍ، على أن يقبلنه بطمأنينةٍ في النفس، ويمارسْنَ أفعال التواضع. أمّا إذا رافق تنفيذَ الطاعة اضطرابٌ ما أو انفعالٌ ونفورٌ من الرئيسة أو من المعرّف، فكنّ على ثقةٍ بأنّها تجربةٌ واضحة؛ [ويكون الأمرُ] كذلك إذا صمّمت واحدةٌ على التناول رغم أنَّ المعرّف طلب إليها أن لا تفعل. ولست لأرغب في الكسب الذي ينجم عن ذلك، لأنه ليس لنا أن نكون قضاةً لأنفسنا في أمور كهذه. إنّما القاضي يجب أن يكون مَن بيده الحلّ والربط. إلا رضيَ الربُّ أن يعطينا نورًا لنعرف أنفسنا في أمورٍ ذاتِ أهميّةٍ عظمى كهذه، وأن لا يحرمنا من فضله لئلاّ نسبِّبَ له نفورًا بالمنن التي يمنحنا إيّاها.

١٤ إشارة إلى ما عرضته في العددين ٤ و٥.

الفصل السابع

في كيف يجب أن تتصرَّف الرئيسات مع مَن تأخذ فيهنّ السويداء.

تماوت المزاج السوداوي

١. لقد طلبت إليَّ أخواتي راهبات دير القديس يوسف في سلمنكا، حيث أقيم وأنا أكتب هذا، وألحَحْنَ عليَّ كي أقول لهنذَ كيف يجب أن يتصرّفن مع ذوات المزاج السوداوي. فمهما حاولنا أن لا نقبل بيننا أصحاب هذا المزاج، فإنّه من الدّقّة بحيث إنّه يتماوت عند الضرورة، وعليه فلا نكتشفه إلاّ حين لا يجدي علاج. وأظنّني قلت شيئًا في هذا الموضوع في كتيّبٍ لي[١]، لكنّني لا أذكر ذلك. ولا خسارة في أن أقول شيئًا هنا إذا رضي الربّ بأن أصيب. لعلّ ما سأقوله قد قيل سابقًا؛ وأنا على استعداد لأردّده مائة مرّة لو اعتقدت أنّني أصيبُ مرّةً في قول شيءٍ نافع. إنَّ ابتكارات هذا المزاج لتنفيذ غاياته هي من الكثرة بحيث ينبغي اكتشافُها لنعرف كيف نحتمل صاحباته وندبّرهنَّ من دون أن نؤذيَ [الراهبات] الأخريات.

خطره على العقل

٢. وينبغي أن نلاحظ أن أصحاب هذا المزاج لا يسبّبون جميعهم الصعوبات نفسها. فالسوداوي، ولو متواضعًا وليذن الطبع، فلئن قاسى مشقَّةً، لا يؤذي الآخرين. خصوصصا إذا كان ذا عقل سليم. وفي هذا المزاج درجات. والأكيد، أن الشيطان، في اعتقادي، يتّخذه وسيطًا ليكسب بعض الأشخاصَ إذا استطاع. وإنّه ليكسبهم إذا لم يبالِغوا في الحذر. فلمّا كان أدهى ما يفعله هذا المزاج هو إخضاعُ العقل، فإذا أظلم عقلُنا، فأيَّ شيء لا تفعله أهواؤنا ؟ ويبدو أنّه إذا ذهب عقلُ الانسان حلَّ محلَّه الجنون؛ وإنّه لكذلك. أمّا اللواتي نتحدَّث عنهنَّ الآن، فلا يبلغ المرض لديهنَّ هذا الحدّ، بل إن المصيبة أدنى كثيرًا. على أنَّ وجوبَ اعتبارهنَّ أشخاصًا ينعمون بعقلٍ سويّ، ومعاملَتَهنَّ على هذا الأساس وهنَّ خلوٌ منه، يشكِّل مهمّةً يصعب احتمالُها. فمن ترسَّخ فيهنَّ هذا المرض يجدر بنا أن نشفقَ عليهنَّ؛ لكنّهنَّ لا يؤذين؛ وإذا كان لا بدّ من وسيلةٍ للسيطرة عليهنَّ، فبإثارة الخوف في نفوسهنَّ.

نصائح للعلاج

٣. أمّا اللواتي بدأ يظهر فقط لديهنّ هذا المرض الشديد الأذى، ولو لم يترسّخ فيهنّ، فهو متَّصلٌ بذلك المزاج وجذوره، ومنشأهُ تلك النبتة، فيجب أن يُستعملَ معهنّ العلاجُ نفسه[٢] حين لا تُجدي الوسائل الأخرى نفعًا؛ ولْتَستخدم الرئيساتُ التكفيراتِ المعتَمَدةَ في رهبانيتنا ويَسعَينَ لوضع حدٍّ للسوداويات بحيث يُدركنَ أنَّهنَّ لن يحصلن على كلِّ ما يُرِدْنَ ولا على شيء منه. لأنّه إذا اعتبرن أنَّ الصراخ والتفجّعات التي يثيرها الشيطان فيهنِّ سعيًا لهلاكهنَّ تؤول إلى شيء أحيانًا، فقد خاب فأْلُهُنَّ، وواحدة منهنَّ تكفي لإثارة البلبلة في دير. فبما أنَّ

---

١ في طريق الكمال، ٢٤.

٢ أي إثارة الخوف لديهن، كما في العدد ٢.

المسكينة لا تجد في ذاتها ما يصلح لتدفعَ عنها ما يحرّكه الشيطان فيها، فينبغي أن تسلكَ الرئيسةُ في حذرٍ شديد لتدبير أمرها، ليس فقط خارجيًا، بل باطنيًا أيضًا؛ فإذا كان عقلُ المريضة قد غشاه الظلام، يجب أن يكون عقلُ الرئيسة أكثرَ صفاءً لئلا يشرَع الشيطانُ يتّخذ من سويداء تلك النفس وسيلةً لتقييدها. إن الخطر كبير: فالسويداء تضغط من وقتٍ لأخر ضغطًا يقيّد العقل — فلا تكون المصابةُ مذنبةً، شأنها في ذلك شأن المجانين لا يؤخذون بذنبٍ مهما فعلوا من حماقات؛ وهناكَ مَن لسنَ [بمجنونات] بل عقلُهنَّ مريضٌ فتنتابهنَّ فتراتٌ متناوبة من غشيان العقل وصفائه — فينبغي أن لا يبدأ هؤلاء ينعمن بالحرية في أثناء الأزمة لئلاّ يفقدْنَ السيطرة على أنفسهنَّ عندما يَحسُنُ حالُهنَّ؛ فإنّما هذه حيلةٌ شيطانية رهيبة. وإذا نظرنا جيّدًا، فإنّ ما يَهدفنَ إليه أكثر ما يهدفنَ هو أن ينفِّذن إرادتهنَّ، وأن ينطقنَ بكلِّ ما يطرأ على لسانهنَّ، وأن يبحثنَ لدى الأخريات عن أخطاءٍ يسترنَ بها أخطاءَهنذَ، وأن يتنعَّمنَ بكلَّ ما يُرضي ذَوقَهنّ؛ فتتصرَّف الواحدة، إذاً، وكأنّها لا تجد في نفسها ما يصدّها. وإذا لم تُقهَر الأهواء، وأرادت كلُّ واحدةٍ أن تفوز بما يعنُّ لها، فماذا يحصل إذا لم يوجد من يصدّها ؟

تقييد الأهواء

٤. ولأنّي شاهدت وعاشرت كثيراتٍ قاسَيْن هذا المرض، أعود فأقول بأَنْ لا علاجَ له سوى أن تُقيَّدَ الأهواء بجميع الوسائل والطرق الممكنة. فإذا لم يكْفِ الكلام، فلتُستَخْدَم العقوبات؛ وإذا لم تَكْفِ العقوبات الخفيفة، فلتُشدَّد؛ وإذا لم يكفِ شهرٌ من السجن فليكن أربعة أشهر، فليس ما يفيد نفوسهنَّ أكثر من ذلك. لقد قلت وأكرّر القول — لئن يعجزن مرّةً أو أحيانًا عن امتلاك أنفسهنّ، من المهمّ أن يفهمنَ الأمر — لأن الحال ليست حالَ جنون ثابتٍ فيُعذَر الذنب، ولو حصل أحيانًا وليس دائمًا، فإن النفس تكون في خطر كبير؛ إلاّ حين يتعطَّل العقل كلّيًا، كما قلت[٣] فيشتدّ الضغط على النفس، فتفعل وتقول ما كانت تفعل وتقول حين تُستنفَدُ طاقتُها. ان الله يصنع رحمة وافرة مع اللواتي يصيبهنَّ هذا المرض وذلك بخضوعهنَّ لمن يدبّرون شؤونهنّ؛ ففي خصوعهنّ هذا يمكن حظُّهنَّ بالخلاص من الخطر الذي ذكرته. وإذا طالعت واحدةٌ ما أقوله، فلتفهم، حبًّا بالله، أن قد يتعلّق به خلاصُها.

حال المتواضعين

٥. أعرف أشخاصًا على قيد شعرة من أن يفقدوا عقلهم كلّيًا، إلاّ أنَّ نفوسَهم متواضعة ٌ ويخافون أن يهينوا الله، بحيث ولو انّهم يذوبون دوموعًا في باطنهم، فإنّهم لا يفعلون سوى ما يؤمَرون به، ويعانون من دائهم ما يعاني غيرُهم. ولئن كان استشهادًا أكبر، فإنّهم يستحقّون به مجدًا أعظم، ويَقضون مطهَرهم على الأرض، فلا يمرّون به في الآخرة. وأعود إلى القول، إنّ اللواتي لا يخضعن بطيبة خاطر، فعلى الرئيسات أن يُكرهْنَهُنَّ على الخضوع، ولا تخدَعْهُنَّ مظاهرُ تقوى هوجاء لئلاّ تُحدُثَ لدى الأخريات جميعًا بلبلةٌ وفوضى.

فظاعة الخراب

٣ في العددين ٢ و٣.

٦. وإذا تركنا جانبًا الخطر الذي يهدّد صاحبةَ هذا المزاج، وهو الخطر الذي ذُكر[٤]، فهناك أذىً خطيرٌ جدًّا قد تُحدثه، وهو أن رفيقاها إذا وجدتَها، بنظرهنَّ، صالحةً، وهنَّ لا يفقهن قوّة المرض الذي يضغط على باطنها، فمن شأن طبعنا البائس جدًّا أنَّ كلَّ واحدة تظهر بمظهر الكآبة كي يتَّسع صدرُ الأخريات لها. وفي الحقيقة والواقع، فإنّ الشيطان يصوّر لهنّ الأمرَ على هذا النحو فيُحدث خرابًا تصعبُ معالجته حين يُكتَشَف. وهذا من الأهمية بحيث لا يجوز التغاضي عنه في أيِّ حال. فإذا قاومت السويداويةُ الرئيسَ، فلتدفَعْ ثمنَ مقاومتها مثلها مثل الصحيحة، ولا يُغتفَر لها شيء. وكذلك إذا وَجَّهت لأختها كلامًا مسيئًا، أو فعلَتْ كلَّ ما يشابه ذلك.

مثل المجانين

٧. يُخال ظلمًا أن تعاقَبَ مريضةٌ عاجزة كما تُعاقبَ الصحيحة: إذًا يكون ظلمًا أن يُقيَّدَ المجانين ويُجْلَدوا بدلَ أن يُطْلَقوا ليقتلوا جميع الناس. صدِّقني؛ لقد اختبرتُ الأمر، وجرّبتُ، في اعتقادي، أدويةً عديدة، إلاّ أنّني لم أجد علاجًا غير هذا. إنّ الرئيسة التي تشرع، بدافع الشفقة، تطلق الحريّة لأولئك السوداويات، ستجد نفسها، في نهاية المطاف، في وضع لا يُطاق؛ وعندما تُقبِل على معالجة الوضع، يكون أولئك قد أحدثنَ أذىً جسيمًا للأخريات. فإذا كان المجانين يُقيَّدون ويُعاقَبون كي لا يَقتلوا، وهذا أمرٌ حسن، مع أنّه، على ما يبدو، يثير شفقةً عميقة لأنّهم لا يُحسبون التصرّف بطريقة أخرى، فكم أحرى أن يراقَبَ ذوو المزاج السوداوي لئلاّ يؤذوا النفوس وهم مُطلَقو الحرية ؟ وفي الحقيقة، أعتقد أن استمتاعهم بالحرية، وقلّةَ تواضعهم، وسوءَ كبحِ جماحهم، تؤذيهم غالبًا، كما قلت، وأنَّ مزاجهم ليس على هذا القدر من التأثير. ولقد رأيت البعضَ منهنَّ، حين يَرَيْنَ مَن يحرّك الخوف فيهنَّ، يمتلكن زمام أمرهنّ؛ فلماذا، يا ترى، لا يستطعن ذلك حبًّا بالله ؟ إنّي أخشى من أن يكون الشيطان، تحت ستار هذا المزاج، كما قلت، يريد أن يكسبَ لذّاته نفوسًا كثيرة.

الشدّة والحنان

٨. يُبالَغ حاليًّا في إطلاق كلمة سويداء على الإرادة الخاصّة كلّها، وعلى الحرية. وعليه، أرى أن لا يُلفَظَ هذا الإسم في أديرتنا أو في أي أديار رهبانية، لأنّه ينطوي على فكرة الحرية، بل أن يدعى مرضًا خطيرًا، – وما أشدّ خطره ! –، وأن يعالج كمرض خطير. فمن الضرورة الشديدة أن يُعالجَ المزاجُ أحيانًا بدواءٍ ما ليمكن احتماله. فليُبْقَ على السوداوية في غرفة المرضى، ولتَفْهَم أنَّ عليها، حين تغادرها لتعودَ إلى الجماعة، أن تكون متواضعةً ومطيعةً مثلها مثل الراهبات الأخريات؛ وإذا لم تفعل، فلن يكون مزاجُها مبررًا لها. فالحججُ التي بسطتُها وتلك التي أستطيع إضافتَها تفرض هذا التصرّف. وينبغي على الرئيسات أن يُحِطْنَ السوداويات، من دون أن يدرين، بحنانٍ كبير، كحنانِ أمٍّ حقيقيّة، وأن يلتمسنَ الوسائل لمعالجة دائهنَّ.

الرعاية ببراعة ومحبّة

٩. يبدو أني أناقض نفسي بنفسي، لأني قلت سابقًا بأن يعامَلْنَ بشدَّة. وأعود فأقول: لا يخطر لهنَّ أن ينفِّذْنَ رغبتهنَّ؛ ويجب أن لا يُفسَحَ لهنَّ في المجال لذلك، بل أن يُفرضَ عليهنَّ الالتزامُ بالطاعة؛ فالخطر يكمن في

٤ أي الخطر على خلاصها الأبدي: عدد ١٤ وراجع العدد ٣.

شعورهنَّ بأن لديهنَّ هذه الحرية. إلاّ أنَّ الر ئيسة تستطيع أن لا تأَمُرَهُنّ بما ترى أن قد يَنتَفِضْنَ عليه لأنّه تفوتهنّ قوّة السيطرة على الذات؛ بل عليها أن ترعاهنَّ ببراعةٍ ومحبّةٍ بقدر ما تفرض الحالة، حتى، إذا أمكن، يَخصغنَ عن حبّ، وهذا هو الأفضل، وهو ما يحصل عادذة، مُفْصِحةً لهنّ عن حبّها إيّاهنَّ، ومقيمةً على ذلك شاهدًا بالأفعال والأقوال. ويجب أن تنتبه الرئيسات إلى إنَّ خيرَ علاج هو تشغيلهنّ بمهامّ فلا يبقى لديهنَّ محالٌ لأعمال المخيّلة، لأنّ الشرّ كلَّ الشرّ في المخيّلة. ولئن لم يَقُمْنَ بأعمالٍ على أحسن وجه، فليتغاضَيْنَ عن بعض الهفوات لئلا يأتين أخطاءً كبرى تودي بهنَّ. هذا هو، برأيي، العلاجُ الأوفى الذي يمكن أن يعْطَيْنَه، وان لا يُفسَحَ لهنَّ في فتراتٍ طويلةٍ للتأمّل، حتى في الأحوال العاديّة لأنَّ اكثَرهنَّ ذواتُ مخيّلة ضعيفة، فيضرّهنَّ ذلك ضررًا كبيرًا؛ وإلاّ فستخطر لهنّ أشياءُ لم يسمعنَ بها ولا يفهمها أحد. وليؤخَذْ بعين الاعتبار ان لا يأكلن سمكًا إلاّ قليلاً؛ وليُعْنَ بأن لا تطول أصوامهنَّ مثل الأخريات.

الإكثار من التنبيه

١٠. يبدو إسرافًا الإكثارُ من التنبيه على هذا المرض وليس على آخر غيره، رغم كثرة الأمراض الخطيرة في حياتنا البائسة، خصوصًا في ضعف النساء. إنّما هذا الإكثار يعود إلى سببين: أحدهما لأن [السوداويات] يُخَلْنَ سليماتٍ لأنّهنَّ يرفضن الإقرار بأنّهنَّ يعانين هذا المرض؛ وبما أنّه لا يُفرَض عليهنّ ملازمةُ الفراش، لأن الحمّى لم تأخذهنّ، ولا يُستدعى الطبيب، فينبغي على الرئيسة أن تكون متيقّظة؛ فإن هذا المرض أشدُّ خطرًا على الكمال من الأمراض التي تهدّد حياتنا ونحن في الفراش. والسبب الآخر هو أن المصابين بأمراضٍ أخرى إمّا أن يُشفوا وإمّا أن يموتوا؛ أما هذا المرض فالشفاء منه يتمّ بأعجوبةً، ولا يسبّب الموت؛ بل إن المسابات به يَفقدن الصواب تمامًا، أي يَمُتْنَ ليقتلْنَ الأخريات جميعًا. وهنَّ يقاسين الموت مرارًا بما يطابدن من غموم، وتخيّلات، ووساوس، ويُصبن بذلك كسبًا وافرصا ولو أنّهنَّ يسمّين كلَّ هذا تجارب؛ فلو يدركن أنّها ناجمةٌ عن ذلك المرض نفسه ولا يُعْرِنها اهتمامًا، لَيَغمرهنَّ ارتياحٌ كبير.

وفي الحقيقة، إنّي أشفق عليهنَّ أيّ إشفاق؛ وعلى جميع من يعايشْنَهنَّ ان يُشفِقْنَ كذلك عليهنّ، ويعتبرن أن الربَّ قد يسمح بأن يُصَبْن بهذا المرض، ويحتمِلْنَهنَّ بدون أن يدَعْنَهنّ يَدرين بذلك، كما قلت[٥]. إلا رضيَ الربّ بأن أكون أصبت في ما يجب عمله إزاء مرضٍ خطير كهذا المرض.

٥ في العددين ٨ و٩.

الفصل الثامن

في بعض تنبيهات تتعلّق بالإيحاءات والرؤى

خوف من الرؤى

١. يبدو أن بعض الأشخاص يستبدّ بهم الرعب ما إن يسمعوا باسم الرؤى والإيحاءات. لست أدري لماذا يعتبرون طريقًا شديدَ الخطر هذا الذي يقود فيه الله نفسًا ما؛ ولا أعرف مصدر هذه الدهشة. لن أُميِّزَ الآن بين رؤى صالحة وأخرى سيِّئة، ولن أبحث في العلامات الفراقة، وقد سمعتها من أشخاص راسخين في العلم؛ بل سأتناول ما يحسن أن يفعله مَن يجد نفسَه في هذه الحال، لأنّ قليلين من المعرّفين يُؤتَوْن أن لا يبتّوا فيه الخوف. والحقيقة أنّه لا يُرعبهم القول إن الشيطان مثَّل لهم أنواعًا عديدة من التجارب، وروحَ التجديف وغباواتٍ وأمورًا قبيحة بقدر ما يخجلون من القول أنّهم رأوا ملاكًا، أو إنّ ملاكًا خاطبهم، أو إنّ يسوع المسيح ربَّنا تصوّرَ لهم مصلوبًا.

إيحاءات الشيطان

٢. ولا أريد أيضًا أن ابحثَ الآن متى تكون هذه الإيحاءات من الله — فمعروفٌ أمرُ الخيرات الجزيلة التي توفّرها هذه الإيحاءات للنفس –، بل متى تكون تمثّلاتٍ يثيرها الشيطان بغيةَ المخادعة، فيستغلُّ لهذه الغايّة صورة المسيح ربِّنا، أو صُوَرَ قدّيسيه. وفي هذا المجال، أنا واثقة من أن جلاله لن يسمحَ له، ولن يُعطيَه سلطانًا ليخدع أيَّ انسان بصوَرٍ كهذه، إلاَّ أن يتيحَ له الإنسانُ ذلك بذنْبه؛ وإلاّ فإن الشيطان يصير مخدوعًا. وعليه، فلا داعي للخوف، بل علينا أن نثقَ بالربّ ولا نكترث لهذه الأشياء إلاّ لنزدادَ حمدًا له.

الشيطان مصوِّرٌ بارع

٣. أعرف شخصًا ضيّق عليه المعرّفون ايَّ تضييق بسبب هذه الإيحاءات؛ وقد تمَّ التأكُّد فيما بعد من المفاعيل العظيمة والأعمال الصالحة التي نجمت عنها أنّها واردةٌ من الله. وكان يعاني الأمرَّين حين يرى صورة الربّ، ويضطرّ إلى رسم إشارة الصليب وإلى أن يَخْسَأَه[١]، لأنّهم أمروه بذلك. وبحث الأمر فيما بعد مع عالِم دومنيكي[٢]، فقال له إن هذا غيرُ لائق ولا يجوز لأحد أن يفعله، بل حيثما وجدنا صورة الربّ يجدر بنا أن كرّمها ولو أنَّ الشيطان رسمَها؛ والشيطان مصوِّرٌ بارع، فيصوّر لنا عملاً صالحًا، وغايتهُ الاساءَةُ إلينا، حين يرسم لنا مصلوبًا أو صورةً أخرى واقعية جدًّا بحيث يدعها محفورةً في قلبنا. وأقنعني هذا التعليل؛ فعندما نرى صورةً جميلة جدًّا، ولو عرفنا أن قد رسمها انسانٌ شرّير، لا نَنْثَني عن تقدير الصورة ولا نكترث بالمصوِّر لئلا يؤثِّرَ على تقوانا. فالخير أن الشرّ لا يكمن في الرؤيا، بل في من يراها ولا يقبل بتواضعٍ مضمونَها؛ فإذا توافر التواضع، لا أحد، ولو شيطانًا،

---

١ حركة يدوية لطرد الشيطان وتشير تريزا إليها في كتاب السيرة ٢٥، ٩ و٢٩، ٥.

٢ هو المعلم اللاهوتي دومنغو بانييث، كما سجّلت القديسة على هامش المخطوط. والشخص الذي تشير إليه، موضوع التضييق، إنّما هي نفسها. يراجع في هذا الموضوع بالذات: السيرة ٥/٩ وما بعده؛ ٦ منازل ٩/ ١٢-١٣ (م).

يستطيع أن يُحدث ضررًا. وإذا لم يتوافر [التواضع]، فلا شيء ينفع ولو كانت الرؤيا من الله. فإذا كان ما يجب أن يَدفعَ إلى التواضع، نظرًا إلى عدم استحقاق هذه المنَّة، محرّكًا للكبرياء، صيَّرَ صاحبَه كالعنكبوت الذي يحوّل كلَّ ما يأكله إلى سمّ؛ بَينما النحلة تحوِّله إلى عسل.

التواضع مهما كانت الرؤى

٤. وأزيد في إيضاح فكرتي: إذا اراد ربُّنا بجوده أن يتمثَّلَ لنفسٍ ما كي تزداد معرفة به وحبًّا له، أو أن يكشفَ لها سرًّا من أسراره، أو يمنحها بعض أفضالٍ أن منٍ خاصّة، واعتبرت ذاتها، كما قلت[٣]، أنها قديسة وأنها نالت هذه المنَّة لخدمةٍ ما قدَّمتها — بدل أن تنسحقَ وتعرفَ أنذَ دناءَتها لا تستحقّ ذلك إطلاقًا –، فيكون واضحًا أن الخير العظيم الذي كان يمكن أن تجنِيَه من ذلك تحوِّله شرًّا، مثلها مثل العنكبوت. ولتفترض الآن أن الشيطان يُحدِث هذه الرؤى كي يثير الكبرياء: فإذا اعتقدت النفسُ أنَّ هذه الرؤى صادرةٌ عن الله، تتواضعُ وتعرفُ أنّها لا تستحقَ منَّةً عظيمةً كهذه، وتزداد اجتهادًا في خدمته، لأنّها، إذ ترى ذاتها غنيّةً، هي التي لا تستحقّ أن تأكل حتى الفُتاتَ المتساقطَ — أعني من الأشخاص الذين صنع الله معهم هذه المِنن، ولا أن تكون خادمةً لأحدهم –، تتواضعُ وتَجِدُّ في مزيدٍ من التوبة والتأمّل، والحذر من أن تهينَ الربَّ لمعرفتها انه، هو الذي يؤتيها هذه المنَّة، وتزداد كمالاً في طاعتها؛ وأنا أؤكّد أنَّ الشيطان لن يعود، بل سيمضي هارباً من دون أن يترك أدنى أذىً في هذه النفس.

الطاعة للمعرّف

٥. ومتى أمرت الرؤيا بصنع أمور، أو أَنبأتْ بحصول أشياءٍ في المستقبل، ينبغي أن يُعالجَ الأمرُ مع معرّفٍ رصينٍ وذي علم، وأن لا يُصْنَع أو يُعتَقَدَ إلاّ ما يقوله، هو. وتستطيع [الراهبة] أن تُطلعَ الرئيسةَ لتسهّلَ لها هذه معرّفًا بهذه الصفات. وليكن معلومًا أنّها إذا لم تُطِع ما يقوله المعرّف لها ولم تسلكْ بحسب توجياته، يكون ذلك من روحٍ شرير، أو سيداءَ شديدةَ الوطأة. وحتى لو لم يُصِب المعرّف في حكمه، فإنّها تكون أكثر إصابةً في تصرّفها إذا لم تُخالفْ رأيه، ولو كان من يخاطبها ملاكًا من لدن الله؛ ذلك أن جلاله سيوفّر لها نورًا ويرتّب طريقة تنفيذه. وهذا السلوك خالٍ من الخطر فيما التصرّفُ خلاف ذلك ينطوي على أخطارٍ كثيرة وأضرارٍ عديدة.

تأثير السويداء

٦. وليكن معلومصا أنّ ضعفَ الطبع يبلغ حدّ الهزال، خصوصًا عند النساء؛ ويظهر ذلك أكثر ما يَظهر في طريق التأمّل. وعليه، ينبغي أن لا تعتقدَ رؤيا أيَّ شيء تافهٍ ما إن يعنّ لنا. وكنَّ على ثقة، بأَنّه إذا كانت رؤيا، فإنّها تكشف عن نفسها. وحيث يكون بعض السويداء، ينبغي المزيد من الحذر؛ فقد بلغني من أمر هذه النزوات رواياتٌ هالني فيها كيف أن المصابة بالسويداء تتصوَّر أنّها ترى في الحقيقة ما لا ترى.

خبر مسترشدة حمقاء

٣ في العدد ٣.

٧. جاءَني ذات يوم معرّف أكنّ له تقديرًا كبيرًا فأخبرني أنّ مسترشدةً كانت تروي له أنَّ سيدتنا تزورها مرارًا فتجلس على سريرها وتحادثها ما يزيد على ساعة، فتُنبئها بأمورٍ ستحصل، وتُطلعها على أمورٍ أخرى كثيرة. ومن الحماقات الكثيرة، كان يصحّ قولٌ ما، فتعتقد أنَّ كل شيء صحيح. فعرفتُ طبيعة الأمر حالاً ولو أنّني لم أجرؤ على أن أكشفَ رأيي، لأنّنا نعيش في عالم ينبغي علينا فيه أن نُعمِلَ الرويّةَ في رأي الناس فينا ليكون لكلامنا أثر. وعليه، اقترحتُ أن ننتظر لنرى ما إذا كانت تلك التنبؤات ستتحقَّق، وأن يُستفسَر عن مفاعيل أخرى، وأن تُستَطْلَع سيرةُ تلك المسترشدة. فانتهى إلى اليقين أن الأمر كان حماقةً بحماقة.

الحذر وعدم التصديق

٨. وفي استطاعتي الحديث عن أشياء وأشياء من هذا النوع تساعدني على تبيان ما أذهب إلى برهانه: ان أيَّ نفسٍ لا ينبغي لها أن تصدِّقَ حالاً كلَّ شيء، بل عليها أن تنتظرَ بعض الوقت وأن تتفحَّصَ ذاتها جيّدًا قبل أن تعلن الأمرَ كي لا تَخدَع المعرّف عن غير قصد؛ فإذا فاتت المعرّف الخبرةُ في هذه الأمور، فلن يَفْهَمَها مهما كانت سعةُ علمه. فمنذ عهد قريب جدًّا، ضلَّل أحدُهم بأمور كهذه عددًا من ذوي العلم الوافر والروحاانيين في آنٍ، إلى أن تباحث في الموضوع مع شخص ذي خبرة في منن الربّ هذه؛ فرأى هذا بوضوح أن الأمرَ جنونٌ مقرونٌ بوهْمٌ ولو لم يمكن بعد مكشوفًا، بل مستورًا ببراعة. وقد جلاه الربّ تمامًا، منذ قليل، ولو أنَّ الشخص الذي فهمه احتمل الكثير لأن رأيه لم يَحْظَ بالتَصديق.

الحذر من الإعلان عن المنن العجائبية

٩. ولهذه الأسباب وما يشبهها، يجدر بكلِّ واحدة من الأخوات أن تبحث مع الرئيسة بوضوح ممارسَتَها التأمّل؛ وعلى الرئيسة أن تتنبّه وتلاحظ مزاج تلك الأخت وكمالها كي تُلفتَ انتباهَ المعرّف ليزداد نفهمًا لها، وان تختار لها معرّفًا مناسبًا إذا كان المعرّف العاديُّ غيرَ كفوء لأمور كهذه. وليحذَرْنَ الاعلانَ عنها، ولو صادرةً عن الله، والاعلانَ عن منن تُعتَبرُ عجائبيةً، وإطلاعَ أَغراب عليها، ولو معرّفين، لا يمتازون بالفطنة لكتمانها. وهذا التصرّف كثيرُ الأهمية، بل أهمُّ ممّا يتصوَّرنه؛ ولا تتداولنَّ الواحدة والأخرى هذه المواضيع. أمّا الرئيسة، فليعتبرنها دائمًا فَطِنة، وميّالةً إلى الثناء على من يتميّزن بممارسة التواضع، والتقشّف، والطاعة، أكثر من ثنائها على من يقودهنّ اللهُ في طريق التأمّلأ الفائق الطبيعة هذا، ولو مارَسْنَ جميع الفضائف الأخرى. فإذا كان ذلك صادرًا عن روح الربّ، فإنه يجلب معه التواضع لتذوقَ والواحدةُ كونَها محتقرةً، وهذا لن يضيرها، ويفيدُ الأخريات. لأنّه ليس باستطاعتهنّ الوصول إلى هذه الحال، بل إنّ الله هو الذي يؤتيها مَن يشاء؛ فيجب أن يتفانين لاكتساب تلك الفضائل. ومع أنّ الله يؤتي هذه الفضائل أيضًا، فيُمكننا التماسها، وهي جليلة القَدْر للرهبانية. ألا وهبنا إيّاها جلالُه، لأنّه لن يمنَعها عن أيِّ واحدةٍ تلتمسها بثقة من رحمته، وبالممارسة، والعناية، والتأمّل.

الفصل التاسع

في الخروج من مدينا دِل كامبو لتأسيس دير القديس يوسف في مالاغون

العودة إلى التأسيسات

١. ما أبعدَ ما شطَطْتُ عن الموضوع ! غلى أنَّ بعضَ التنبيهات التي ذكرتُها قد تكون ملائمةً للغرض أكثر من رواية خبر التأسيسات.

لما كنت، إذًا، في دير القديس يوسف في مدينا دِل كامبو مرتاحةً كل الارتياح لرؤيتي أولئك الأخوات يَسِرْنَ على خُطى أخواتهنّ في دير القديس يوسف في آڤيلا، في التقوى، والاخوّة، والحياة الروحية، ولأنَّ ر بّنا يسدّ حاجات الدير، ما كان منها خاصًّا بالكنيسة أو يعود للأخوات، طفقت بعض الفتيات يدخلن [الرهبانية] وكأنَّ الربّ اختراهنَّ أساسًا مناسبًا لذاك البناء؛ وفي اعتباري أن الخير في عواقب الأمور مشروطٌ بالمبتدئين بها، فإذا وجدوا الطريق جَدَّ بالسير فيه التابعون.

تأثير سيّدة طليطلة

٢. كان في طليطلة[١] سيّدة، شقيقة دوقة مدينة سالم[٢]، سكنتُ في منزلها فترةً بأمر الرؤساء، كما ذكرتُ مطوّلاً في الكلام على تأسيس دير القديس يوسف، حيث أظهرَتْ لي مودّةً خاصّة كانت ولا شكّ باعثًا لحثّها على ما فعلت[٣] . والواقع أنّ جلاله غالبًا ما يستخدم أشياء تافهة، قليلة الجدوى بنظرنا نحن الذين يجهلون المستقبل. فحين عرفت هذه السيّدة أنّ لديَّ الإذن بتأسيس أديار، أخذت تلحُّ عليَّ بإنشاءِ دير في حارةٍ تخصّها تدعى مالاغون[٤]. ما كنت أريد أن أقبل هذا العرض بأيّ حال لأن المحلّة، من الصِّغَر بحيث كان لا بدّ من تأمين دخلٍ ثابت للدّير، وهو ما أعارضه تمامًا.

قضية الدخل

٣. بحثتُ الأمر مع ذوي علم ومع مرشدي[٥]، فحكموا بأنّي أسيء التصرّف؛ فما دام المجمعُ المقدّس[٦] يسمح بتوفير الدخل، فلا يجوز، استنادًا إلى رأيي، التقاعس عن إنشاء دير يمكن أن يُعبَدَ الربّ فيه. إلى هذا الرأي أضافت هذه السيّدة إلحاحها ولجاجتها، فما استطعت إلاّ أن أقبل عرضها. وقَدَّمَتْ لنا دخلاً كافياً. وأنا أميل

---

١ طليطلة Toledo، مدينة تقع على ٦٠ كيلومترًا جنوبي مدريد، يمرّ بها نهر التاج، وفيها الكرسي الأسقفي الأول في اسبانيا (م).

٢ مدينة سالم، بالاسبانية Medinaceli ، مدينة في مقاطعة صوريا (Soria).

٣ هي السيدة لويسا دي لا ثيردا، وقد ساعدت القديسة مساعدة فعّالة؛ تتحدث عنها مطولاً في السيرة، الفصل ٣٥ (م).

٤ Malagon.

٥ هو المعلم اللاهوتي الكبير دومنغو بانييث الذي ستذكره صراحة في ٥/١١ ثم في ١/٢٠ (م).

٦ أي المجمع التريدنتيني (١٥٤٥ – ١٥٦٣) الذي شدّد على إصلاح الكنيسة.

دائمًا إلى أن تكون الأديار إمّا فقيرةٌ تمامًا وإمّا أن يكون لها دخلٌ لا يَضطرُّ الراهبات أن يُزعجن أحدًا لتوفير كلّ ما يحتجن إليه.

الحرص على الفقر

٤. وبذلت ما استطعت من جهد حتى لا تملك أيُّ واحدة مقتنىً خاصًّا. بل أن يُحافَظَ على **الرسوم**[٧] في كلِّ أمر، كما هو الحال في الأديار التي لا دخل لها. وبعد إنهاء جميع المعاملات، استدعيت بعض الأخوات لتأسيس الدير، فمضينا صحبة تلك السيّدة إلى مالاغون ولم يكن المنزل جاهزًا بعد كي نحلّ فيه. فقضينا أكثر من ثمانية أيّام في جناحٍ من الحصن.

احتفال التأسيس

٥. ويوم أحد الشعانين من سنة ١٥٦٨، جاء المشتركون في التطواف في المحلّة ليصطحبونا، فمضينا إلى الكنيسة لابساتٍ معاطفنا البيض وعلى وجوهنا حجاب، فأُلقِيَتْ عظَةٌ ثم نُقلَ القربان الأقدس إلى ديرنا، فحرّك ذلك الاحتفالُ التقوى في نفوس الجميع. مكثت هناك بضعة أيام. وكنت ذات يوم أقوم بالتأمّل بعد التناول، فسمعت ربَّنا يقول لي إنّه ستُقَدَّمُ له عبادةٌ حسنةٌ في ذلك الدير. ويبدو لي أني بقيت هناك دون الشهرين لأن روحي كان يستعجلني لأمضي فأنشئ دير ڤاليادوليد[٨]، والدافع إلى ذلك ما سأفصّله في ما يلي.

---

٧ **الرسوم** Contitucióńes تُعتَبَر القانون التنظيمي للرهبانية.

٨ Valladolid اسم عربي الأصل هو بلد الوليد أي مدينة الوليد (م).

الفصل العاشر

في تأسيس دير ڤاليادوليد وإنشائه على إسم دير الحبل بسيّدة الكرمل.

عرضٌ مُغرٍ

١. قبل أن يُنشأ ديرُ القديس يوسف في مالاغون بأربعة أو بخمسة أشهر، وفي أثناء حديثٍ مع شاب رفيع المحتد[١]، سألني إذا كان بودّي إنشاءُ دير في ڤاليادوليد، وهو مستعدّ لأن يقدَّم لهذه الغاية، بطيبة خاطر، منزلاً يحيط به بستانٌ خصبٌ جدًّا، واسع، في وسطه كرم فسيح. وأراد أن يسلِّمَه إليَّ حالاً، وهو غالي الثمن. فقبلتُ العرضَ ولو من دون تصميم على إنشائه هناك لأنّه على بعد ربع غلوة من المدينة. ومع هذا فقد بدا لي أنّه يُمكننا الانتقال إلى المدينة بعد أن نكون قد استلمناه. ولما كان هو يصنع ذلك عن كامل رضى، فلم أشأ أن أمتنع عن قبول عمله الصالح، أو أن أعترضَ تقواه.

غيرة على خلاص النبيل

٢. بعد شهرين تقريبًا، أصابه مرضٌ معجّل منعه النطقَ فلم يستطيع أن يعترف رغم الدلائل العديدة على طلبه غفران الربّ. وما لبث أن توفي بعيدًا جدًّا من حيث كنت. فقال لي الربّ إنّ خلاصه كان في مهبّ الرياح، وإنّه نال لديه رحمة بفضل تلك الخدمة التي صنعها مع والدته بتقديمه ذلك المنزل لإنشاء دير لرهبانيتها، وإنّه لن يغادرَ المطهر إلى أن يقام هناك أول قداس. لقد كانت تلازمني العذابات الخطيرة التي تقاسيها هذه النفس حتى إنّي، على رغبتي في إنشاء دير في طليطلة، عزفتُ عن تلك الرغبة آنذاك وشددت همّتي ما أمكنني لأنشئ دير ڤاليادوليد كيف كان الأمر.

استعجال الربّ

٣. إلاّ أنّي لم أستطع تعجيل العمل كما كنت أشتهي لأنّني اضطررت إلى التوقف أيّامًا كثيرة في دير القديس يوسف في آڤيلا إذ كنت مسؤولةً عنه، ثم في دير القديس يوسف في مدينا دِل كامبو. وإذ كنت أقوة بالتأمّل ذات يوم هناك طلب إليَّ الربّ أن أعجّل في العمل لأن تلك النفس كانت تقاسي آلامًا كثيرة. ورغم قلّة وسائلي، شرعت في التنفيذ فدخلت ڤاليادوليد في عيد القديس لوران[٢]. فعندما رأيت المنزل أخذني ضيق شديد لأني رأيت من الحمق أن تقيم راهبات في ذلك المكان لأن الكلفة بالغة. ومع ان المنزل كان مريحًا والحديقة غنّاء، لم يكن قطّ صحّيًا لقربه من النهر.

---

١ هو برنردينو دي مندوثا Bernardino de MENDOZA، شقيق أسقف أڤيلا، القارو Alvaro، والسيّدة ماريا.

٢ ١٠ آب / أغسطس ١٥٦٨.

ذكر المرافقين

٤. رغم تعبي، ذهبت لأَحضُرَ القداس في دير لرهبانيتنا عند مدخل المدينة على مسافة بعيدة جدًّا ما ضاعف ألمي. ومع هذا فما أطلعت رفيقاتي على حالي كي لا أُفتِّر عزمهنَّ. وعلى ضعفي، كنت مؤمنةً بأن الربّ الذي أطلعني مسبقًا على ما حصل يعالج الأمر. استقدمتُ عمّالاً بطريقةٍ سريّة فشرعوا يبنون الحائط اللازم للاعتكاف وسائر ما يلزم. وكان معنا الكاهن الذي أشرتُ إليه، ويدعى خوليان دي آڤيلا، وأحد الراهبين اللذين ذكرتهما، وكان يرغب في الانضمام إلى الحفاة[٣]، فراح يطّلع على طريقة حياتنا في أديارنا. تعهَّد خوليان دي آڤيلا الحصولَ على الإذن من الأسقف وكان قد أحيا الأمل قبل وصولي. لكن مسعاه لم يتمّ بسرعة فلم نحصل على الإذن قبل يوم الأحد؛ إلاّ أنّه سُمِحَ لنا بأن نقيم القداس في المكان المخصّص للكنيسة، وهكذا كان.

رؤيا الشاب خارجًا من المطهر

٥. لقد كنت مرتاحة تمام الارتياح إلى أنه سيتحقّق ما قيل لي عن تلك النفس[٤]. فمع أنه قيل لي "إلى ان يقام أول قداس" فهمت القداس الذي يصمد فيه القربان الأقدس. فعندما تقدّم الكاهن ليناولنا والقربان الأقدس في يده واقتربت منه، تمثَّل لي، إلى جانب الكاهن، الشاب المذكور وضّاء الوجه، مبتهجًا، مضمومةً يداه، فشكر لي ما فعلت من أجله ليخرج من المطهر، ومضت تلك النفس إلى السماء. والحقيقة، أنّني حين سمعت للمرة الأولى أنّه كان في طريق الخلاص شككت في الأمر والحزن يغمرني، وأنا أتصوّر أن طريقة حياته كان يلزمها ميتة من نوع آخر، لأنّه على امتلاكه صفات جيّدة، فإنّه كان غارقًا في شؤون العالم. صحيح أنّه كان قد قال لرفيقاتي إن فكرة الموت حاضرة في ذهنه دائمًا. إنّه لأمر عجيبٌ كم يطيب لربّنا تقديمَ أيّة خدمة لأمه؛ وإنّ رحمته لعظيمة. فليُحمَد، وليكن مباركًا على شيء، لأنّه يكافئ بحياة أبدية ومجدٍ لا يزول حقارةَ أعمالنا ويعظّمها على صِغَرِ قيمتها.

إحسان ماريا دي مندوثا

٦. بحلول عيد انتقال السيّدة في الخامس عشر من آب/أغسطس سنة ١٥٦٨، تسلّمنا هذا الدير. مكثنا فيه قليلاً لأن المرض أصابنا جميعًا. فلمّا رأت ما حدثَ سيدةٌ من تلك المدينة تدعى ماريا دي مندوثا، زوجة الحاكم كوبوس، ووالدة مركيز كاماراسا[٥]، خفّت لمساعدتنا كونها مسيحية حقيقية وذاتَ محبّة واسعة تشهد عليها حسناتُها الوفيرة، وقد أغدقت عليّ الكثير قبل أن أعرفها، لأنّها شقيقة أسقف آڤيلا الذي ساعدنا جليل المساعدة في إنشاء الدير الأول وفي كل ما يتعلّق بالرهبانية. ولأنّها ذات محبّة سامية، ورأت أنّنا سنلقى مشقّاتٍ في ذلك المنزل، ولكونه بعيدًا ولن تصل إليه الحسنات، وهو غير صحّي، عرضت علينا أن نتخلّى لها عنه فتشتري لنا منزلاً آخر. وهذا ما فعلت؛ وكان المنزل الذي وهبته لنا أغلى ثمنًا بكثير من ذاك؛ وقدّمت لنا كلَّ ما نتحتاج إليه وستقدِّمه ما دامت على قيد الحياة.

---

٣ حول خوليان في آڤيلا Julián de AVILA، راجع الفصل ٤/٣. والراهب الحافي هو يوحنا الصليب الذي تمرّس في قاليادوليد بالحياة الكرملية بإشراف القديسة.

٤ راجع العدد ٢.

٥ الأسماء المذكورة: Maria de MENDOZA, Cobos, Camarasa.

إلى منزلٍ جديد

٧. انتقلنا إلى المنزل الجديد يوم عيد القديس بلاس[٦] يصحبنا الشعبُ بتطواف احتفالي خاشع. التقوى ملازمة لذلك الدير، لأنّ الربّ يصنع مراحمَ عيظمةً فيه، وحمل إليه نفوسًا سيأتي الحديث عن قداستها في حينه ليُحْمَدَ الربُّ، لأنّه بهذه الوسائط يريد أن يعظّم أعماله ويؤتي خلائقه نعمة. فقد دخلت هناك راهبة برهَنَتْ، رغم فتوّتها، كيف يكون احتقار العالم. وبدا لي أن أتحدث عن ذلك هنا ليخزى الذين يهوونه كثيرًا، وتتمثَّلَ بها الفتيات اللواتي قد يُلهمُهنَّ الربّ ويبثّ فيهنّ أشواقًا، فيضَعْنَها موضعَ التنفيذ.

ماريا دي أكونيا

٨. تقطن في هذه المدينة سيّدة تدعى ماريا دي أكونيا[٧]، شقيقة كونت بوِيندِيا. كانت متزوجّةً من مقدَّم قشتالة. توفّي زوجها وهي شابة تاركًا لها ابنًا وابنتين. فأخذت تمارس حياةً قداسة رفيعة وتربِّي أولادها على الرسوخ في الفضيلة، فاستحقّت أن يريدهم الربّ لخدمته. لقد أخطأتُ؛ بل كان لها ثلاث بنات: واحدة صارت راهبة، والأخرى لم تريد أن تتزوَّج بل عاشت إلى جانب والدتها حياة مثالية[٨]. أمّا ابنها، فمنذ صغره، بدا يعرف ما هو العالم، فدعاه الله إلى دخول الرهبانية، ولم يستطع أحد أن يسدّ طريقه. ورغم أنّ أمّه كانت سعيدةً جدًّا بذلك، وساعدته بعون الربّ مساعدةً عظمى، لم تكن تُفصح عن ذلك مراعاة للعائلة. والحقيقة، أنّ الربَّ حين يريد أن يجذب إليه نفسًا ما، فإن الخلائق أضعف من أن تحول دون ذلك. وهذا ما حصل لهذا الفتى؛ فرغم محاولاتٍ لردعه دامت ثلاث سنوات، فقد دخل الرهبانية اليسوعية، وقال لي مرشدُ هذه السيّدة إنّها أسرَّت إليه أنّ قلبها لم يغمره فرح كما غمره يوم أبرز ابنها نذوره.

نظرة إلى العالم

٩. آه، يا ربّ ! ما أعظم المنّة التي تمنحها الذين تعطيهم والذين كذَيْنِكَ الوالدَيْن، يحبّان أولادهما حبًّا حقًّا فيضعان أملاكهما، ومواريثهما، وثرواتهما في تلك السعادة التي لا تزول ! ما يؤسَفُ له أشدّ الأسف أن العالم مصاب بشقاءٍ وعمىً يعتبر الأهلُ معهما أن كرامتهم تكمن في أن يَخْلُدَ ذكرُ هذه القُمامة[٩]، أي خيرات هذه الدنيا، من دون أن يعوا أن [هذا الذكر] سيزول عاجلاً أم آجلاً، ومن دون أن يفقهوا أن كلَّ ما له نهاية، مهما طال به الأمر، يصير إلى زوال، ويجب أن نقلّل من شأنه؛ وإنّهم يريدون أن يغذّوا أمجادهم الباطلة، على حساب أولادهم، وأن ينتزعوا من الله، بجرأةٍ بالغة، نفوسًا يريدها له، ويحرموا هذه النفوس خيرًا عظيمًا؛ ولو أن ذاك [الخيرَ] الذي يدعوهم الله إليه ليس الذي يدوم إلى الأبد، فهو خيرٌ عظيمٌ جدًّا أن يتحرّروا من متاعب هذا العالم ونواميسه، متاعبٍ تزدادُ خطورةً بازدياد المقتنيات. فيا إلهي، إفتح عيونهم؛ علّمهم أيَّ حبّ يجب أن يحبّوا به أولادهم حتى لا يؤذوهم، وكي لا يشكوهم أولادهم أمام الله في الدينونة الأخيرة حيث يفهمون قدر كلِّ شيء، شاؤوا أم أبوا.

---

٦ بلاس أو Blaise بالفرنية : في ٣ شباط/فبراير سنة ١٥٦٨.

٧ Maria de ACUŇA, BUENDÍA.

٨ تتحدث عن الثالثة في العدد ١٣.

٩ القمامة أي المزبلة.

إرثٌ وفير

١٠. إذًا، عندما ترك العالمَ، برحمةٍ من الله، هذا الشاب، دون أنطونيو دي پاديليا[١٠]، ابن السيّدة دونيا ماريا دي أكونيا، وهو في السابعة عشرة من عمره تقريبًا، آلت أملاك العائلة إلى الإبنة البكر وتدعى درنيا لويسا دي پاديليا[١١]؛ فكونت بويندیّا لم يُرْزَقْ أولادًا فورث دون أنطونيو لقبَه ومركزَه كمقدَّم على كاستيليا. لن أرويَ كم قاسى من عائلته إلى أن حقّق غايته لأن هذا لا دخل في نطاق قصدي. ويُدرِك جيّدًا ذوو الفهم تقديرَ أهل العالم أن يكون لهم عَقِب.

ابتهال ونداء

١١. آه، يا ابنَ الآب الأزلي، يسوع المسيح، ربَّنا، أيّها الملكُ الحقيقي على كل شيء ! ماذا تركتَ في العالم؟ ماذا أمكننا أن نرثَ منك نحن سالتَك ؟ ماذا ملكتَ، يا سيّدي، سوى المشقّات، والآلام، والإهانات، بل لم تجد سوى خشبةٍ حين قُضيَ عليك أن تجرع حسرةَ الموت ؟ فإذا أردنا أن نكون أبناءَك الحقيقيين ولا نتخلّى عن إرثك، فلا يلائمنا أن نهربَ من الألم. سلاحُك جراحاتٌ خمسة.

فهيّا، يا بناتي. هذا ما يجب أن يكون شعارنا إذا أردنا أن نرث ملكوته. إنّ ما اشتراه، هو، بدمه الغزير، لا يمكن أن نكسبه بالراحة، والملذّات، أو بالكرامة وبالثروات. إيّها الناس الكرام ! افتحوا عيونكم حبًّا بالله. انظروا كيف أن فارسَي يسوع المسيح الحقيقيَّين، وأميري كنيسته، القديسَيْن بطرس وبولس، ما كانا ينهجان الطريق الذي تنهجونه. أفتظنّون أن هناك طريقًا جديدًا شُقَّ لكم ؟ لا؛ لا يخطرنَّ هذا الأمر في بالكم. اعتبروا أن الربَّ شرع بدلّكم عليه بواسطة فتيان كالذين نتحدث عنهم الآن.

سعادة في التخلّي

١٢. لقد شاهدتُ أحيانًا دون أنطونيو هذا وحادثته. إنّه يرغب في أن يملكَ أكثر ممّا يملك ليتخلّى عنه كلّه. ما أسعده شابًّا، وما أسعدها فتاة نالا من الله ما نالا حتى إنّهما داسا العالم في عمرٍ اعتاد العالم أن يستعبد فيه الناس.

مشقّات في سبيل الله

١٣. لما آلت الأملاكُ إلى الشقيقة البكر، فإنّها، مثلها مثل شقيقها، لم تُعِرْها اهتمامًا. فهي، منذ طفولتها، انقطعت إلى التأمّل — وفي التأمّل يعطي الربّ نورًا لفهم الحقائق –، فاعتبرت، كشقيقها، كلَّ شيء تافهًا. إلا، عونَك اللهمّ ! كم من الناس يحتملون المشقّات، والاضطرابات، ويقيمون الدعاوى، بل ويخاطرون بحياتهم وكرامتهم ليحصلوا على إرثٍ كهذا ! وهذان قاسَيا الكثيرَ ليتاحَ لهما التنازلُ عنه. هذه هي حال العالم، وكلنّا نفهم تمامًا حماقاته لو لم نكن عميانًا. إنّ هذه الفتاة تنازلت عن الإرث لأختها بطيبة خاطر كي يتركوها حرّة؛ ولم يكن لها سوى تلك الأخت وعمرها عشر سنوات أو احدى عشرة سنة. وكي لا ينقرض هذا العقب

---

١٠ Don Antonio de PADILLA.

١١ Doña Luisa de PADILLA.

البائس[١٢]، قرّر الأهل أن يزوّجوا هذه البنيّة من عمٍّ لها، وحصلوا من الحبر الأعظم على التفسيح، وتمّت خطوبتهما.

خبر الشقيقة الصغرى

١٤. لم يشأ الرب أن ابنةَ أمٍّ مميَّزة كتلك الأمّ، وشقيقةَ أخوين كهذين تصير إلى ضلالٍ لم يسقطا فيه، فحدث ما سأروية الآن.

بدأت البُنَيَّة تتنعمَّ بالملابس الفاخرة وبزخارف العالم التي تلائم شخصًا من طبقتها، ومن شأنها أن تستهويَ طفلةً مثلها. لكن ما مضى شهران على خطوبتها حتى بدأ الربّ ينيرها ولو انها لم تفهم حالاً. فبعد قضائها يومًا بهيجًا مع خطيبها الذي تحبّه حبًّا يفوق في حدّه مَن بعمرها، انتابها حزنٌ كبير جدًّا إذ بأت ذلك النهار انقضى وأن جميع الأيام ستنقضي مثله. يا لَعظمةِ الله ! وبسبب السرور نفسه الذي كانت توفّره لها مباهج الأشياء الزائلة، انتهت إلى كُرهه ! وبدأ يجتاحها حزنٌ حارقٌ ما استطاعت أن تخفيه عن خطِّيبها، ولا تحسن تفسيرة حين يسألها عنه.

قلق وحزن

١٥. في هذه الأثناء، طرأ عليها ما ألزمها أن تسافر إلى مكان بعيد عن المدينة، فحزنت كثيرًا لأنّها كانت تحبّه كثيرًا. لكن الربّ ما لبث أن كشف لها سببَ حزنها، وهو أن نفسها تميل إلى ما لا يزول، وأخذت تتبصّر في أنَّ أخاها وأختها أخذا ما هو آمنٌ وتركاها وسط مخاطر العالم. هذا من ناحية؛ ومن ناحية ثانية، كان يقلقها أنَّ وضعَها لا علاج له بنظرها، – فما كانت تعلم أنّها، وهي مخطوبة، تستطيع أن تصير راهبة، إلى أن استفسرت عن الأمر — وكان حبُّها لخطِّيبها يحول بشكلٍ خاصّ دون أن تقرّ موقفًا، فتعهاني بالتالي غمًّا قاسيًا.

إعلان رغبتها في الترهّب

١٦. لكنّ الربّ كان يريدها له؛ فشرع ينزع منها هذا الحبَّ وينمّي رغبتَها في التخلّي عن كلّ شيء. في هذه الفترة كانت تحرِّكها الرغبةُ في خلاص نفسِها والتماس أفضل الوسائل لذلك؛ وبدا لها أن انغماسَها في شؤون العالم يُلهيها عن التماس ما هو خالد؛ وهذه الحكمة لالتماس طريقة تحصل بها على ما لا يزول إنّما أفاضها الله فيها وهي صبيّة. فما أسعدها نفسًا تحرّرت سريعًا من العمى الذي ينتهي إليه كثيرٌ من الشيوخ! وحين استعادت حريّة إرادتها، صمَّمت بعزمٍ تامٍّ على تكريسها لله؛ وكانت إلى ذلك الحين كتمت الأمر، فبدأت تباحث به أختها. فبدا لأحتها أنّه هوىً صبياني، فقصدت تحويلها عنه متذرّعةً بحججٍ لإقناعها ومنها انّ باستطاعتها أن تَخلُصَ وهي متزوّجة. فردّت عليها سائلة إيّاها لماذا أقلعت هي عن الزواج. وانقضت بضعة أيّام. وكانت رغبتها تزداد نموًّا ولا تجرؤ على مكاشفة أمّها بالموضوع؛ ولعلها هي من كانت تثير الحرب فيها بصلواتها التقويّة.

١٢ حرفيًا: هذه الذكرى السوداء، وهي، كما يرى، كناية. والقديسة تصف بأسود كل ما تعتبره حقيرًا، بائسًا (م).

الفصل الحادي عشر[1]

في القرار الذي تلقّته دونيا كاسيلدا دي پاديليا لتحقيق رغبتها المقدّسة في دخول الرهبانية.

رغبة في خدمة الربّ

١. في هذه الأثناء صدف أن أُلبسَت الثوبَ الرهباني أختٌ مساعدة في دير الحبل بلا دنس هذا؛ وقد أتحدَّث فيما بعد عن دعوتها. فعلى كونها من طبقة مختلفة لأنّها فلاّحة بسيطة، فإنّها، بفضل المنن الساميّة التي حباها بها الله، من فئة مميّزة تستحقّ معها أن يُحفَظَ ذكرها لتمجيد الله عزّ وجل.

جاءت دونيا كاسيلدا – هكذا كانت تدعى حبيبةُ الربّ هذه – إلى حفلة ارتداء الثوب بصحبة جدّتها والدة خطِّيبها، فاستهواها الدير لأنها رأت أن راهباتٍ قليلاً عددهنّ فقيراتٍ يمكن أن يخدمْنَ الربَّ خدمةً فضلى، لكنّها ما كانت قد صمّمت بعد على هجر خطِّيبها؛ وهكذا، كما قلت، ما كان يُمسكها.

ذكريات صالحة

٢. كان يخطر في بالها أنّها تعوّدت قبل خطوبتها تكريس فترات للتأمّل؛ فإن والدتها، بصلاحها وقداسة نفسها، ربّت بناتها وابنها على هذه الرياضة. فمنذ بلوغهم السابعة من عمرهم كانت تدخلهم، من حين إلى حين، إلى مصلّى وتعلّمهم كيف عليهم أن يتفكّروا في آلام الربّ، وتحثّهم على الإكثار من الاعتراف، فرأت رغباتها تحقّق نجاحًا تامًّا بأن يتكرّس أولادها لله. وطالما قالت لي إنّها تقدّمهم له وتتوسّل إليه أن يخرجهم من العالم لأن ظنّها خاب، ورأت ما أقلّ ما يستحقّ العالم من التقدير. وأفكّر، أنا، أحيانًا في النعم التي يردّونها لوالدتهم، وبالغبطة العارمة التي تغمرها حين تراهم يتمتّعون باللذات الأبدية، وأعين أن والدتهم كانت الوسيط؛ وأفكّر في كم يكون نقيضَ ذلك أمرُ الأولاد الذين لم ينشِّئهم أهلُهم تنشئةَ أبناء الله – وهم حقيقةً أبناء الله أكثر من كونهم أبناءَهم – فيلتقي هؤلاء وأولئك في جهنّم، ويتراشقون باللعنات ويفجّرون يأسهم.

حادثة دخول الدير

٣. وأعود إلى الموضوع. حين رأت أنّها مند خطوبتها بدأت تصلّي المسبحة الوردية على كُرْه، أخذها خوفٌ كبير من أن يصيرَ حالُها دائمًا من شيّءٍ إلى أسوأ، وبدا لها واضحًا أنّها إذا جاءَت إلى هذا الدير ضمنت خلاصها. فاتخذت قرارها الحاسم. وجاءَت ذات صباح برفقة أختها وأمّها، وأتيح لهنّ الانتقالُ إلى داخل الدير عن غير ما قصدٍ اطلاقًا بأن تفعل ما فعلت. فحين انتهت إلى داخل الدير لم يستطع أحد إخراجها منه. وكان من غزارة دمعها ومن كلامها متوسّلةً أن يتركوها هناك أَن أذهلت الجميع. أمّا والدتها، رغم فرحها الباطني، فكانت تخشى ردّة فعل الأهل ولا تريدها أن تبقى هناك لئلا يظنّوا أنّها هي التي اقنعتها. وهذا كان موقف الرئيسة. فقد

---

[1] Doña Casilda de PADILLA.

رأت فيها طفلةً تحتاج إلى مزيدٍ من الاختبار. هذا ماحصل صباحًا. واضطرَّنا إلى البقاء حتى المساء؛ واستدعى معرّها والمعلم الأب دومنغو، الدومنيكي، مرشدي الذي ذكرته سابقًا، ولو أنّي ما كنت هنا آنذاك[٢]. فأدرك هذا الأب حالاً أنّ روح الربّ يحرّكها، فساعدها كثيرًا، وغالَبَ أهلها شديدًا واعدًا بمساعدتها لتعود فيما بعد. هكذا يجب أن يتصرّفَ جميعُ الذين يلتمسون خدمة الربّ، حين يرون نفسًا دعاها الله، وان لا يتلفتوا إلى اعتباراتٍ بشرية.

نموّ دعوتها

٤. فبناءً على كثرة التطمينات، وحتى لا تُتَّهَمَ والدتُها، غادرت الدير يَومذاك. لكنّ رغبتها كانت تنمو وتنمو. فأعلمت والدتُها الأهلَ سرًّا بما يجري وسألَتهم أن لا يطّلعَ الخطّيب على الأمر. فاعتبروا ذلك عملاً صبيانيًا، واقترحوا أن تنتظرَ لتبلغ سنَّ النضج، فهي لم تتمّ الإثنتي عشرة سنة. فكان ردّ الفتاة بأنّهم إذا وجدوها في سنّ تصلح معه للزواج ولتبقى في العالم، فكيف لا يجدونها صالحةً لتقدّم ذاتها لله ؟ وكانت تقول أشياءَ يَظهر معها بوضوح أنّها لم تكن هي من ينطق بهذا الكلام.

حيلة لتدخل الدير

٥. أمّا السرّ فلم يُكْتَم بحيث يَخفى على خطّيبها. وعندما عرفت أنّه اطّلع على الوضع، اعبترت أنّ لا طاقة لها على انتظار عودته. ففي عيد الحبل بلا دنس، وكانت في منزل جدَّتها، وهي حماتها في آن، وجدَّتها تجهل كلَّ شيء، ألحَّتْ عليها كي تسمح لها بالذهاب مع مدبّرتها في نزهة قصيرة، ففعلت إرضاءً لها، وأرسلتها في عربة يصحبها الخدم. فأعطت [كاسيلدا] أحدَهم بعضَ المال وسألته أن ينتظرها أمام باب هذا الدير ومعه حزمة زراجين[٣]. أما هي، فجالت ودارت حتى جيء بها إلى هذا البيت. حين وصلت إلى الباب، سألت أن يطلبوا لها عبر الدولات إبريق ماء، وأن لا يقال لمن الماء؛ وترجّلت برسة. فعَرَضوا عليها أن يقدّموا لها الماء هناك؛ أمّا هي فرفضت. وكانت الحزمة قد وصلت. فطلبت أن يأتي أحدٌ إلى الباب، ليأخذ الحزمة، ولبثت قائمةً هناك؛ وما إن فُتح الباب حتى دخَلَتْ مسرعةً، ومضت فعانقت تمثالَ السيّدة وهي تبكي وتتوسّل إلى الرئيسة أن لا تطردها. فراح الخَدَمُ يصرخون ويقرعون الباب قرعًا شديدًا. فمضت تخاطبهم من خلال المصَّبعة[٤] وقالت لهم إنّها لن تخرج من هناك في أيّ حال، وليُخبروا أمَّها بالأمر. وأخذت النسوة اللواتي كنَّ برفقتها يُعْوِلنَ؛ إمّا هي فلم تكترث لشيء من هذا. وحين أبلغوا الخبرَ إلى جدّتها، قصدت المكان حالاً.

مواجهة خطّيبها

٦. ما استطاعت جدّتُها، بعد جهد، ولا استطاع عمُّها إقناعَها، وحاول خَطّيبها أن يبهرها بطول خطابٍ من خلال المصبَّعة، فما أفلحوا إلاّ في أن يقلقوها وهم معها، ويزيدوها ثباتًا في موقفها بعد ذاك. وكان

---

٢ من الصعب تحديد تاريخ هذا الحدث، ومعرفة أين كانت الأم المؤسسة. من المرجّح أنّها كانت في سلمنكا، حيث أقامت من تموز/يوليو ١٥٧٣ حتى كانون الثاني/يناير من السنة الثالية.

٣ جمع الزرجون وهي قضبان الكرم (عن **لسان العرب**).

٤ حاجز من قضبان الحديد والخشب يفصل الكرمليات عن الزوّار في متحدّث الدير (ش. ر.).

خطِّيبها يقول لها بعد تأوّهات عديدة أنَّ باستطاعتها أن تخدم الله خدمةً فضلى بصنعها الحسنات، فتقول له أن يصنعها، هو. وعلى حججه الأخرى أجابته أنّها مرزمةٌ بخلاصها أكثر منها بأيِّ أمرٍ آخر، وترى ذاتها ضعيفة، ولا تستطيع الخلاص وسط تجارب العالم؛ وليس له أن يتشكّى منها لأنّها إنّما تركته حبًّا بالله، فما أهانته إذًا إطلاقًا. فحين رأى أن لا شيء يقنعها، قام فمضى.

التجارب تزيدها قوّة

٧. أثّرتْ هذه الزيارة في نفسها، بل ولَّدَت فيها، نفورًا كاملاً من خطِّيبها، لأن النفس التي يعطيها الله نورَ الحقيقة، فإنّ التجارب والعوائق التي ينصبها الشيطان في طريقها تزيدها قوّة؛ فجلاله هو الذي يصارع عنها. وقد لوحِظَ ذلك في هذه الحالة، فما كانت هي، التي تتكلّم، على ما يبدو.

إرادة ملكية بإخراجها

٨. لما رأى خطِّيبها وأقاربُه أنّهم لم يستطيعوا إخراجها برضاها، حاولوا استخدام القوّة، فجاؤوا بإرادة ملكية لإخراجها من الدير وإطلاق حرِّيتها. وفي هذه الفترة التي امتدَّت من عيد الحبل بلا دنس إلى تذكار مقتل أطفال بيت لحم[٥]، عندما تمّ إخراجها، بقيت في الدير تمارس الحياة الرهبانية بسرور كبير وكأنّها ارتَدَتْ الثوب الرهباني من دون أن تلبسه. في هذا اليوم نقلوها إلى بيت فارس حيث جاء ممثّلو القضاء لاصطحابها. فأخذوها وهي تبكي دمعًا عزيرًا، وتسأل لماذا يعذّبونها ما دام ذلك لن يجديَهم نفعًا. وحاول رهبانٌ وغيرُهم أن يقنعوها، ظنًّا من البعض أن ما تفعله تصرّفٌ صبياني، فيما الآخرون كانوا يريدونها أن تتنعَّمَ بما تملك. ويطول بي الكلام كثيرًا لو رويتُ المجادلات التي كانت فيها طرفًا، وكيف كانت تُفحِمُ الجميع.

مشقّات مختلفة

٩. عندما وجدوا أن محاولاتهم باءَت بالفشل، فرضوا عليها أن تقيم بعض الوقت في منزل والدتها، وكانت هذه قد أتعبتها تلك البلبلة فما عادت تساعدها بشيء، بل بَدَتْ وكأنَّها تعاكسها. ولعلّها وقفت هذا الموقف إمعانًا منها في اختبارها؛ هذا أقلّه ما روته لي فيما بعد؛ فهي إمرأة قديسة ولا يمكن بالتالي إلاّ تصديقُ قولها. إلاّ ان الصبيّة ما كانت تقدّر ذلك التصرّف. وكان مرشدها يناهضها أيضًا بقوّة حتى لم يَبْقَ إلى جانبها من ترتاح إليه إلاّ الله وإحدى وصيفات أمّها. فعانَتْ مشقَّةً وتعبًا شديدًا في هذه الحالة حتى أتّمت الثانية عشرة من عمرها، ففهمت أنهم، بعد أن رأوا استحالة ردعها عن ترهّبها، يريدون ادخالها الرهبانيّة في الدير الذي تعيش فيه اختها لأن القانون فيه[٦] دون القانون في ديرنا صرامة.

هربها ودخولها الدير

١٠. ولما درت بالأمر عزمت على أن تستخدمَ ما استطاعت من وسائل لتمضي قدمًا فتحقّق مسرّتها بتنفيذ قصدها. فذات يوم، وكانت في الكنيسة تحضر القداس، وبينما أمّها في كرسي الاعتراف، سألت مربِّيتها أن

٥ من ٨ كانون الأول/ديسمبر إلى ٢٨ منه سنة ١٥٧٣.

٦ هو دير الراهبات الدومنيكيات في ڤاليادوليد Valladolid.

تمضي لتسأل أحدَ الآباء كي يقيم قدّاسًا على نيّتها. فلمّا رأتها قد مضت، وضعت حذاءَها في كمّها، ورفعت فستانها، وركضت بأقصى سرعتها إلى هذا الدير، وكان بعيدًا جدًّا. فلمّا رجعت المربّية ولم تجدها، جدّت في إثرها، ولما دنت منها سألت رجلاً أن يوقفها. وقد روى الرجل فيما بعد، انه ما استطاع أن يتحرّك، فتركها وشأنها. وسبقت الوصيفةَ فعبَرَتْ باب الدير قبلها فأغلقت الباب وشرعت تنادي. وعندما وصلت الوصيفة كانت، هي، قد دخلت الدير، فألبسوها الثوب الرهباني حالاً، فحقَّقت بذلك المبادئ الممتازة التي أودعها إيّاها الربّ. وأخذ جلاله يكافئها سريعًا بمننٍ روحية، وشرعت هي تخدمه بسرور بالغ وتواضع وفير، وتجرُّدٍ عن كل شيء.

تحلّيها بنعم طبيعية وروحية

١١. ليكن مباركًا إلى الأبد ! فهذه التي كانت تهوى شديد الهوى الثياب المبتكرة والنادرة، صارت تلتذّ بأثواب فقيرة من صوف خشن، ولو انها ما كانت لتحجبَ جمالها لأن الربّ أنعم عليها بنعم طبيعية، كما حباها نعمًا روحيّة يرتاح إليها النظر والعقل فتوقظ الرغبة في حمد جلاله. إلا رضي بأن تكثر النفوس التي تلبّي دعوته.

الفصل الثاني عشر

في حياة وموت راهبة جاء بها ربّنا إلى هذا الدير وتدعى بياتريث للتجسّد، كانت حياتها وكان موتها على درجة فائقة من الكمال، فمن العدل أن تُذكر هنا.

خبر بياتريث وسلوكها

١. دخلت هذا الدير، قبل دونيا كاسيلدا، صبيّةٌ تربطها بها علاقة قربى بعيدة تدعى دونيا بياتريث أونييث[١]، أدهشت الراهبات جميعًا بما حباها الربّ من فضائل. وتؤكّد الراهبات والرئيسة أنّها طيلة حياتها معهنّ لم يريد لديها قطّ ما يمكن اعتباره نقصًا، ولم يرينها قطّ تنفعل تجاه أمرٍ ما، بل تعيش في حبور هانئ يفصح بوضوح عن اللذّة الباطنيّة التي كانت تنعم بها نفسها. صمتها لا يَنمُّ عن حزن، وسكوتها الدائم تقريبًا ما كان يبدو ناجمًا عن باعث خاص. لم يُسَجَّل عليها أنّها تلفّظت بكلمة تؤاخذ عليها، ولم يلاحَظ لديها تشبّثٌ بأمر، ولا محاولةٌ لتبرير ذاتها، ولو أنَّ الرئيسة، رغبةً منها في امتحانها، حاولت اتّهامها بما لم تفعله، كما هي العادة في هذه الأديار وذلك للتعويد على الإماتة. ما تذمّرت قطّ من شيء أو من إحدى الأخوات، ولم تُظهر نفورًا لواحدةٍ بحركة أو بكلمة، كائنًا ما كانت الوظيفة التي تشغلها، ولم تترك مجالاً ليخطر ببال أحد أنّ نقصًا ما يعتريها، ولم توجد لديها هَفْوَةٌ تُشكى في الاجتماع الدوري، على كون الناظرات يعرضن أشياء تافهة جدًّا لاحَظْنَها. كان الانسجام بين الباطن والظاهر لديها، في كلِّ شيءٍ، رائعًا، ناجمًا عن استحضارها الدائم للأبدية ولما خلَقَنا الله من أجله. ما كان فمها ينفكّ عن اللهج بحمد الله وشكره شكرًا جزيلاً. والخلاصة: أنّها كانت تعيش في تأمّل دائم.

عِظم محبتها للقريب

٢. ما أتت قطّ هفوةً ضدّ الطاعة، بل كانت تنفّذ كلَّ ما تُؤمَرُ به بسرعة، وكمالٍ، وحبور. عِظَمُ محبتها للقريب كان يحملها على القول إنّها مستعدّةٌ، من أجل كلِّ واحد، أن تُقطَّع ألف قطعة مقابل أن لا تهلك نَفس، وأن يتنعَّمَ الجميعُ مع "اخيهم يسوع المسيح" كما كانت تدعو ربَّنا. لقد احتملت مشَقّات هائلةً ناتجةً من أمراضٍ جسيمة، كما سأقول فيما بعد، وقاست أمراضًا مبرِّحةً بصبرٍ وسرورٍ لا مَثيلَ لهما، وكأنّها تنعم بأفضالٍ ولذّاتٍ كبيرة. لا شكّ أن ربّنا أجزل لها عطايا الروح، فلولاها، لاستحال عليها أن تحتملَ بذلك الفرح ما كانت تحتمله.

صلاتها لأجل خلاص مجرمين

[١] Doña Beatriz OÑEZ، لبست الثوب الرهباني في ڤاليادوليد في ١٥٦٩/٩/٨؛ أبرزت نذورها في ١٥٧٠/٩/١٧، وتوفيت بعد ثلاث سنوات.

٣. حدث ذات يوم في ڤاليادوليد أن رجالاً كانوا يُقتادون ليُحرَقوا بسبب جرائم خطيرة قد ارتكبوها، وكانت هي تعرف أن هولاء ما كانوا يمضون إلى الموت مستعدّين الاستعداد المناسب؛ فحزنت حزنًا عظيمًا، فالتفتت إلى ربِّنا مجهودةً من الألم وتوسّلت إليه بإلحاحٍ أن يخلّص تلك النفوس، وأن يعطيها، عوضًا عمّا يستحقّه هؤلاء، أو كي تستحقَّ هي ما تسأله[٢] – لا أذكر كلماتِها بدقّة –، طوال حياتها، كلَّ المشقات والآلام التي تستطيع احتمالها. وفي تلك الليلة بالذات أخذتها أول نوبة من الحمّى، وما برحت مذ ذاك تتألم حتى قضت أجَلَها. أما أولئك فماتوا ميتةً حسنة، فكأنّ الله سمع صلاتها.

آلامها المبرّحة شوقٌ إلى الصليب

٤. ظهر على الفور في أحشائها دُمَّلٌ سبَّب لها آلامًا جسيمة كان يلزم لاحتمالها بصبر ما نفحَ الربُّ به نفسَها. كان هذا الدُمَّلُ داخليًا فما نَفَعَها أيٌّ من الأدوية التي وصفوها لها، إلى أن شاء الربّ فانفتح وأفرز ما فيه، فتحسَّنت حالُها بعض التحسّن. وما كانت رغبتها في الاحتمال لتكتفي بالقليل. فذات يوم سمعت عظةً حول الصليب، فاشتدَّت رغبتها أيَّ شدّة، وما أن انتهت العظة حتى مضت فانطرحت على فراشها ودموعها تنهمر غزيرةً. ولما سُئلت عمّا بها، طلبت أن يتضرعوا إلى الله كي يرسل إليها مشقَّاتٍ كثيرةً فتكون مسرورةً.

صبرها وابتهاجها بالآلام

٥. كانت تتداول مع الرئيسة في جميع الشؤون الروحيّة فتشعر بارتياح. وطيلة مرضها لم تُزعج أحدًا أدنى إزعاج، وما كانت تفعل إلاَّ ما تريده الممرِّضة ولو كان شرب قليل من الماء فقط. ومن الطبيعي أنّ نفوسًا تمارس تأمّل تشتهي الآلام إذا كانت لا تعانيها؛ أمّا أن تبتهجَ بالآلام حين تكابدها، فهو شأنُ القليلِ من النفوس. أمّا هي، فكانت تقاسي ضيقًا شديدًا؛ ولم يَطُلْ بها الأمرُ حتّى قَضت أجلها وهي تعاني من آلام مبرّحة ومن وَرَمٍ أخَذَ بحنجرتها فحال دون أن تستطيع البلع. وكان قائمًا بقربها بعض الأخوات؛ وحين شرعت الرئيسة تُنشِّطها وتشجِّعها لتحتملَ ألمها الشديد، أجابتها أنّها لا تشعر بألم، وانّها لا تبدِّل مرضَها بصحّةِ أيّةٍ من الأخوات الصحيحات. وكان الربّ الذي تقاسي من أجله حاضرًا لديها أيّ حضور، فتموّه ما استطاعت التمويه كي لا تلاحظَ الأخواتُ شدَّةَ آلامها. وعليه، نادرًا ما كانت تتأوّه، إلاّ حين يُرهِقُها الألم.

تواضع عميق

٦. ما كانت تخال أنَّ في الأرض ما هو أحقر منها، فكانت، بالتالي، تُفصِحُ في كلِّ حال عن تواضع عميق؛ وإذا ذُكرت فضائلُ أشخاصٍ آخرين أمامها تبتهج كثيرًا جدًّا، وتبالغ في ممارسة الإماتات. وتتحاشى ببراعة كلَّ ما يسلّي، فلا يُدركُ ما تفعلُ إلاّ مَن كان متنبّهًا لذلك. لا يخال أنّها كانت تعيش مع الخلائق أو تتعاطى معها لأنّها ما كانت تعير شيئًا اهتمامًا. وكيفما تقلّبت الأحوال، كانت تجابهها بسلام فتُرى دائمًا منبسطةَ الأسارير، حتى قالت لها أختٌ ذات يوم إنّها تذكّرها بأولئك الأشخاص الكرام الكرام الذين يفضّلون الموت جوعًا على أن يشعرَ الآخرون بحالهم؛ فإنّ أخواتِها ما كنَّ يستطعنَّ أن يصدّقن أن لا شيءَ يكدّرها أبدًا ولو لم تظهر عليها ملامحُ الكَدَر.

---

٢ أي خلاص تلك النفوس.

تكتفي بما يعطي لها

٧. كانت تقوم بجميع الأشغال والوظائف، وهدفها أن لا يفوتها الاستحقاق، فتقول للأخوات: "إنَّ أدنى شيءٍ نعمله ذوُ ثمن لا يقدَّر إذا عملناه حبًّا بالله؛ يجب أن لا نحرّك عيوننا، يا أخواتي، إلاّ لهذه الغاية أو لإرضائه". ما كانت تتدخّل قطّ في شؤون لم توكَلْ إليها، فلا ترى نقصًا في غيرها، بل فيها، هي. كانت تحزن أيَّ حزن إن قيل فيها شيءٌ صالحٌ حتى إنّها ما كانت تثني على أحد بحضوره كي لا تسبِّبَ له غمًّا. ما التمست سلوةً قطّ في خليقة، ولا ذهبت إلى البستان سعيًا إليها؛ ففي رأيها أن التماسَها تخفيفَ الآلام التي يرسلها إليها ربُّنا وقاحة؛ وعليه فما كانت تطلب شيئًا بل تكتفي بما يُعطى لها. ومن أقوالها أيضًا إنّها تعتبر صليبًا كلَّ تعزيةٍ خارجًا عن الله. والخلاصة، إنّني استطلعت راهبات الدير أمرَها، فما وجدتُ واحدةً رأت فيها شيئًا إلاّ وهو صفة نفسٍ بالغةِ الكمال.

موتها السعيد

٨. ولما حان الوقت الذي أزمع ربُّنا فيه على نقلها من هذه الحياة، اشتدَّتِ آلامُها وأَدواءُ كثيرةٌ معًا حتى إنّ الراهبات كنَّ يقصدنها أحيانًا ليحمدنَ ربَّنا إذ يرينها تحتملها بسرورٍ كبير. وقد افصَح خادمُ الأقداس المعرِّفُ في ذلك الدير، وهو كاهنٌ متعبّدٌ جدًّا، عن أمنيته في أن يوجدَ بقربها عند ساعة موتها. كان معرِّفَها ويعتبرها قدّيسة. وتحقَّقت أمنيته. فإذ كانت في وعيٍ تامّ وقد مُسِحَت بزيت المرضى، استدعي ذلك الكاهن لعلَّها تحتاج إليه في تلك الليلة لتعترفَ أو ليساعدَها على قبول الموت. فُبَيلَ الساعة التاسعة، وجميع الأخوات حولها والكاهن معهنَّ، زالت جميعُ آلامها، قبل أن تلفظ نَفَسَها الأخير بربع ساعة تقريبًا؛ ورفعت عينين يشعّ منهما سلامٌ كبير، وشاعَ في وجهها فرحٌ فبدا متلألئًا؛ وبَدَتْ كأنّها تحدّق في شيء يغمرها ببهجةٍ عُظمى؛ فقد ابتسمت مرّتين وهي في هذه الحالة. فغمَرَ الحاضرات جميعًا والكاهنَ أيضًا لذّةٌ روحية وبهجة أيّ لذّة وبهجة، فما انفكّوا من ثمَّ يقولون إنّهم ظنّوا انفسَهم في السماء. وإذ كانت غائصةً في هذه البهجة، وعيناها محدّقتان إلى السماء، لفظت نَفَسَها الأخير فلبثت كملاك. ونعتقد، استنادًا إلى إيماننا وإلى سيرتها، أن الله نقلها إلى راحته جزاء الكثير الذي اشتهت احتماله حبًّا به.

صدق الظواهر

٩. يوكِّد خادم الأقداس، وقد اعترف بذلك للكثيرين، أنّه عندما وَضَعَ جسدَها في القبر، شعر بأن فاحت منه رائحةٌ قويَّةُ العبقِ طيِّبة. وتُؤكّد الواهفة[٣] أنَّ جميعَ الشموع التي أُضيئت في أثناء دفنها، لم يَنْقُدْ منها شيء. ويمكن تصديق كلِّ شيء عن رحمة الله. وفي تباحثي في هذه الأمور مع أحد الآباء اليسوعيين، وكان معرّفها مرشدَها طوال سنوات، قال لي، أن ليس في الأمر مبالغة، وهو لا يَعجَبُ من ذلك، لأنّه يعرف أنَّ ربَّنا كان على اتصال متواترٍ بها.

أمنية تريزا

٣ الواهفة، أي التي تهتم بتنظيم شؤون المعبد أو الكنيسة، أو شؤون "السكرستيا" (م).

١٠. ألا رَضِيَ جلالهُ، يا بناتي، بأن نحسنَ الاستفادةَ من رفقةٍ صالحةٍ كهذه ومن أمثالها يوفّرها لنا الربُّ في أديارنا. وقد أذكر فيما بعد شيئًا عن ذلك لعلَّ من بهنَّ بعضُ الفتور يُجْهِدْن أنفسَهن المسير على الطريق نفسه، ولكي نحمدَ جميعُنا الربَّ الذي تتلألأ عظائمُه في نساء ضعيفات.

الفصل الثالث عشر

في إنشاء الدير الأول للقانون القديم للكرمليين الحفاة، ومَن أنشأه في سنة ١٥٦٨.

سيرة الأبوين المصلِحَين

١. قبل ذهابي لتأسيس دير ڤاليادوليد، كنت اتّفقتُ مع الأب أنطونيو، رئيس دير القديسة حنّة للرهبان الكرمليين في مدينا آنذاك، ومع الأب يوحنا الصليب، كما ذكرت، إذا أنشئَ ديرٌ يطبَّق فيه القانون القديم الكرمليين الحفاة على أن يكونا أوّلَ الداخلين فيه[١]. ولما لم أجد وسيلةً لامتلاك منزل، فيما كنت أنفكّ أوكلُ الأمر إلى ربّنا، لأنني، كما ذكرت، كنت راضيةً عن هذين الأبوين. فالربُّ كان قد امتحن الأب أنطونيو ليسوع، طوال سنة عاشرتُه فيها، بمشقّاتٍ عديدةً تحمَّلها بكثير من الكمال. أمّا الأب يوحنّا الصليب[٢]، فما كان بحاجةٍ إلى أي امتحان؛ فإنّه على معايشته لابسي الجوخ[٣]، المنتعلين، سار سيرة كمالٍ رفيع، وعاش حياةً رهبانية حقّة. ولما تلطّف الربّ فأعطاني الأهمّ، أي رهبانًا يباشرون [الإصلاح]، فقد رتّب الباقي أيضًا.

منزل في دورويلو

٢. لقد درى أحدُ النبلاء في آڤيلا، ويدعى دون رافايل[٤]، ما تعامَلْتُ معه قطّ من قبلُ — لا أعلم ولا أذكر كيف درى — بوجودِ رغبةٍ في إنشاء دير للحفاة، فجاء يعرض عليَّ تقديمَ منزلٍ كان يملكه في موضع قليل السكّان[٥] لا يبلغ عددُهم عشرين في ما أظن — ولا أذكر العدد على وجه التدقيق الآن — وكان يسكن ذلك المنزلَ وكيلٌ يجمع له الدخل من أملاكه. ورغم تصوّري حالة المنزل، فقد حَمِدْتُ ربَّنا وشكرتُه جزيل الشكر. قال لي [النبيل إنّ المنزل] يقع على طريق مِدينا دِل كامپو[٦]، فأستطيع بالتالي مشاهدته وأنا ماضيةٌ إلى أنشاء دير ڤاليادوليد. فأجبته أني سَأفعل، فعَرَّجْتُ عليه. وغادرت آڤيلا في شهر حزيران/يونيو تصحبني رفيقة والأب خوليان دي آڤيلا[٧]، الكاهن الذي ذكرته سابقًا، وهو خادم الأقداس في دير القديس يوسف، وكان يساعدني في هذه الأسفار.

---

١ راجع فصل ٣، عدد ١٦ — ١٧ (ش. ر.).

٢ كان في تلك الفترى ما زال على اسم الأخ يوحنا للقديس متّيا (ش. ر.).

٣ اعتاد الكرمليون الحفاة إطلاق لقب لابسي الجوخ (el paño) على الكرمليين في الرهبانية القديمة بأثوابهم العريضة، تقابلها أثواب الحفاة المصنوعة من الصوف الخشن (ش. ر.).

٤ كان يدعى دون رافايل مِيخيًا فيلاثكيث Rafael Mejía VELAZQUEZ.

٥ دورويلو Duruelo.

٦ Medina del Campo.

٧ Julián de AVILA، ذكرته في فصل ٢/٣ وفصل ٤/١٠.

تعب ودُوار في الطريق

٣. غدونا باكرًا، لكنَّنا ضللنا لأننا لم نكن نعرف الطريق؛ ولأن الموضِعَ لم يكن مشهورًا، فما استطعنا الاستعلامَ عنه. فقضينا ذلك النهاء في عناءٍ بالغ من حرارة شمسٍ حارقة. وكلّما ظننّا أنفسنا على مقربةٍ من المكان، رأينا المسافة التي تفصلنا عنه تساوي تلك التي قطعناها. لن أنسى أبدًا ما قاسينا من تعبٍ ودُوارٍ في ذلك الطريق. وأخيرًا وصلنا إلى المكان قُبَيْلَ هبوط الليل.

وصف حقارة المنزل

دخلنا المنزل فرأيناه في حال لم نتجرَّأ معه على قضاء الليل فيه لشدّة قذارته، ولكثرة الحشرات فيه. كان المنزل يتألَّف من مدخل وسيع نوعًا ما، وغرفة يليها ديوان، ومطبخ صغير. هذا ما اشتمل عليه بناء الدير كلّه. واعتبرت أن باستطاعتنا جعلَ المدخلِ كنيسة، والديوانِ خورسًا، فوضعه مناسب، واعتمادَ الغرفة منامًا.

أمّا رفيقتي فعلى كونها خيرًا منّي وميّالةً إلى التقشّف، فما كانت تطيق أن أفكّر في إنشاء ديرٍ هناك، فقالت لي: "في الحقيقة، يا أمي، ليس من نفس، مهما كانت صالحة، تطيق الإقامةَ هنا. فلا تحاولي ذلك". أمّا الكاهن المرافق، فرغم اتفاق رأيه ورأي رفيقتي، فلم يخالف فكري عندما عرضتُ عليه نيَّتي. فمضينا نقضي الليل في الكنيسة لأنّنا لم نرد أن نظلَّ ساهرين لشدَّة ما أصابنا من تعب.

البدء في المشروع

٤. حين وصلنا إلى مِدينا، خاطبت الأب أنطونيو فحدّثته بما جرى، وقلت له إن كان يطيق أن يعيش هناك بعض الوقت فليكن على يقين من أنَّ الله سيعالج الأمر سَريعًا؛ فيكفي البدء في المشروع؛ فما يهمّ هو المباشرة في العمل. — وإخالني كنت أرى بعيني ما فعله الربّ، وبيقينٍ ثابت، كما يقال، كما أراه الآن، بل أكثر ممّا رأيت إلى الآن؛ ففي الوقت الذي أكتب فيه ما أكتب، هناك عشرة أديار للكرمليين الحفاة بفضل الله– وعليه أن يعرف أن الرئيس الاقليمي الذي انتهت ولايته، مثل مثل الرئيس الحالي، – اللذين يجب أن ننال موافقتهما، كما قلت في البدء — لن يسمح لنا بالحلول من منزل فخم جدًّا، إضافة إلى انه تفوتنا الوسائل لامتلاكه؛ لكنّهما لن يقلقا من تلك القرية الصغيرة وذلك المنزل الحقير؛ وقد أعطى الله [الأب أنطونيو] شجاعةً أكثر ممّا أعطاني، فأجاب أنّه لا يعيش هناك فقط بل وفي زريبة خنازير أيضًا. وكان الأب يوحنا الصليب على هذا الموقف.

إطلاع يوحنا على طريقة العيش

٥. وكان علينا أن نحصل على موافقة الأبوين اللذين ذكرتهما لأن الأب العام ضمّن إجازته هذا الشرط. وكنت أرجو من الربّ الحصول على الموافقة. وعليه، فقد تركت للأب أنطونيو أن يعنى بعمل كلّ ما يستطيع عمله لترتيب المنزل، ومضيت بصحبة الأب يوحنا الصليب لتأسيس دير ڤاليادوليد كما أشرت. مكثنا بضعة أيام خارج الحصن بينما العمّال يُصلحون أمر المنزل، فأتيح لي أن أُطْلعَ الأب يوحنا الصليب على طريقة عيشنا ليكون على بيّنة تامّة من جميع الأمور: التقشّف الذي نمارسه، واسلوب الأخوّة، وفرصتنا المشتركة، كل ذلك باعتدال تامّ بحيث يتيح فقط للأخوات أن يعرفن اخطاءَهنَّ، ويوفّر لهنَّ شيئًا من الراحة ليحتمِلْنَ صرامة القانون. وكان هو على

درجة من الصلاح بحيث أستطيع أن أتعلّم منه أكثر بكثير ممّا يستطيع أن يتعلّم منّي. وما قصدت تعليمه، بل أن أوضحَ له أسلوبَ عيش الأخوات[٨].

موافقة الرئيس الاقليمي

٧. ورتّب الله أن كان هناك الرئيس الاقليمي لرهبانيتنا الذي عليَّ أن آخذ موافقته، ويدعى الأب ألونسو غونثاليث[٩]. كان مسنًّا، وافر الصلاح، صافي النيّة. فلدى طلبي الموافقة، قلت له أمورًا كثيرة منها أن عليه أن يؤدّيَ حسابًا لله إذا عَرْقل عملاً صالحًا أيَّ صلاح كهذا؛ فدبّر جلاله الأمر، كما كنت آمل، فأظهر كثيرًا من اللين. وحين جاءَت السيّدة دونيا ماريا دي مندوثا[١٠] وأسقف آڤيلا، أخوها، وهو الذي أمدَّنا دائمًا بفضله ورعايته، انتهيا إلى إقناعه واقناع الأب الخيل دي سالاثار[١١]، الرئيس الاقليمي السابق الذي كنت أخشى منه معارضةً شديدة. لكن طرأت حينئذٍ حاجةٌ سدّها في الواقع فضلُ السيّدة دونيا ماريا دي مندوثا، ما ساعد مساعدةً كبيرة، برأيي، على تسهيل الأمور؛ وحتى لو لم يتوافر هذا الظرف، فإن ربّنا كان حرّك قلبها، كما حرَّك قلب الأب العام الذي كان بعيدًا عن الأمر كل البعد.

الربّ نظَّم كلَّ شيء

٨. آه، عونك يا الله ! كم من أشياء صادفتها في هذه المباحثات بدت مستحيلةً، وما أسهلَ ما مهّدها، عزّ وجلّ، تمهيدًا ! وما أكثر ما استصغرتُ ذاتي، إذ رأيت ما رأيت، لأني لست خيرًا ممّا أنا عليه ! تأخذني الدهشة وأنا أكتب هذا. وأطلب من ربِّنا أن يُفهمَ الجميعَ أن ما فعلناه، نحن الخلائق، في هذه التأسيسات ليس بشيء تقريبًا. إنّ الربّ نظَّمَ كلَّ شيء انطلاقًا من بدايات حقيرة جدًّا بحيث إنّ جلاله وحده كان يستطيع أن يرفعها إلى ما هي عليه الآن. فليكن مباركًا إلى الأبد، آمين.

---

٨ كان لهذه الأيام تأثير هامّ على عمل الاصلاح، فتوحّد اسلوب العيش لدى الكرمليين الكرمليات، وما امتاز به من اعتدال ورصانة ولطافة معشر؛ وقد ضاع بعضٌ منه بعد موت القديسة، وحصلت مشادات عنيفة بين المعتدلين (غراثيان، يوحنا) والمتشدّدين (نقولا دوريا...) (ش.ر.).

٩ Alonso GONZÁLEZ.

١٠ Doña Maria de MENDOZA.

١١ Fray Angel de SALAZAR.

الفصل الرابع عشر

تتمّة تأسيس أول دير للكرمليين الحفاة. في سلوك الرهبان فيه وفي الفضل الذي بدأ ربُّنا يصنعه في تلك الأمكنة لكرامته ومجده.

تدبير المنزل

١. عندما حصلت على الموافقتين[١] خلْتُ انه لم يعد ينقصني شيء. فقرّرنا أن يذهب الأب يوحنا الصليب إلى المنزل ويرتّبه بطريقة تسهّل الإقامة فيه كائنًا ما كان الحال؛ فقد كنت في عجلةٍ كلّ العجلة من أمري كي يبدأوا [حياتهم فيه] لأني كنت أخشى كثيرًا أن يطالعنا عائقٌ ما؛ وهذا ما فعل. كان الأب أنطونيو قد دبَّر شيئًا من الضروري واللازم، وكنا نساعده على قدر طاقتنا، ولو قليلة. فجأءَ اليَّ في ڤاليادوليد يحدّثني بسرور عظيم، وأطلعني على ما أعدّه وهو قليل جدًّا: كان قد دَبَّرَ خمس ساعاتٍ وحسب، وهذا ما وقع منّي موقعًا حسنًا جدًّا. قال لي إن قصده أن يلتزم الساعات بدقّة، وان لا تَحدُثَ له مفاجأةٌ ما. وأظنّه لم يكن لديه بعد مكانٌ ينام فيه.

انتقال الأب أنطونيو

٢. وما طال أمر ترتيب المنزل، ولو كانت الرغبة كبيرةً في تجهيزه، لأن المال لم يكن متوافرًا. وما إن تمّ اعدادُه حتى استقبال الأب أنطونيو من رئاسته بنفسٍ كبيرة، ونذر الالتزامَ بالقانون القديم. ولم يُرد أن يختبر قدرته على الالتزام أولاً كما أشير عليه. فمضى إلى منزله الحقير والعالَمُ لا يسعه سرورًا. وكان الأب يوحنا هناك.

لذّة باطنيّة

٣. قال لي الأب أنطونيو أنه عندما وصل إلى مشارف المكان، شعر بلذَّةٍ باطنية كبرى، وحسب أنه انقطع أخيرًا عن العالم بتركه كلَّ شيء ودخولهِ تلك العزلة. وما بدا المنزل بائسًا لأيٍّ من الاثنين، بل خالا أنّهما يجدان فيه لذاتٍ عظمى.

مناشدة الأخوات والآباء

٤. آه، اللهمّ عونك ! ما أقلَّ ما تفيد المباني واللذّات الخارجية للحياة الباطنية ! اني أسألكنَّ، يا أخواتي، وأَسألكم يا آبائي، حبًّا به، أن لا تتخلّوا أبدًا عن الاعتدال بشأن المنازل والمقرّات الفخمة. لنضع نصب أعيننا مؤسسينا الحقيقيين، هؤلاء الآباء القديسين الذيين نتحدّر منهم؛ فنحن نعرف أنّهم يتنعّمون مع الله بفضل طريق الفقر والتواضع الذي اتبعوه.

الحثّ على الأمانة لمبادئ التجديد

[١] أي إذن الرئيسين الاقليميين، السابق والحالي (الفصل ٦/١٣).

٥. في الحقيقة، وجدت مزيدًا من الحياة الروحية، بل ومن الفرح الباطني حين بدا أن الأجساد لا تملك ما يوفّر لها الراحة، أكثر منها حين تملك منزلاً فخمًا وتسكن فيه. وما فائدتنا من منزل، مهما كان كبيرًا، ما دمنا نتنعّم باستمرار في صَوْمَعَةٍ فقط ؟ ولو ان الصومَعَة كبيرةٌ جدًّا وغنيّةُ الزخرفة، فماذا تجدينا ؟ أجل؛ ليس علينا أن نقضي وقتنا ننظر إلى الجدران. لنعتبر ان هذا المنزل لن يكون لنا المنزلَ الأبدي، بل سيدوم زمنًا قصيرًا جدًّا كالحياة مهما طالت، فيحلو لنا كلُّ شيء عندما نرى اننا كلّما قلَّ ما نملك على الأرض ازددنا تنعّمًا في الحياة الأبدية حيث تكون المنزال على قدر الحبّ الذي دَفَعَنا إلى الاقتداء بسيرة حبيبنا يسوع. فإذا سلّمنا بأن هذه هي المبادئ لتجديد قانون العذراء والدته، سيِّدتنا وشفيعتنا، فلا نسبّبن لها ولا لآبائنا القديسين المؤسِّسين الإهانةَ بعدم تقيّدنا بها. وما دمنا، بسبب صعفنا، لا نقدر على أن نكون أمناء كلّيًا لها، فيجب أن نسيرَ بحَذَرٍ شديد في الأمور التي لا تهمّ الحياة سلبًا أو إيجابًا. كلّ هذا لا يتطلّب منّا إلاّ جهدًا قليلاً لذيذًا، كذلك الجهد الذي بذله هذان الأبوان. فإذا صمّمنا على بذله، زالت الصعوبة؛ والصعوبة كلّ الصعوبة، قليلٌ من التعب في البدء.

أين الكرامة ؟

٦. في الأحد الأول أو الثاني من زمن المجيء[٢] من السنة ١٥٦٨ هذه – لا أذكر في أيٍّ من الأحدين حدث الأمر –، أقيم القداس الأول في مغارة بيت لحم تلك، ولا أرى اسمًا لها خيرًا من هذا. وفي الصوم التالي، عرَّجت على ذلك المكان وأنا في طريقي إلى تأسيس دير طليطلة. وصلت ذات صباح فوجدت الأب أنطونيو يسوع يكنس الأرض أمام باب الكنيسة ووجهه مليءٌ بهجةً كعادته. فقلت له: "ما هذا يا أبت؟ أين الكرامة؟". فأجابني بهذه الكلمات معبّرًا عن سروره الكبير: "أكره الزمن الذي توافرت لي فيه".

مشهد التقشّف

حين دخلت الكنيسة، دهشت إذ رأيت الروح الذي أودَعَه الربّ هناك. وما كان هذا شعوري، أنا، فحسب؛ فإنّ تاجرين، صديقين لي، صَحِباني من مِدينا إلى هناك، ما كان ينفكّان يبكيان. ما أكثر ما كان فيها من صلبان ! ومن جماجم !

وصف حياة الأبوين

٧. لن أنسى أبدًا صليبًا صغيرًا من خشب فوق جون الماء المبارك وقد أُلصِقَتْ عليه صورة من روق تمثّل المسيح تحرّك التقوى أكثر ممّا لو كانت منحوتةً بإتقان رفيع.

الديوان يقوم مقام الخورس ونصفه أعلى مستوى من النصف الآخر، فيمكن أن تتلى فيه صلوات الساعات[٣]، غير انه يجب إحناء الرأس كثيرًا للدخول إليه ولسماع القداس. وفي ركنَي الكنيسة تقوم، صومعتان صغيرتان، لا يستطيع [الأبوان] المكوث فيهما إلاّ ممدَّدين أو جالسين، وقد مُلئتا تبنًا لأنّ الموضع باردٌ جدًّا

[٢] زمن المجيء، فترة زمنية طقسية تسبق عيد ميلاد المسيح وتكون إعدادًا له، يحتفل فيها بتذكار أحداث مهَّدت للحدث الكبير (الميلاد): تجديد البيعة، تقديس البيعة، بشارة مريم، بشارة زكريا، الزيارة، ميلاد يوحنا... والمقصود الأحد الأول أو الثاني من كانون الأول/ديسمبر (م).

[٣] الساعات أو صلوات الساعات، هي صلوات في الفرض الإلهي كان الرهبان والكهنة ملزمين بتلاوته يوميًا موزعًا على أوقات معينة من النهار (م).

والسقفُ يكاد يلامس رأسيهما –؛ وفي كلِّ صومعةٍ نافذةٌ صغيرة تطلّ على المذبح وحَجَرٌ يُستخدَم مسنَدًا للرأس، وصلبانهما وجماجم الأموات. عرفت أنّهما بعد انتهاء صلاة الصبح وإلى حين صلاة الساعة الأولى ما كانا يستريحان بل يمكثان هناك في حال تأمّل رفيع بحيث يحدث لهما أن يمضيا لصلاة الساعة الأولى وثيابهما يغرمها الثلج وهما لايشعران. كانا يتلوان صلوات الساعات مع أبٍ آخر من الابسي الجوخ، مضى يعيش معهما ولو لم يغيّر ثوبه، لأنّه كان سقيمَ الجسم، ومع أخٍ شاب لم يكن قد قبل الدرجات بعد[٤].

وعّاظ حُفاة

٨. كانا يذهبان للوعظ في قرى عديدة من تلك المنطقة يجهل أهلها كلَّ تعليم؛ ولهذا أيضًا أَسعَدَني أن يؤسَّسَ البيتُ هناك؛ فقد قيل لي إنّه ليس من دير قريب، ويستحيل أن يحظى السكان بتعليم، وهو أمر يؤسَفُ له أشدّ الأسف. وفي فترةٍ قصيرة حظي [الأبوان] بثقة كبيرة كانت لي سببَ ارتياح بالغ. كانا يذهبان للوعظ، كما قلت، على مسافة غلوة ونصف، وغلوتين، حافيين٥ – فما كانا ينتعلان آنذاك، بل فُرِضَ ذلك عليهم فيما بعد — في الثلج والبرد. وبعد الوعظ وسماع الإعترافات يعودان متأخّرَيْن لتناول الطعام في بيتهما. وكان السرور يخفّف كلَّ شيء عنهما.

فضل سيّد نبيل

٩. كان الطعام متوافرًا لديهما بما يكفي ويَزيد، لأنّ سكان القرى المجاورة كانوا يمدّونهما بما يفوق حاجتهما. وكان يقصدهما للاعتراف بعضُ أسياد المنطقة ويعرضون عليهما بيوتًا خيرًا من ذاك وفي مواضع أفضل. من هؤلاء دون لويس، صاحب المزارع الخمس[٦]. فهذا السيّد كان قد بنى كنيسة لتكريم صورة سيّدتنا، جديرةٍ حقًّا بالتكريم. وقد أرسل الصورة والده من فلاندر[٧] إلى جدته أو والدته — لا أذكر أيهما — بواسطة أحد التجار. وقد شُغِفَ بها هو أيَّ شغف فحفظها لديه سنوات عديدة؛ وعندما حانَت وفاته أمر بأن يأخذاها. إنّها صورة كبيرة ما رأيت في حياتي أجمل منها قط — وكثيرون يرون رأيي–. حين لبّى الأب أنطونيو ليسوع دعوة هذا السيّد ورأَى الصورة، أعجب بها أيَّ اعجاب، وبحقّ، بحيث رضي أن ينقل الدير إلى ذلك المكان؛ ويدعى مانثيرا[٨]. ورغم أنّه لم يكن يوجد بئرٌ لاستخراج الماء، ولا يُرى ممكنًا الحصول على الماء هناك، فقد بنى لهما هذا السيّد ديرًا صغيرًا ملائمًا لنذرهما، وقدَّم لهما ملابس بيعية. لقد فعل صنيعًا حسنًا جدًّا.

الحصول على الماء

---

٤ الأب هو لوقا دي ثيليس، والأخ هو يوسف للمسيح.

٥ من هذه البداية دُعي الآباء المصلَحون حفاة، وبقي الإسم لهم وللرهبانية حتى اليوم (ش. ر.).

٦ كان هذا السيّد، لويس دي توليدو، يملك خمس مزارع في تلك المنطقة وقد دخل الرهبانية الكرملية ابنه انريكي (هنري) وابنته ايزابيل.

٧ فلاندر (Flanders) منطقة من بلجيكا كانت تابعة للتاج الاسباني في عصر القديسة تريزا (القرن ١٦) واشتهرت بازدهار فن الرسم وكثرة مدارسه (م).

٨ Mancera de Abajo، نُقِلَ الدير إليها في ١١ حزيران/يونيو ١٥٧٠.

١٠. لن أدع الفرصة تفوتني لأرويَ كيف أنَّ الربَّ أعطاهم ماءً فاعتبروا ذلك أعجوبة. كان الأب أنطونيو، الرئيس، ذات يوم بعد العشاء في الفناء يتحدّث ورهبانه عن حاجتهم الماسَّة إلى الماء، فقام ورسم في ناحية بعصا يحملها بيده إشارةَ الصليب على ما أظن، ولو أنني لا أذكر جيّدًا إذا رسمَ صليبًا؛ والخلاصة، أنّه أشار بالعصا وقال: "الآن، أحفروا هنا". وما إن حفروا قليلاً، حتى خرج ماء غزير جدًّا بحيث يصعب تجفيفه متى أريد تنظيف البئر؛ والماء صالح للشرب عذب، ويستخدمونه في جميع حاجاتهم ولا ينضب أبدًا، كما قلت. وبعد أن سوّروا حديقةً، سعوا لأن يستخرجوا فيها ماءَ، فصنعوا ناعورة وبذلوا مصروفًا باهظًا، إلاّ أنّ سعيهم ذهب سدى إلى الآن، فلم يحصلوا عليه.

قداسة الآباء

١١. عندما رأيت ذلك البيتَ الصغير الذي كانت تستحيل الإقامةُ فيه قبيل ذلك، يشبع فيه الروح، خلتني أرى لي عِبْرَةً بكلّ ناحيةٍ منه نظرتُ إليها، وأدركتُ طريقة عيش [هؤلاء الأخوة]، وتقشُّفَهم، وتأمّلَهم، والمثلَ الصالح الذي يقّمونه. فقد جاء سيّد وزوجته من جوارهم يزورانني، وكنت أعرفهما كادا يعجزان عن الثناء على قداستهم وعن وصف الخير العظيم الذي يصنعونه في تلك القرى. أمّا أنا، فما كنت أَمَلُّ من شكر ربّنا يغمرني فرحٌ باطني عظيم، فقد خِلْتُني أرى بداية تقدّم بارز تحقّقه رهبانيتنا في خدمة ربّنا. إلا رضي جلاله بأن يدفعهم قُدُمًا كما يسيرون الآن، فتظهر صحَّةُ فكرتي.

وكان التجّار الذين صحبوني يقولون لي إنّهم ما كانوا ليتخلّوا عن رحلتهم إلى ذلك المكان مهما كانت الكلفة. ما أروع الفضيلة ! أعجبهم ذلك الفقرُ أكثر من الثروات التي يملكونها، وشدّدهم، وأشبع نفوسهم.

إلحاحها بعدم المبالغة

١٢. بعد أن تباحثت وأولئك الآباء في بعض الشؤون، سالتهم، وأَلحَحْتُ في السؤال، على ضعفي وحقارتي، أن لا ينساقوا إلى المبالغى في التقشُّف، وكان تقشُّفهم في الوقاع كبيرًا. ولما كان الشروح [في الاصلاح] كلّفني الكثيرَ من الرغبة والتأمّل كيل يعطيني الربّ من يقومون به، وكنت أرى البداية على هذه الدرجة من الصلاح، ساوَرَني الخوف من أن يسعى الشيطان إلى وسيلةٍ يقضي بها عليهم قبل تنفيذ ما كنت آمل تنفيذه. وبسبب نقصي وضعف إيماني، كنت أغفل عن أنَّ هذا عملُ الله، وأنَّ جلاله سيدفعه إلى الأمام. أمّا هم، الذين يملكون ما ينقصني، فلم يعيروا كلامي اهتماًا، ولم ينقطعوا عن ممارساتهم. وعليه، فقد غادرتهم مرتاحةً تمام الارتياح، ولو لم أحمد الله الحمد الواجب على منّةٍ ساميّة كهذه المنَّة.

ألا رضيَ جلاله، بصلاحه، أن أكون أهلاً لأفيه جزءًا من الكثير الكثير الذي أدين به له، آمين. فهذه منّة أَعتبرُها تفوقُ كثيرًا جدًّا تلك التي أعطانيها لتأسيس أديارٍ للراهبات.

الفصل الخامس عشر

في تأسيس دير القديس يوسف المجيد، في طليطلة سنة ١٥٦٩.

خبر تاجرٍ شريق

١. كان في طليطلة تاجر شريف يعبد الله يدعى مَرْتين راميريث[١]، ما اراد أن يتزوَّج قطّ، بل كان يعيش حياةً كاثوليكي صحيحة، ويمتاز بالصدق والاستقامة. جمع ثروة حلالاً وهدفه منها أن يؤسِّس عملاً يرضي به الربّ. أصابه مرض مميث. وعرف بالأمر أحد الآباء اليسوعيين ويُدعى بابلو هرنانديث[٢]، معرّفي في أثناء إقامتي في طليطلة للتفاوض في تأسيس دير في مالاغون، وكان شديدَ الرغبة في إنشاء دير في هذه المنطقة. فقصد مَرْتين راميريث لمباحثته في الموضوع. فبيّن له الخدمة الجليلة التي تؤدّي للربّ لَوْ حَوَّل المال من تأسيس معابد وتخصيص كهنة يخدمونها، كما ينوي، إلى هذا الدير؛ ففيه يمكن أن تقام الاحتفالات بالأعياد ويُعْمَلَ سائر ما كان عازمًا على أن يوكله إلى رعيةٍ في هذه المدينة.

أخ رزين رصين

٢. وكان من سوء حاله آنذاك أن رأى الوقتَ قصيرًا لتقرير، فوكّل أخاه ألونسو ألقاريث راميريث[٣] في كلِّ شيء، وما لبث الله أن نقله إليه[٤]. ولقد أصاب في توكيله أخاه. فإن ألونسو ألقاريث رجلٌ جدّ رزين، يخاف الله، ويسير في الحقّ، وافر الإحسان، رصينٌ كل الرصانة. وإنّما أستطيع أن أنسب إليه هذه الصفات كشاهدِ عيان عاشرته فأقول قول حقّ.

قدوم تريزا إلى طليطلة

٣. عندما توفّي مرَتين راميريث، كنت ما زلت منهمكةص بتأسيس دير ڤاليادوليد. فكتب إليَّ الأب بابلو هرنانديث اليسوعي، وألونسو ألقاريث نفسه، ليطلعاني على الواقع ويسألاني القدومَ سريعًا إذا وافقتُ على إنشاء الدير. فمضيت بُعَيْدَ أن جُهّزَ البيت [في ڤاليادوليد]. وصلت إلى طليطلة عشية عيد سيّدة التجسّد[٥]، وذهبت إلى منزل السيّدة لويسا حيث نزلت في مناسبات سابقة[٦]، وهي مؤسِّسة دير مالاغون، فاستقبلتني بفرح كبير لأنّها تحبّني كثيرًا. وكان بصحبتي رفيقتان من دير القديس يوسف في آڤيلا كثيرتا العبادة لله. فقُدِّمَ لنا مَقَرٌّ، كما جرت العادة، فكنّا في خلوة وكأنّنا في ديرٍ نعيش.

---

١ Martin RAMÍREZ.

٢ Pablo HERNÁNDEZ.

٣ Alonso Alvarez RAMÍREZ.

٤ توفي في ٣١ تشرين الأول / أكتوبر ١٥٦٨.

٥ أي عيد البشارة، في ٢٤ أذار / مارس ١٥٦٩.

٦ هي السيّدة لويسا دي لا ثيردا (راجع ٤/٩).

مساعٍ باءَت بالفشل

٤. شرعتُ حالاً في بحث هذه الشؤون مع ألونسو ألقاريث وأحد أصهاره[٧] المدعو دييغو أروتيث. فلأنّه رجل صالح جدًّا ولاهوتي كان أكثر حصافة من ألونسو ألقاريث، لكنّه أبطأُ منه في الاقتناع. فبدأ الاثنان يضعان شروطًا عديدة ما كنت أرى مُناسبًا قبولها. وفي اثناء المباحثات، فتّشا عن بيت بستأجرانه لنشغله، لكنَّهما لم يعثرا على بيت ملائم، رغم إكثارهما البحث؛ ولم أتوصَّل، أنا، للحصول على الإجازة من الحاكم — وفي هذا لوقت لم يكن هناك مطران — رغم المساعي الكثيرة التي بذلتْها هذه السيّدة وكاهنٌ قانوني في هذه الكنيسة يدعى بدرو مانريكي[٨]، ابن مقدّم كستيليا. لقد كان هذا خادمًا لله حقًّا، وهو كذلك الآن، لأنه ما زال حيًّا؛ ورغم سُقمه، فقد دخل الرهبانية اليسوعية، حيث هو الآن، بعد بضع سنوات من إنشاء هذا الدير. كان جزيل الاعتبار في هذه المدينة لأنّه فهّامة جريء. ورغم كلِّ شيء، لم أتمكّن من الحصول على هذه الإجازة؛ فحين كان الحاكم[٩] بيدي جانب اللين، كان أعضاء المجلس يتشدّدون. ومن جهّة ثانية، ما كنّا، أنا وألونسو ألقاريث، لنصل إلى اتفاق بسب صهره الذي كان، هو، يطلق يده في الموضوع. فانتهينا إلى الاختلاف اختلافًا تامًّا.

لقاء مباشر وناجح

٥. ما كنت أدري ما العمل؛ فأنا لم آتِ لأمر آخر، وكنت أرى ان عودتي من دون تأسيس [الدير] ستُحدث شكًّا كبيرًا. ورغم ذلك، فقد كان يشقّ عليّ عدمُ الحصول على الإجازة أكثر من أيِّ أمرٍ آخر، لاعتقادي أنّه إذا تمّ التسلّم فإنّ ربّنا سيدبّر كلَّ شيء كما فعل في أماكن أخرى. وعليه، فقد صمَّمت على التحدّث إلى الحالم، فذهبت إلى كنيسةٍ قريبة من منزله وأرسلت أتوسّل إليه أن يتفضَّل فيستقبلني. وكان قد مضى أكثر من شهرين على المساعي وهي تؤول كلَّ يوم من سيِّءٍ إلى أسوأ. عندما قابلته، قلت له إنّه لأمر صعبٌ أن تسعى نساء إلى العيش في نظام صارم، وفي سلوك كمال وانحباس، فيحاول عرقلةَ أعمال تؤول إلى خدمة ربّنا كهذه أناسٌ لا يعانون منها شيئًا، بل يعيشون في نعيم الرفاهية. قلت له هذا وأمورًا أخرى عديدة بثبات جأشٍ أعطانيه الربّ، فحرّكت قلبَه بحيث إنّه أعطاني الإجازة قبل أن أودّعه.

مساعدة غير منتظرة

٦. مضيت مسرورة طنًّا مني أنّني حصلت على كلّ شيء، مع أنّني لا أملك شيئًا. فما كان لديّ إلاّ ثلاثة دوقات أو أربعة، اشتريت بها صورتين[١٠] – فلم يكن عندي أيّة صورة لأضعها على المذبح –، وفراشان من قشّ وبطانية. أمّا البيت، فلا ذكر له لأنيّ كنت أختلفت في الرأي و ألونسو ألقاريث. وكان هناك تاجرٌ صديقٌ لي يقطن المدينة نفسها، ما أراد أن يتزوَّج قطّ، ولا همّ له إلاّ مساعدة المسجونين والقيام بأعمال أخرى صالحة عديدة، فسألني أن أخفّف عنّي لأنه سيبحث لي عن بيت — والتاجر يدعى ألونسو دي آڤيلا[١١]– ؛ لكنه مَرِضَ.

---

٧ Diego ORTIZ صهره هنا زوج ابنته (م).

٨ Don Pedro MANRÍQUE هو خال كاسيلدا دي پاديليا التي روت القديسة قصتها في الفصلين ١٠ و١١.

٩ الحاكم هنا هو رئيس المجلس الكنسي الذي كان يدبّر ممتلكات أبرشية طليطلة وهي الكرسي الأولى في اسبانيا.

١٠ هما صورتان ما تزالان تكرّمان في الدير، تمثّل إحداهما يسوع واقفًا تحت الصليب والأخرى تمثله جالسًا غارقًا في التأمّل.

١١ Alonso de AVILA.

وقبل بعضة أيام، قدم إلى تلك المدينة راهب فرنسيسكاني وافر القداسة، يدعى مرتين دي لا كروث[١٢]، فمكث هناك قليلاً. وبعد أن مضى، أرسل إليَّ شابًا كان يعترف لديه اسمه اندرادا[١٣]، لا يعرف الغنى، بل كثير الفقر، وطلب إليه أن يفعل كل ما أسأله. فذات يوم، وكنت أحضر القداس في كنيسة، جاء يقول لي عن لسان ذلك المغبوط أن أكونَ على ثقة بأنه سيفعل من أجلي كلَّ ما باستطاعته، ولو انهُ لا يملك إلاّ شخصه. فشكرته، وقد وقَعتْ موقعًا حسنًا، وعند رفيقاتي موقعًا أحسن، تلك المساعدةُ التي أرسلها إلينا ذلك القديس، لأن ثوبه ما كان يدلّ على أنه يتعاطى وراهباتٍ حافيات.

خبر الحصول على المنزل

٧. بعد حصولي على الإجازة بدون مساعدةٍ من أحد، ما كنت أعرف ما العمل ولا مَن أكلّفه البحث عن بيت لاستئجاره. فتذكّرت الشاب الذي أرسله اليّ الأخ مرتين دي لا كروث وحدّثت بذلك رفيقتيَّ. فضحكتا كثيرًا من أمري وسألتاني أن لا أُفضيَ إليه بشيء لأن ذلك لن يؤدّي إلاّ إلى كشف أمر التأسيس. فما أعَرتهُما سمعي. فقد كنت واثقةً بأنّه سيفعل شيئًا ما، وانَّ في الأمر سرًّا لأنّه مرسَلٌ من لدن خادم الله ذاك. فاستدعيته، فرويت له ما يجري، وسألته بإلحاح أن يحفظ السرّ، وطلبت إليه أن يبحث لي عن بيت وأنا أقدّم من يضمن دفعَ الإيجار، وهو ألونسو دي آقيلا، الرجل الصالح الذي ذكرت أن قد حلَّ به مرض. بدا الأمر سهلاً لذلك الشاب فقال إنّه سيبحث عن بيت. وما لبث أن جاءَني ذات صباح، وأنا أسمع القداس في كنيسة اليسوعيين، وقال لي إنّه وجد لي بيتًا قريبًا، وقدّم لي المفاتيح، وسألني أن أذهب فأشاهده. كان البيت ملائمًا جدًّا فمكثنا فيه سنة تقريبًا.

رضى الربّ بالفقر والعمل

٨. عندما أعيدُ النظرَ في تأسيس هذا الدير، غالبًا ما تدهشني خطط الله. فقد مضى ثلاثة أشهر — أو على الأقل أكثر من شهرين لأنّني لا اذكر جيّدًا –، وأشخاص أغنياء جدًّا يحورون ويدورون في طليطلة بحثًا عن بيت فلا يستطيعون العثور عليه، وكأن لا بيوت في المدينة؛ ثم جاء هذا الشاب، الشديد الفقر، فرضي الربّ أن يجد بيتًا في الحال. ومع ان التأسيس كان يمكن أن يتمّ من دون عناء بفضل الاتفاق المعقود وألونسو ألقاريث، فلم يُرد [الربّ] أن يحصل إلاّ بالفقر والعمل.

الانتقال إلى البيت

٩. ولأنّ البيت نال رضانا، فقد أمرتُ حالاً باستلامه قبل أن يُعمَلَ فيه أيّ شيء تحاشيًا لأيِّ عائق. وبُعَيْدَ قليل، جاءني أندرادا المذكور يقول لي إنّ البيت سيُخلى في ذلك اليوم، فقلنقلْ أمتعتنا إليه. فقلت له أن الأمر سهل لأن ليس لدينا إلاّ فراشان من قشّ وبطّانية؛ فأخذه العجب. وشقّ على رفيقتيّ أن أخبره بالواقع، وأظهرتا استغرابهما لذلك، لأنه قد يرانا على هذه الحالة من الفقر فيقلع عن مساعدتنا. أمّا أنا فلم أُعِر الأمر انتباهًا، وهو نفسه لم يكترث له؛ لأن من بثّ فيه ذلك العزم دفعه قُدمًا إلى ان أَتمّ عمله. فمضى يرتّب البيت

---

١٢ Martin de la Cruz أي مرتين للصليب.

١٣ Andrada.

ويأتي العمال بهمّة لا أحال همَّتُنا فاقتها زخمًا. واستعرنا ما كان ضروريًا لإقامة القداس. وعند هبوط الليل، مضينا بصحبة أحد العمّال لاستلام البيت ومعنا ناقوس صغير كلاذي يقرع عند الرفعة[١٤] لأنّه لم يكن لدينا سواه. وقضينا الليل كلَّه نُعِدّ المكان وأنا في خوف عظيم، فلم نجد موضعًا نجعله كنيسةً إلاّ غرفة يتمّ الدخول إليها من بيت صغير ملاصق تسكنه بعض النسوة، وكان صاحبها قد أجَّرنا إيّاها أيضًا.

روع النسوة الجارات

١٠. تمّ إعداد كل شيء والفجر على أهبة البزوغ، وما اجترأنا على أن نُطلع أولئك النسوة على شيء لئلاَّ يكتشفن أمرنا. فشرعنا نفتح بابًا في الجدار الفاصل الذي يُطلُّ على فناء ضيِّق. عندما سمعت النسوة الطرَقات، وهنّ بعد نائمات، نَهَضْنَ مرعوبات، فبذَلْنا جهدًا شاقًّا لتسكين روعهنّ؛ لكن الوقت كان قد حان، فأقيم القداس، ولو على مضض منهنّ، ولم يسبّبن لنا سوءًا. فلمّا رأينَ الغاية من ذلك، هدّأَ الربُّ غضبهنَّ.

غضب أعضاء المجلس

١١. ثم رأيت فيما بعد كم أسأنا التصرّف. فإن التهوّر الذي يدفعنا فيه الله لتحقِّق عمله يحول دون انتباهنا إلى المساوئ. فحين علمتْ صاحبة البيت أننا صنعنا منه كنيسةً ظهرت المشاكل، خصوصًا أنّها كانت زوجةَ بكر العائلة؛ فانفجرت حانقة. وحين علمت اننا نشتري البيت منها بثمن جيّد إذا نال رضانا، أعاد الربُّ إليها الهدوء. وعندما علم أعضاء المجلس أن الدير أنشئ، رغم أنّهم لم يريدوا قطّ أن يجيزوا إنشاءَه، ثار ثائرهم ومضوا إلى أحد رجال الكنيسة — وكنت قد أطلعته على الأمر سرًّا –، يقولون إنّهم سيفعلون كذا وكيت[١٥]. فالحاكم طرأ عليه سفر بعد أن أعطاني الإجازة، وكان بالتالي غائبًا عن المدينة، فذهبوا يروون لهذا الذي ذكرت، وهم مندهشون من تجرّؤ امرأة صغيرة على إنشاء دير خلافًا لإرادتهم. فتظاهر، هو، بجهل الواقع جهلاً تامًّا، وطيّبَ خاطرَهم ما استطاع قائلاً لهم إنني أسَّست [أديارًا] في مدن أخرى، فلا يشكّ في أن تكون لديَّ الإجازة اللازمة.

تهدئة الحال

١٢. أما هم، فبعد مرور أيام لا أذكر عدَّها تحديدًا، وجَّهوا إلينا إنذارًا بالحرم إذا أقيم القداس إلى أن نبرز الإجازة بالتأسيس. فأجبتهم بلطف بالغ أنّني مستعدَّة لأن أفعل ما يأمرون، ولو لم أكن مُلزَمَةً بإطاعتهم في هذا الأمر. وسألت دون پدرو مانريكي، السيّد الذي ذكرته، أن يمضيَ ليحدِّثهم ويطلعهم على الإجازة. فهدَّأ نقمتهم ووضعهم أمام الأمر الواقع. ولولا هذا لكنا جابهنا صعوبة أخرى.

وصف فقر التأسيس

١٤ كان هذا الناقوس يقرع عند رفعة القربان، في أثناء القداس، وقد استغني عن استعماله التجديد الليترجي يُعَيْدَ المجمع الفاتيكاني الثاني (م).

١٥ هو دون پدرو مانريكي المذكور في العدد ٤ "وكذا وكيت" مقابل العبارة الاسبانية ''hacer y acontecer'' وتساوي بدقّة التعبير العامي "يعمل ويسوّي" (م).

١٣. وبتنا بضعة أيّام لا متاعَ لدينا سوى فراشَيْ القشّ والبطّانية، وليس لدينا حتى نثرة خشب نشوي عليها سمكة، ولا أعرف الذي حرَّك الربُّ شفقتَهم فأودعوا لنا في الكنيسة رزمةَ حطبٍ حلّت مشكلتنا. كنّا نعاني من شيء من البرد في الليل، والليالي هناك باردة، ولو اننا كنا نلتحف البطّانية وأردية الصوف الخشن، وهي غالبًا ذات فائدة لنا. لَيبدو مستحيلاً تقدير هذا الفقر المدقع وأنا أعيش في منزل تلك السيّدة التي تكنّ لي مودّة عظمى. لا أدري سببًا لهذا إلاّ أنَّ الربَّ أراد أن نختبر جدوى هذه الفضيلة. ما سألتها شيئًا، فأنا لا أرضى أن أضايقَ أحدًا؛ وهي، لحسن الحظ، لم تلحظْ [فقرنا]؛ وأنا مدينةٌ لها بأكثر ممّا كانت تستطيع أن تعطينا.

فرح في الفقر

١٤. وكان ذلك خيرصا كبيرًا لنا؛ فإنَّ ارتياحنا النفسي، وفرحَنا الباطني كانا من العِظَمِ بحيث يحضرني غالبًا ما يضمّنه الربّ الفضائل. ان الحرمان الذي لازمنا كنت إخاله يوفّر لنا مشاهدة[١٦] [الربّ] مشاهدةً لذيذة، ولو انّها كانت عابرة؛ فإنّ ألونسو ألقاريث نفسه وآخرين طفقوا يقدّمون لنا أكثر ممّا نطلب. وفي الحقيقة، فإنّ حزني كان شديدًا شديدًا، فكأنني أملك حليً كثيرةً من ذهب فانتزعوها منّي وتركوني مُعدَمة. هكذا كنت أشعر، وتشعر رفيقتاي معي بغمّ، لأن فقرَنا سائرٌ إلى زوال. وعندما رأيتهما كئيبتين، سألتهما ما بهما، فأجابتا: "ما بنا يا أمَّاه ؟! يبدو أننا لسنا بعدُ فقيرات".

اعتراضات جديدة

١٥. ومنذئذ أخذ ينمو فيَّ الشوق إلى أن أكون فقيرةً جدًّا؛ وتمكّن منّي الترفّع لأحتقر الخيرات الزمنية، لأنّ انعدامها ينمّي الخير الباطني البذي يجلب لنا في الحقيقة شِبَعًا وسكينةً من نوع آخر.

أيّامَ بحثت أمرَ هذا التأسيس من ألونسو ألقاريث، كَثُرَ الذين أظهروا امتعاضهم وأفصحوا لي عنه لاعتبارهم أن ذينك السيّدين، على كونهما صالحين في حالتهما، كما قلت سابقًا[١٧]، فما هما عَليّة القوم، وأني لن أُعدَمَ في مدينة مهمّة، كما هي طليطلة، مواضعَ مُريحةً خيرًا من هذا. أمّا أنا فما أعرتُ قولهم اكتراثًا لأنّني، تمجّدَ الله، قدّرتُ الفضيلة دائمًا أكثر من تقديري الحسب. بل كثرت الأقاويل التي بلغت الحاكم، فأعطاني الإجازة شرط أن يكون التأسيس هنا مثل تأسيساتي في أماكن أخرى.

حيرةٌ وتردّد

١٦. ما كنت أدري ما العمل؛ فبعد أن تمَّ إنشاء الدير عادوا إلى البحث في الموضوع. أمّا وقد تمَّ تأسيسه، فقد اعتمدث حلاًّ بأن أعطيتهم المعبد الكبير على أن لا يكونَ لهم في الدير شيءٌ إطلاقًا، كما هو الحال الآن. لقد كان هناك شخصيةٌ بارزة تطمح إلى الحصول على المعبد الكبير، وعُرِضَت آراء مختلفة، فحرتُ في أمري. ونوّرني ربّنا في هذه الحال فقال لي ذات مرّة: ما أقلّ الاحسابَ والمقاماتِ شأنًا أمام الله يوم الدينونة. ووبّخني توبيخًا قاسيًا لأنّني أعيرُ المتحدِّثين بهذه الأمور سمعًا، وهي أمور يجب أن لا نهتمَّ بها نحن الذين يحتقرون العالم.

---

١٦ Contemplación.

١٧ إشارة إلى مرتين راميريث و ألونسو ألقاريث، وهما من التجّار وليسا من طبقة النبلاء (راجع العدد ١ و٢ من هذا الفصل) (م).

... راحة وارتياح

١٧. أذهلتني هذه الحجج وأخري غيرها، فقرّرت الاستمرار في المباحثات فإعطائهم المعبد، وما ندمت على ذلك قطّ، فقد بان لنا واضحًا أن الحلّ في شرائنا بيتًا كان حلاً سيئًا، لأنّنا، بمساعدتهم، اشترينا الذي تشغله [الراهبات] الآن، وهو واحد من خيرة بيوت طليطلة، وقد كلَّف اثني عشر ألف دوقًا. وبفضل القداسات الكثيرة والاحتفالات العديدة التي تقام فيه، فقد صار واحةَ راحةٍ للراهبات وارتياحٍ لسكان المدينة. لو نظرتُ آراء العالم الباطلة بحسب مفهومنا، لكان استحال علينا الحصول على هذه الراحة، ولكُنَّا أَلحقنا إهانة بمن تفضّل بطيبة خاطر فتكرّمَ علينا بهذه الهبة.

الفصل السادس عشر

في بعض أمورحصلت في دير القديس يوسف هذا في طليطلة لاكرام الله وتمجيده.

خبر الراهبة حنّة لوالدة الله

١. خطر لي أن أذكرَ بإيجاز ما كانت تمارسه بعضُ الراهبات في خدمة ربِّنا كي تسعى اللواتي يأتين فيما بعد إلى السير على منزال هذه البدايات الصالحة.

قبل شراء البيت، دخلت راهبةٌ تدعى حنّة لوالدة الله وهي في الأربعين من عمرها، كانت قد صرفت حياتَها في خدمة جلاله الإلهي. ومع أنّها بين معاشرها وفي عائلتها ما كانت تفوتها حياة الرخاء، لأنّها وحيدة وذات غنى، فقد فضّلت أن تختارَ الفقرَ والخضوعَ في رهبانيتنا، فجاءَت تحادثني. ورغم سقمها، حين رأيتُ فيها نفسًا وافرة الصلاح والعزم، وجدت فيها منطلقًا صالحًا للتاسيس، فقبلتها. وتلطّف الله فأعطاها، في شظف العيش وفي الخضوع، صحةً أفضل كثيرًا من ذي قبل، حين كانت تنعم بالحرية والرخاء.

سخاؤها وتجرّدها

٢. وما حرّك تقديري لها فأذكرها هنا، هو أنّها، قبل أن تبرزَ نذورها، وهبت الدير كلَّ ما تملك، وكانت غنيّةً جدًّا. شقّ عليَّ ذلك، وما كنت أريد قبوله، وقلت لها انها قد تندم فيما بعد، أو قد ترفض أن تُبرزَ النذور، وإن فعلها خطير — وما كنّا في الحالين حتمًا لنجرّدها ممّا أعطتنا –؛ وإنّما أردت أن أجسِّمَ الأمر لها كثيرًا: أولاً، كي لا يكون سببًا لتجربة؛ وثانيًا، لاختبار نفسيَّتها اختبارًا أفضل. فأجابتني انّه لو قُدِّر وحصل ذلك، فإنّها تسألني أن أقبله حبًّا بالله. وعجزتُ تمامًا عن تغيير رأيها. وعاشت مسرورة جدًّا وهي تنعم بصحّة أفضل كثيرًا من ذي قبل.

أمثلة على طاعة الراهبات

٣. كانت الراهبات يمارسن التقشّفَ والطاعة في هذا الدير بحرارة، حتى إنّ الرئيسة، في فترةٍ وُجْدتُ فيه[١]، كانت حذرةً في ما تقوله، إذ إنّها ولو قالت أحيانًا شيئًا ما عفويًا، فقد كنَّ ينَفِّذنه حالاً. كنَّ ذات مرّة ينظرن مُجَمَّعَ ماء في الحديقة، فقالت لراهبةٍ كانت بجانبها: "ماذا يحدث لو قلت لكِ أن ترمي بنفسك فيه؟" فما أتمَّت كلامَها حتى كانت الراهبة في الماء، ولزم، بعد خروجها، أن تغيِّرَ مَلابسها. وكنّ مرَّة أخرى يعتبرفن، وأنا حاضرة، فاقتربت من الرئيسة تلك التي تنتظردورَها لتحادثها؛ فسألتها [الرئيسةُ] كيف تفعل ذلك، وهل إنّ هذه طريقةٌ للاختلاء؛ فمن الأفضل أن تدسّ رأسها في البئر وتتأمّل في خطاياها. أمّا الراهبة ففهمت أنّ الرئيسة تطلب منها

١ كانت القديسة تريزا رئيسة ذلك الدير، فأرادت، على عادتها، أن تدع الأمر مبهمًا.

أن ترمي بنفسها في البئر، فأسرعت مُعجّلة لتلقيَ بنفسها؛ ولو لم يسرعوا لمنعها، لفَعَلَتْ وهي تعتبرُ أنّها تقومُ بأكبرِ خدمةٍ لله. وحصلت أشياءُ أخرى مشابهة، وأفعالُ تقشّفٍ بالغٍ فلزم أن يوضِحَ لهنَّ بعضُ ذوي العلم الأمورَ التي يجب أن يطيعوا فيها، والضوابط لاعتمادها. والواقع، أنهنَّ كنَّ يفعلن أشياء قاسية جدًّا؛ ولولا نيّتهنَّ التي تنقذهنَّ، لكنَّ أهلاً للدينونة أكثر منهنَّ للكسب. ولا يحدث هذا في هذا الدير فقط — لكن خطر لي أن أذكره وأنا هنا –، بل يحدث في جميع الأديار أمورٌ كثيرة، فأتمنّى أن لا أكون طرفًا فيها، فأورد بعضَها، وذلك كي يُمَجَّد ربُّنا في خادماته.

موت راهبة

٤. حدث وأنا هنا [في طليطلة] أن مرضت إحدى الأخوات مرضَ الموت؛ وبعد أن قبلت الأسرار والمسحة الأخيرة، أظهرت من الفرح والسرور ما أمكن أن نسألها أن تتشفّع بنا في السماء لدى الله ولدى القديسين الذين نكرذمهم وكأنها ذاهبة إلى بلدٍ آخر. وقبْيل أن تلفظ نَفَسَها الأخير، جئتُ لأكون قربها بعد أن مكثْتُ أمام القربان أتوسَّل إلى الربّ أن يمنحها ميتة صالحة. وما ان دخلتُ حتى رأيتُ جلاله في وسط رأس سريرها. كان فاتحًا ذراعيه كأنّه يبسط عليها حمايتَه وقال لي **أن أكون على يقين من أنّ جميع الراهبات اللواتي يَمُتْنَ في هذه الأديار، سيَحميهنَّ كما يحميها؛ فما عليهنَّ أن يخشيَنَ التجاربَ عند ساعة الموت.** فامتلأتُ ارتياحًا وتقوى. وبُعَيْد لحظات حادثتُ الراهبةَ فقالت لي: "آه، يا أمّاه، ما أعظمَ الأشياء التي سأراها". وهكذا، فقد ماتت ميتةَ ملاك.

أمل وتحريض

٥. وقد لاحظتُ أن بعض اللواتي مُتْنَ مذ ذاك قضَيْنَ في سكنية وهدوء وكأنهنَّ أُخِذْنَ بانجذابٍ أو بتأمّلِ السكينة بدون أيِّ مظهر من تجربة ما. وإنّي لآمل أن يمنحنا الله هذه المنّة بجودته، وباستحقاقات إبنه وأمّه المجيدة التي نلبس ثوبها. ولهذا، فلنجدَّ، يا بناتي، في أن نكون كرمليّاتٍ حقيقيات لأنّ النهار يوشك أن يزول. ولو عرفنا شدّة الحزن الذي يشعر به كثيرون في ذلك الوقت، والحبائل والخدائع التي ينصبها لهم الشيطان، لقدّرنا هذه المنّة خير تقدير.

خبر أحد الأقرباء

٦. ويخطر ببالي الآن أمرٌ أريد أن أخبركنَّ به، لأنّي عرفت الشخص المعني، بل إنّه كان واحدًا من أقربائي. للقد كان يبالغ في اللهو، وحصّل بعضَ الدروس، ولهذا فقد أراد الشيطان أن يبدأ بمخادعته فيحمله على الاعتقاد أنَّ الندم عند ساعة الموت لا فائدة منه. ورسخت الفكرة في ذهنه فعجز الجميع عن إقناعه بالاعتراف، ولم تنفع أيَّةُ وسيلةٍ في ذلك مع أنَّ المسكين كان حزينًا جدًّا ونادمًا على حياته السيئة. بل كان يقول، لماذا عليه أن يعترف، فإنّه يرى نفسه هالكًا. وكان معرِّفه، وهو راهب دومنيكي عالم، يجادله فلا تُقنعه حججُه لأن الشيطان كان يعلّمه حِيَلاً عديدة. ومكث هكذا أيّامًا والمعرّف لا يدري ماذا يصنع، وانتهى إلى أن يوكِلَ هو وآخرون أمره إلى الربَّ، لأنه أشفق عليه.

قبوله بالاعتراف

٧. واشتدّ عليه المرض كثيرًا وكان يعاني ألمًا مبرّحًا في خاصرته، فعاد إليه المعرّف حاملاً حججًا جديدةً لإقناعه؛ ولو لم يشفق الربُّ عليه فيُليّن قلبَه، لكانت تلك الحجج زهيدةَ الجدوى. لكنّه ما إن بدأ يحادثه ويقدّم له البراهين، حتى استوى في الفراش وكأن لا مرض به وقال للمعرّف: "الخلاصة، تقول إنّ الإعتراف يفيدني؟ فأنا أريد أن أعترف". وطلب مسجّلاً أو كاتبًا عدلاً، لا أذكر بدقّة، واستحضر شهودًا، فأقسم قسمًا احتفاليًا بأن يُقلعَ عن اللهو فيما بعد وأن يصلح سيرته. واعترف اعترافًا صالحًا، واقتبل الأسرار بخشوع كبير، ما يجعلنا نعتقد، بحسب ما يعلّمنا إيمانُنا، أنّه نال الخلاص. إلا رضيَ ربُّنا، يا أخواتي، أن نسير في حياتنا كبناتٍ حقيقيات للعذراء، ونحافظ على نذورنا ليعطينا ربُّنا المنّة التي وعدنا بها. آمين.

الفصل السابع عشر

في تأسيس ديرَيْ پاسترانا للرهبان والراهبات، وذلك في النسة نفسها ١٥٦٩.

تعب وارتياح

١. بعد خمسة عشر يومًا من تأسيس دير طليطلة، عشية عيد العنصرة، اتممنا ترتيب الكنيسة، ووضع المصبَّغة وأشياء أخرى. لقد كان العمل كثيرًا وشاقًّا — فقد سكنَّا في هذا البيت سنة تقريبًا، كما قلت –، وتعبت من قضاء تلك الأيام مع العمال، لكن تمّ كل شيء. في ذلك الصباح، عندما جلسنا نتناول الطعام في المائدة، غمرني الارتياح إذ رأيت أن لم يبقَ عليَّ شيء أعمله، وأن باستطاعتي أن أستمتعَ بربّنا فترةً في تلك العنصرة حتى كذت لا أقدر أن آكل شيئًا لما شعرت به نفسي من نعيم.

دعوة أميرة إيبولي

٢. ما استحققت هذا الاتياح طويلاً؛ ففي هذه اللحظة، أُبلِغْتُ قدومَ خادمٍ من قِبَل أميرة إيبولي، زوجة روي غوميث دي سيلڤا[١]، فمضيت إليه، فعرفت انها أرسلت تستدعيني لأنّنا كنّا قد اتفقنا منذ زمن طويل على تأسيس دير في پاسترانا[٢]. أما أنا فما تصوّرت أن يحصلَ ذلك سريعًا، فشعرت بغمّ لأنّ الدير [في طليلطة] حديث الانشاء، وصادفنا معارضةً في تأسيسه، فتركهُ يشكِّل خطرًا كبيرًا؛ فصمَّمت حالاً على أن لا ألبِّيَ الدعوة. وأبلغت الخادم قراري. أمّا هو فأجابني أنّ الرفضَ مستحيل لأنّ الأميرة كانت هناك ولهذا الغرض فقط، فرفضي إهانةٌ لها. ورغفم ذلك فلم يخطرْ ببالي أن أذهب، وقلت للرسول أن يذهب فيتناول الطعام وأنا أكتب للأميرة فيعود إليها بالرسالة. والرسول رجلٌ شريقٌ جدًّا؛ فرغم انزعاجه من موقفي، اقتنع بعد سماعه الحجج التي أدليت بها.

استشارة الربّ

٣. كانت الراهبات اللواتي سيقمن في الدير قد وصلن منذ قليل، وما كنت أرى سبيلاً لأغادرهنَّ بهذه السرعة. فحضرت أمام القربان الأقدس لأطلبَ من الربِّ أن أكتبَ ما لا يثير سخطَ الأميرة؛ لأنّ سخطَها يؤذينا؛ فتأييد روي غوميث الكثير الاعتبار لدى الملك ولدى الجميع كان ضروريًا لأديرة الرهبان التي بدأنا بإنشائها ولكلِّ شيء[٣]. ولست أدري الآن إذا فكّرت في هذه الأمور آنذاك، لكنّني أعرف أنّني ما كنت أودّ أن أغيظها. وإذ كنت في هذه الحال، قيل لي من قِبل ربِّنا أن لا أتردّدذ في الذهاب لأن في ذهابي خيرًا يتجاوز هذا التأسيس، وأن أحملَ معي **القانون والرسوم**.

---

١ Ruy Gómez de SILVA, EBOLI.

٢ Pastrana.

٣ روي غوميث دي سيلڤا، نبيل برتغالي، كان مستشارًا للملك فيليب الثاني مقرَّبًا إليه، وزوجته آنا دي مندوثا اشتهرت بلقبها أمير أيبولي، امرأة كثيرة الطموح والنفوذ والمناورات، وحصل للقديسة تريزا معها خلافات في الرأي والمواقف.

استشارة المعرّف

٤. حين عرفت ذلك، فرغم قناعتي بأسباب وجيهة تُقْعدني عن الذهاب، ما تجرَّأت على أن أفعل إلاّ ما تعوَّدت فعله في حالات مشابهة، وهو أن أتقيّد بمشورة معرّفي. فاستدعيته من دون أن أُطلعه على ما فهمت في التأمّل – لأنّني بهذه الطريقة أكون راضية دائمًا –، بل توسّلتُ إلى الربّ أن يمدّه بنور يوافق ما يجب أن يعرفه؛ وجلاله، حين يريد أن يتحقَّقَ شيء، يلقيه في قلبه. هذا ما حصل لي غالبًا؛ وهذا ما حصل لي في هذه الحال. فبعد أن تفحّص الأمر من جميع نواحيه، رأى أنّ عليَّ أن أذهب، فصمّمت على الذهاب.

زيارة الفرنسيسيات

٥. غادرت طليطلة في اليوم التالي للعنصرة. كان علينا المرور بمدريد، فنزلت أنا ورفيقاتي في دير للراهبات الفرنسيسيات لدى سيّدةٍ أنشأته وكانت تقطنه، هي السيّدة ليونور ماسكارينياس[٤]، كانت مربية للملك، ومتعبّدة لربّنا عبادة حقّة. هناك نزلت في مناسباتٍ سابقة لدى مروري بمدريد ولقيت لديها ترحيبًا حارًّا.

خبر الناسك

٦. قالت لي هذه السيّدة إنّها سعيدةٌ بقدومي في هذا الوقت لأنّ هناك ناسكًا يتشوَّق إلى معرفتي، وترى أنّه يعيش هو ورفاقه حياةً تتَّفق كثيرًا وقانوننا. ولما لم يكن لديَّ سوى راهبين، فقد خطر ببالي أنّه إذا انضمّ هذا إليهما كان ذلك توفيقًا عظيمًا. فرجوتها أن تدبّر لقاءً لنا لنتباحث. كان يسكن في غرفةٍ قدَّمتها له هذه السيّدة مع أخ شاب يدعى يوحنا البائس[٥]، يعبد الله عبادةً حقَّة وبسيطةٌ جدًّا في أمور العالم. ففي أثناء محادثتنا، أبلغني أنّه يريد الذهاب إلى روما.

شخصية الأب ماريانو

٧. قبل أن أتابع كلامي، أودّ لو أقول ما أعرف عن هذا الأب ويدعى ماريانو دي سان بنيتو[٦]. إيطالي الجنسية، ملفان، شديد الذكاء والدهاء. حين كان مدبّرًا لقصر ملكة بولونيا[٧] ما شعر بميل إلى الزواج، وكان ينتمي إلى فرسان مار يوحنا[٨]، فدعاه ربُّنا ليتركَ كلَّ شيء ويلتمسَ خلاصه بخير طريقة. لقد عانى مِحَنًا شديدة، إذ اتُّهِمَ زورًا بأنّه تدخّل في مقتل رجل فقضى في السجن سنتين، ورفض تعيينَ محامٍ كما رفض مساعدةَ أحدٍ سوى الله وعدالته. حضر شاهدان يقولان إنّه استدعاهما ليقتلا ذلك الرجل، فكان من أمرهما ما كان من أمر شيخي

---

٤ Doña Leonor MASCAREÑAS.

٥ يوحنا البائس (Juán de la Miseria)، ايطالي الأصل، رسّام، وهو الذي صوّر القديسة في اشبيلية (١٥٧٦) بناء على طلب الأب غراثيان.

٦ Mariano de San Benito ماريانو للقديس مبارك، شخص مهمّ في تاريخ الإصلاح الكرملي الذي باشرته القديسة، وتلقى منها رسائل صارمة لم تنل من محبَّتها له.

٧ هي كاترين النمساوية زوجة سيجيسموند الثاني ملك بولونيا.

٨ أي منظّمة مار يوحنا الأورشليمي أو الهيكليين.

القديسة سوسنّة[٩]. فحين سئل كلٌّ منهما عن مكان وجوده في أثناء المحادثات قال الأول انه كان متكئًا على سريره، وقال الآخر انه كان متكئًا على النافذة. فانتهيا إلى الإقرار بأنّهما اتهماه زورًا. وأكّد، هو لي، أنّه صرف مبلغًا طائلاً من المال ليطلقَ شراحهما ولا يعاقَبَا؛ وإنه أتيح له أن يُقضيَ بمعلوماتٍ ضدَّ الذي كان يناصبه الحرب، ففعل ما فعل مع الشاهدين، فبذل ما استطاع بذلَه كي لا يؤذيَه.

تفتيشه عن رهبانية تلائمه

٨. هذه الفضائل وفضائل أخرى — فهو رجلٌ تقي، عفيف، بينه وبين معاشرة النساء عداوة — استحقّت له من الربّ أن يعرّفه ما هو العالم ليسعى إلى الابتعاد عنه، فبدًا يفكّر في أية رهبانية يدخل؛ وقال لي إنّه تفحّص واحدةً فواحدة فوجد في كلٍّ منها ما لا يناسبه. وعَلِمَ أنّ هناك نسّاكًا قرب اشبيلية في صحراء تدعى تاردون وعلى رأسهم شيخٌ وافر القداسة هو الأب متّى[١٠]. كلُّ ناسك منّهم يعيش في صومعته الخاصّة، لا يتلون صلاة الفرض معًا، بل يجتمعون في مصلّى لإقامة القداس. ليس لهم مدخول، ويرفضون الحسنات، فيعيشون من عمل أيديهم؛ كلُّ منهم يأكل منفردًا، ويعيشون في فقر تامّ. فعندما سمعته، حسبتني أرى صورة آبائنا القديسين. وظلَّ على هذه الحالة ثماني سنوات. فعندما أمر المجمع التريدنتيني المقدّس أن يدخل النسّاك في الرهبانيات القائمة[١١]، أراد، هو، أن يقصدَ روما ليطلب الإذن بالاستمرار في هذا النمط في الحياة. هذا ما كان في نيّته عمله عندما حادثته.

قراره بدخول الرهبانية

٩. فعندما وصف لي طريقة عيشه، أطلعته على قانوننا القديم وقلت له إنَّ باستطاعته أن يحافظ على كلٍّ ذلك من دون كبير مشقّة، لأنّ قانوننا يتّفق وذلك النمط، خصوصًا العيش من عمل اليدين الذي كان يتمسّك به كثيرًا؛ وقال لي إن العالم يعميه الجشع، بمن فيهم الرهبان فيحطّ من قدرهم. ولما كان هذا الرأي رأيي أيضًا، فقد انفقنا حالاً حول هذا الموضوع بل حول كل شيء؛ وبيّنت له عِظَمَ الخدمة التي يقدّمها لله إذا ليس هذا الثوب. أجابني انه سيفكّر في الأمر تلك الليلة بالذات. وقد رأيته حاسمًا أمره تقريبًا، ففهمت عندئذ أن هذا[١٢] هو ما أعطيت فهمَه في التأمّل من أن "الموضوع يتجاوز تأسيس دير للراهبات". فسررت أيَّ سرور لأنّه بدا لي أنَّ دخوله رهبانيتنا سيؤدّي للربِّ خدمةً جليلة. وجلالُه الذي كان يريد ذلك، حرّكه تلك الليلة تحريكًا دفعه في صباح اليوم التالي إلى استدعائي ليقول لي إنّه مصمِّمٌ تمامًا، بل إنّه مذهولٌ لتغييره رأيه بهذه السرعة خصوصًا بتأثير امرأة. وهو إلى الآن ما زال يردّد عليَّ ذلك، كما لو كان هذا هو السبب وليس الربّ الذي يستطيع تغيير القلوب.

---

٩ سفر دانيال، ١٣، وسوسنة مثال المتّهم البريء.

١٠ هو الأب متّى دي لا فرينتي Mateo de la Fuente الذي جدّد رهبانية الباسيليين فيما بعد في اسبانيا.

١١ المجمع التريدنتيني من أهم المجامع المسكونية. انعقد في عدّة مراحل ووضع قواعد الاصلاح الكاثوليكي وقوانينه التي شملت حياة الكنيسة كلّها. أما تحويل النسّاك إلى الرهبانيات، كما تذكر القديسة، فلعله إشارة إلى مرسوم البابا بولس الخامس Lubricum genus، بتاريخ ١٥٦٨/١١/١٧، وليس إلى قوانين المجمع التريدنتيني؛ وأمهل البابا النسّاك سنة لتطبيق هذا المرسوم الذي يتناول مَنْ يعيشون حياة النسك من دون نذور احتفالية (م).

١٢ أي هذا اللقاء وما سينجم عنه. راجع عدد ٣ من هذا الفصل (م).

إسهامه في عمل الإصلاح

١٠. ان أحكامه لساميّة. فبعد أن قضى [الأب ماريانو] سنوات عديدة لا يدري أيَّ حالةٍ [رهبانية] يقرّر اعمادها – فحياته آنذاك لم تكن حالة ترضيه لأنّ النسّاك لم يكونوا ملتزمين بنذور ولا بما يفرض عليهم التزامات، بل كانوا يكتفون بالاعتكاف –، حرّكه الله بسرعة كبيرة وأفهمه عِظَمَ الخدمة التي سيؤدّيها له في هذه الحالة، وأن جلاله يحتاج إليه ليدفع قُدُمًا العمل الذي شُرِعَ فيه. لقد ساعد فيه مساعدةً فعّالة وما زال يتحمَّل مشقاتٍ عظيمةً، وسيكلّفه مزيدًا من المشقَّات إلى أن يتثبّت – كما يُستَدَلّ من المناهضات التي تَلْقاها رهبانيةُ القانون الأول –؛ فهو ببراعته، وذكائه، وسيرته الحسنة يجتذب الكثيرين ممّن يساعدوننا ويحمونا.

إنشاء دير في باسترانا

١١. لقد قال لي إنَّ روي غوميث كان قد أعطاه في پاسترانا، وهو المكان الذي كنت أقصده، صومعةً حسنة وأرضاً ليقيم عليها مناسك؛ فهو يريد أن يخصِّصها برهبانيتنا ويلبسَ ثوبها. فشكرته وحمدت ربَّنا جزيل الحمد، لأن الأب العام الجزيل الاحترام كان قد أرسل إليَّ تفويضًا لإنشاء ديرين، وما أُنشئَ إلاّ دير واحد[١٣]. ومن هناك [مدريد] بعثت برسول إلى الأبوين المذكورين، أي الرئيسين الاقليميين الحالي والسابق، سائلةً بإلحاح أن يأذنا لي [بإنشاء دير] لأن الأمرَ مستحيل من دون موافقتهما. وكتبت إلى أسقف آڤيلا، دون ألڤارو دي مندوثا، الذي كان يساعدنا كثيرًا، أسأله أن ينال لي مهما الإذن.

إعداد المنزل

١٢. ورضي الله فرافقنا. فقد ظنّا أن ديرًا في مكانٍ منعزل كذاك المكان لي يُسيءَ إليهما. ووعدني [الأب ماريانو] أن يذهب إلى هنالك حالما يصل إليَّ الإذن، فمضيت [إلى پاسترانا]مسرورةً ايّما سرور. وجدت هنالك الأميرة والأمير روي غوميث اللذين رحّبا بي ترحيبًا بالغًا. وعيّنا لي جناحًا مستقلاً أقمنا فيه أطول ممّا كنت أتوقّع. كان البيت صغيرًا جدًّا، فأمرت الأميرة بهدم قسم كبير منه وإعادة بنائه ما خلا الجدران.

مشقات في تأسيس الدير

١٣. مكثت هناك ثلاثة أشهر تقريبًا حصلت لي في اثنائِها مشقّاتٌ عديدةٌ لأنّ الأميرة طلبت أمورًا لا تتّفق ونظامَ رهبانيتنا، وعليه، عزمت على العودة من عندها بدون أن أنشئ الدير بدل من أن أوافق على طلباتها. أمّا الأمير روي غوميث، وهو رجل كيّسٌ جدًّا، فعندما اطّلع على الوضع، حمل امرأته على الاعتدال. وإنّما كنت أحتمل بعضَ الأمور لأنّ رغبتي في إنشاء دير للرهبان كانت أشدّ منها في تأسيس دير للراهبات، لإدراكي الأهمية العظمى لذلك، كما تبيّن فيما بعد.

تأسيس ثاني دير للآباء

١٣ هو دير دورويلو الذي نُقِلَ إلى مانثيرا عندما كانت القديسة تدوّن هذا الخبر.

١٤. في هذه الأثناء، جاء ماريانو ورفيقه، الناسكان المذكوران، ووصل الأذن فوافق ذانك السيّدان[١٤] على أن تكون تلك الصومعة صومعةً للكرمليين الحفاة. فاستدعيت الأب أنطونيو ليسوع من مانثيرا، وكان أولَ الناذرين، ليبدأ بتأسيس الدير. وقد أعدت لهما الأثواب والأردية، وعملت كلَّ ما وسعني أن أعمله كي يلبسا ثوبَ رهبانيتنا.

نمو الإصلاح

١٥. وبعثت في الوقت نفسه أستدعي بعض الراهبات من دير مدينا دِل كامپو، إذ لم أصطحب سوى راهبتين. وكان هناك أبٌ ليس شابًّا ولا طاعنًا في السنّ، واعظٌ شهير يدعى بلطاسار ليسوع[١٥]. عندما درى بإنشاء ذلك الدير، جاء مع الراهبات وفي نيّته أن يلتحق بالحفاة. وهذا ما فعله لدى وصوله. وعندما أبلغني عزمَه حمدتُ الله. وهو ألبس الأب ماريانو ورفيقه الثوب الرهباني الخاص بالأخوة المساعدين[١٦]، لأن الأب ماريانو أيضًا لم يرد أن يصير كاهنًا، بل أن يكون أصغر الجميع، ولم أستطع إقناعه بعكس ما أراد. إلاّ انه فيما بعد، وبأمرٍ من أبينا العام الجزيل الاحترام، سم كاهنًا. وبعد تأسيس الديرين ومجيء الأب أنطونيو ليسوع، أقبل على دخولهما مبتدئون سيجري الحديث عن بعضهم فيما بعد، وأخذوا كلّهم يخدمون ربّنا خدمة صادقة كما سيَكتب في ذلك — إن شاء الربّ — من يُحسن الكتابة فيه خيرصا منّي، لأنّني في هذا المجال سأكون بالتأكيد مقصّرة.

تبدّل هوى الأميرة

١٦. أمّا الراهبات، فقد كان ديرهنَّ هنالك موضوعَ تقدير لدى هذين السيّدين، وموضوع رعاية خاصّة من الأميرة التي ساعتدتهنَّ وعاملتهنَّ معاملةً حسنة إلى أن مات الأمير روي غوميث؛ فإنّ الشيطان، بل لعلّ الربَّ سمح له — وجلاله يعرف لماذا _ فأثار جماح هوى الأميرة بعد موت زوجها، فدخلت الدير وترهّبت. لكنّ حزنها حال دون تذوّقًا حسنًا حياة الاعتكاف التي ما كانت متعوّدةً عليها، وما كان باستطاعة الرئيسة، استنادًا إلى المجمع المقدّس، أن تمنحها الحريات التي تطلبها.

الراهبات يهجرن دير باسترانا

١٧. فنفرت من الرئيسة ومن الراهبات جميعًا نفورًا بحيث إنّها، بعد أن خلعت الثوب، وعادت إلى منزلها، كانت تغتاظ منهنَّ، وكانت الراهبات المسكينات يعشنَ في قلقٍ شديد، فالتمستُ من الرؤساء، بما استطعت من وسائل، متوسّلة إليهم أن ينقلوا الدير من هنالك، فأُنشئَ ديرٌ آخر في سيغوفيا، كما سيُرى فيما بعد، انتقلنَ إليه [راهبات پاسترانا] وخلَّفنَ كلَّ ما كانت الأميرة قد وهبتهنّ، واصطحبن معهنّ بعض الراهبات ممّن كانت [الأميرة] قد فرضت قبولهنّ من دون صَداق[١٧]. وحملت الراهبات معهنَّ ما جلبن من حسابهنّ من فُرُش وحوائج صغيرة، وتركنَ سكانَ المكان في أسفٍ شديد. أمّا أنا، فما كانت تسعُني الدنيا سرورًا لدى رؤيتي إيّاهنَّ

---

١٤ الأمير غوميث وزوجته (م).

١٥ Baltasar de JESÚS (١٥٢٤ – ١٥٨٩)، كان أول رئيس باسترانا.

١٦ الأخ المساعد في الرهبانية هو الذي يلتزم بالنذور، ولا يترشح للكهنوت، بل يخصّص حياته للخدمة (م).

١٧ الصَداق مهر المرأة.

مطمئنّات، لأنّي كنت أعلم تمام العلم أن الذَّنْبَ في نفور الأميرة ليس ذَنْبَهنَّ؛ بل إنهنّ كنَّ يخدُمنها، وهي لابسةٌ الثوب الرهباني، خِدمتَهنَّ إيّاها قبل أن تلبسه. وإنّما الذّنب كلّ الذّنب في هذه المسألة يعود إلى الظروف، وإلى الحزن الذي لازم هذه السيّدة، وإلى خادمةٍ استصحبتها. والخلاصة، إنَّ الربّ قد سمح بحصول ما حصل. لقد رأى، ولا شك، أن الدير هنالك غير مناسب، فإن أحكامه عظيمة وتخالف مفاهيمنا. وأمّا أنا، فلا أجسر على الاتكال على حكمي فقط، بل أخضع لرأي ذوي العلم والقداسة.

الفصل الثامن عشر

في تأسيس دير القديس يوسف في سلمنكا سنة ١٥٧٠. بعض تنبيهات مهمّة للرئيسات.

دعوة إلى تأسيس في سلمنكا

١. بعد الانتهاء من تأسيس هذه الديرين، عدت إلى مدينة طليطلة حيث مكثت عدّة أشهر إلى أن تمَّ شراءُ البيت الذي أشرتُ إليه ووَضع كلُّ شيء في موضعه. وفيما أنا منشغلة بهذا، كتب إليَّ رئيسُ اليسوعيين في سلمنكا يزيّن لي إقامةَ ديرٍ هناك، ويدعمُ رأيه بحُجَجٍ، ذلك أنّي كنت امتنعتُ عن إنشاء دير لا مدخول مضمونًاله، لأنّ هذه المدينة فقيرة. غي أنّي نظرت فرأيت أنَّ آڤيلا توازيها فقرًا، وأنَّ الله ما أهمل قط من يخدمه، ولا أظنّه يُهمله إذا ما دبّرت الأمور بتعقّل كما تُدَبِّر، وأنَّ الراهبات قليلات ويعشن من عمل أيديهنَّ، فعزمتُ على قبول العرض. فمضيت من طليطلة إلى آڤيلا، وهناك اجتهدت في الحصول على إذن الأسقف[١]. ولما قدّم له رئيس اليسوعيين تقريرًا عن رهبانيتنا وأنَّ التأسيسَ يؤول إلى خدمة الله، أعطانا الإجازة سريعًا.

تسهيلات وعراقيل

٢. كنت إخال أنَّ حصولي على إجازة الرئيس المحلّي يعني أنَّ الدير قد تمّ انشاؤه، ذلك أن كل شيء كان يتمّ بسهولة. فسعيتُ حالاً إلى استئجار بيت دلّتني عليه سيِّدةٌ كنتُ أعرفها[٢]؛ لكنَّ الأمر بدا صعبًا لأن الفترة ليست موسمَ تأجير، والبيت يشغله طلاّب. على أنّه تمّ الاتفاق معهم كي يخلوه حين يحضر المستأجر الجديد. وكانوا يجهلون الغايةَ من تأجيره، فقد كنت حريصة جدًّا على أن لا يُعْرَفَ إلاّ بعد أن يتمَّ استلامه؛ فأنا أعرف بالاختبار ما يصنعه الشيطان ليعرقلَ إنشاءَ ديرٍ من هذه الأديار. ورغم أنَّ الله في هذه الحالة لم يسمح له بأن يقيم العراقيل في البدء، لأنّه أراد أن يُؤَسَّسَ هذا الدير، فإنّ المحنَ والمضايقاتِ التي نشأت فيما بعد كانت من الكثرة بحيث إنَّ تمهيدَها لم يتمّ إلى الآن. وأنا أكتب هذه السطور، رغم أنَّ بضعَ سنواتٍ قد مضت على تأسيسه. ولذلك اعتقد أنّ الله يُخدَم فيه خدمة صادقة لأنّ الشيطان لا يطيق ذلك.

انتقالها بتحفّظ

٣. بعد الحصول على الإجازة، إذًا، وبعد تأكّدي من الحصول على البيت، وبناءً على ثقتي برحمة الله، لأنّه لم يكن هنالك من يستطيع مساعدتي بشيء في الكثير ممّا أحتاج إليه لترتيب البيت، مضيت إلى سلمنكا مصطحبةً معي رفيقةً واحدةً مبالغة في التحفّظ؛ ووجدتُ هذه الطريقة خيرًا من استقدام عدّة راهبات قبل استلام البيت؛ فقد أخذت عبرةً ممّا حصل لي في مدينا دِل كامپو حيث وجدت ذاتي في ضيق؛ فإذا كان هناك من عائق،

---

١ كان اسمه دون پدرو غونثالث دي مندوثا Don Pedro González de MENDOZA.

٢ من المرجّح أن تكون السيّدة دوينا بياتريث دي أوفاليي Doña Beatriz Yáñez de OVALLE، وهي قرية إلى القديسة.

احتملُ المشقّة وحدي وإلى جانبي رفيقةٌ لا مفرَّ من وجودها. وصلنا عشية عيد جميع القديسين بعد أن قطعنا الليلة الفائتة مسافةً طويلةً في بردٍ قارس، ونمنا في قريبة، وكنت، أنا، مريضةً جدًّا[٣].

وصف مشقاتها المختلفة

٤. لا أروي في هذه التأسيسات المشقّات الكبيرة في الأسفار، في البرد القارس، والشّمس الحارقة، والثلوج، وفي هطول الثلج النهار كلَّه أحيانًا من دون انقطاع، وضلال الطريق أحيانًا أخرى، وإصابتي بأوجاعٍ مريرة أحيانًا أخرى، واشتداد الحمّى عليَّ؛ لأنني، تمجَّد الله، رغم صحّتي الضعيفة، كنت أرى واضحًا أنَّ ربّنا يمنحني قوّة. لقد كان يحدث لي أحيانًا، وأنا أعالجُ أَمرَ تأسيسِ دير ما، أن أعاني أمراضًا وأوجاعًا تسبِّب لي ضيقًا خانقًا فإخالني لا أستطيع البقاء في صومعتي إلاّ طريحةَ الفراش، فأوجّه نظري ناحيةَ ربّنا متأَلمة أمام جلاله، كيف يريدني أن أفعل ما لا أستطيع فعله. وكان جلاله بعد ذلك يعطيني قوَّةً رغم محنتي؛ وبفضل الحميّة التي يبثّها فيَّ وعنايتِه بي أعتقد أنّني كنت أنسى ذاتي.

تعزيات عديدة

٥. وأذكر الآن، إذا لم تَخُنّي الذاكرة، أنّني ما تراجعتُ قطّ عن تأسيس دير خوفصا من المشقَّات، ولو اني كنت أعاني صعوباتٍ كثيرة، في الأسفار الطويلة خصوصًا؛ غير أني ما إن انطلق في الدروب، حتى كانت تبدو لي سهلةً إذ أفَكّر في من أقوم بخدمته، وأعتبر أنَّ الربّ سيُسبَّح في ذلك البيت، وان القربان الأقدس سيكون موجودًا فيه. وإنّها لتعزيةٌ خاصّة لي أن أرى كنيسة جديدة عندما أذكر ان اللوتيريين يزيلون كنائسَ عديدة. لا أدري أيَّ مِحَنٍ، مهما كانت شاقّة، يمكن أن نخشاها بدلاً من هذا الخير العظيم الذي يعود على المسيحية. إن وجود يسوع المسيح، الإله الحقّ والإنسان الحقّ، كما هو في القربان الأقدس، في أماكن عديدة، يجب أن يكون لنا تعزية عظمى رغم أن كثيرين منّا لا ينتبهون إلى ذلك. والحقيقة، أنّي غالبًا ما أشعر بهذا الشعور في الخورس عندما أرى هذه النفوس الشديدة النقاء تسبّح الله، وهو أمر يُلحَظُ في أمور كثيرة، كما في طاعتهنَّ، وفي رؤية سرورهنَّ في الخلوة التامّة وفي العزلة، وفي فرحهنَّ حين يَقُمْنَ ببعض التقشّفات. وإنّي أرى السرور أعظم في الأديار التي يَمنح الربّ فيها الر ئيسة النعمةَ لتدرِّبَهنّ على هذه الأعمال؛ وهكذا فإن الرئيسات يتعبنَ في ترويضهنَّ قبل أن يتعبنَ، هنَّ، من تنفيذ الطاعة؛ وفي تنفيذ الطاعة لا حدود لأشواقهنَّ.

نضائح للرئيسات

٦. ولئن خرجتُ على الحديث عن التأسيس الذي شرعت أتكلّم عليه، تخطر في بالي هنا بعض أشياء حول التقشُّف، قد تفيد الرئيسات، يا بناتي؛ وكي لا أنساها، فإنّي أذكرها الآن. تتوافر لدى الرئيسات طاقات وفضائل مختلفة، فتراهنَّ يرغبن في توجيه راهباتهنَّ في طريقهنَّ الخاص. فمن كانت منهنَّ كثيرةَ التقشّف، ترى سهلاً أيَّ شيء تأمر به الأخريات لإخضاع الإرادة، كما هو سهلٌ عليها؛ بل قد لا ترضى هي به إلاّ على مضض. ما علينا أن ننتبه إليه كثيرًا هو أن نمتنعَ عن أن نأمر بشيء قد يكون ثقيلاً علينا. ان الفطنة صفةٌ مهمّة للتدبير، وهي

٣ كان ذلك في ٢١ تشرين الأول / اكتوبر ١٥٧٠.

ضرورية تمامًا في اديارنا هذه؛ بل أكاد أقول "أكثر ضرورة بكثير منها في أديار أخرى"، لأن ما يتعلّق بحياة المرؤوسات الباطنيّة والخارجية يؤخذ بالاعتبار أكثر منه في أمكنة أخرى.

أولية القانون والرسوم

وهناك رئيسات ذوات حياة روحية راسخة، فيطيب لهنّ أن يوجّهْنَ كلَّ نشاط إلى الصلاة. الخلاصة، ان الربّ يقودنا في دروب مختلفة. لكن على الرئيسات أن يعرفن أن اختيارَهُنَّ كرئيسات ليس ليَخْتَزْنَ الطريقالذي يُلائم ذوقَهُنَّ، بل ليوجّهْنَ المرؤوسات في طريق القانون والرسوم، ولو كان عليهنذَ أن يجهدن، وعلى حساب رغبتهنّ، في عمل شيء آخر.

خبر رئيسة من دون فطنة

٧. كنت ذات مرّة في أحد أديارنا تحبُّ رئيستُه التقشّف، فكانت توجّه الراهبات إلى التأمّل والصلاة وأمورٍ مماثلة. هذا ما يحدث لهنّ إذا كانت الرئيسة تستغرق في التأمّل، فتحملهنّ جميعًا على سلوك هذا الطريق، وكان يحدث ان تجلد جماعة الدير أنفسهنَّ في الوقت نفسه خلال سبعة مزامير التوبة، إضافة إلى تلاوة صلوات وأمور أخرى مماثلة. ويحدث أن تستغرقَ الرئيسةُ في التأمّل، ولو لم يكن الوقتُ مخصَّصًا للتأمّل، كما هو الأمر بعد صلاة الصبح، فتجمِّد معها جماعة الدير كلَّها، في حين ان الأفضل أن يذهبن إلى النوم. ولأنها كانت تحبّ التقشّف، كما قلت، فكلّ شيء يجب أن يغليَ غليانًا، وعلى نعاج العذراء أولئك أن يلزَمْنَ السكوت كحملان صغار.

اعتدال في التقشّف

أمّا أنا، فهذا التصرّف يثير فيَّ تقوىً وحَيْرَةً كبيرتين، لكنه في الوقت نفسه باعثٌ على التجربة. فالأخوات اللواتي يسلكن مستغرقاتٍ في الله، لا يدركن ما يحصل، لكنني أخشى على صحتهنَّ، وأودّ لو يحافظن على القانون، وهو أمر يتطلَّب جهدًا، وما عدا ذلك فليفعلنه بلطافة. والتقشّف، بنوع خاص، ذو أهمية كبيرة جدًّا، وعلى الر ئيسات أن يدركن أن الاعتدال في هذه الأمور ومعرفةَ طاقات كلِّ واحدة من الأهمية بمكان. فإذا لم يلزَمْنَ الحذر في هذا المجال، فبدلاص من أن ينفَعْنَهنّ يسبِّبْنَ لهنَّ أذىً كبيرًا ويجلبْنَ لهن الاضطراب.

التقشّف ليس إلزاميًّا

٨. فليعتبرْنَ أن التقشفَ ليس إلزاميًّا. هذا أوَّل ما يجب أن يضَعْنَه في حسابهنَّ. فلئن كان التقشُّفُ ضروريًا جدًّا كيي تكسبَ النفسُ حريّةً وكمالاً رفيعًا، فلا يتمّ تعوّدُه في وقت قصير، بل فليساعِدْنَ كلَّ واحدة شيئًا فشيئًا بحسب طاقة الفهم التي أعطاها إيّاها الله، وبحسب استعداد روحها. قد يبدو للرئيسات أن الفهمَ لا لزوم له للتقشّف؛ فهنّ على خطأ. ويصدف أن بعض اللواتي يجدن صعوبةً في أول الأمر في فهم الكمال، بل وفي فهم روح قانوننا، قد يصرن أكثرهنَّ قداسةً فيما بعد، لكنّهنَّ قد لا يعرفْنَ متى يحسن أن يعتذرن أو لا يعتذرنَ، كما لا يعرفن تفاصيلَ أخرى صغيرةً لو فهِمْنَها لفعَلْنَها بسهولة؛ لكنهنَّ لم يبلغنَ فهمَها، ولا تبدو لهنَّ مرتبطة بالكمال، وهذا أسوأ ما في الأمر.

خبر راهبة ينقصها الفهم

٩. في أحد هذه الأديار راهبةٌ من أكثر الراهبات تعبّدًا لله، بحسب ما أعرف؛ أنعَمَ جلاله عليها بمواهب روحيّة، ومننٍ، وروح توبةٍ وتواضعٍ، لكنها لم تبلغ بعدُ أن تفهم بعض أمور في **الرسوم**. فكَشْفُ أخطاءِ الآخرين في الاجتماع تراه مخالفًا للمحبة، وتتعجب من أن تواخَذَ الأخواتُ في شيء علنًا، وأمورٍ أخرى مماثلة. ويمكنني أن أذكرَ بعض أخطاء عددٍ من الأخوات يخدمْنَ الله خدمة حقّة، وأَراهنّ في مجالاتٍ أخرى، متفوّقاتٍ على اللواتي يفهمنَ كلَّ شيء. ولا تظنّ الرئيسة أنّها عرفت النفوسَ حالاً. فلندع هذا لله، لأنّه وحده يستطيع أن ينفذ إليها، ولتجهد في أن توجّه كلَّ واحدة فلندع هذا لله، لأنّه وحده يستطيع أن ينفذ إليها، ولتجهد في أن توجّه كلَّ واحدة إلى حيث يقودها جلاله، شرط أن لا تخالفَ جوهرَ **القانون والرسوم**. ان تلك العذراء التي احتجبت عن الأحد عشر الف عذراء أخرى لم تكن دونهنّ قداسة وشهادة، بل لعلّها قاست أكثر منهنّ حين جاءَت من بعد، وحدها، تقدّم نفسَها للشهادة[٤].

لا يُبلَغ الكمال بقوّة الذراع

١٠. وأعود إلى الكلام على التقشّف: تأمر الرئيسة راهبةً بفعل إماتة بسيط في ذاته، لكنّه بنظرها اختبارٌ خطير، فتنفّذه، لكنّها تبقى قلقةً جدّصا تراودها التجربة قويّة بأنّه كان خيرًا لو لم تُؤمَر به. ويُعرَفُ ذلك حالاً. فلتُعْنَ الرئيسة بأن لا تدفعَ المرؤوسة إلى الكمال بقوّة الذراعين، بل فلتلتمس ذلك بالدهاء شيئًا فشيئًا إلى أن يعملَه فيها الربّ. فبدون هذا الكمال، يمكن أن تكونَ راهبةٌ صالحة جدًّا، وما يُفْعَل من أجل تقدّمها يجب أن لا يكون علّةً تُقلقُها وتُحزن روحَها؛ فإن هذا لأمرٌ مخيفٌ جدًّا. أمّا هي، فعندما ترى الأخريات فإنّها تسعى إلى الإقتداء بهنّ شيئًا فشيئًا، كما رأينا؛ وعندما لا تراهنّ، فإنّها تخلص من دون هذه الفضيلة. أعرف واحدةً مارست تقشُّفًا قاسيًا حياتها كلّها، وهي منذ سنوات عديدة تخدم ربَّنا بطرائق متنوّعة، وغالبًا ما تعجز عن التغلّب على بعض النقائص والمشاعر؛ وهي تعرف ذلك وتأتي فتكشف ي غمَّها. وفي اعتقادي أن الله يدعها تسقط في هذه الهفوات من دون خطيئة — وليست تلك الأمور خطيئة — لتتواضع وترى انّها ما زالت بعيدةً عن الكمال.

الإماتات على قدر الطاعة

وهكذا فإنذَ البعض يحتملن إماتاتٍ كبيرة؛ فإذا أُمِرْنَ بتقشّفات أقسى كنَّ أَشدَّ سرورًا، لأنّ الربّ أعطاهنَّ قوّةً كافيةً ليسلّمنَ إليه إرادتهن. والبعض لا يطقن الإماتاتِ ولو خفيفة، فمثلهنّ مثل طفل يُحمَّل قنطارين من القمح، فليس فقط لا يستطيع حملهما، بل إنّه ينهار تحتهما ويسقط أرضًا. فيا بناتي — وأخاطب الرئيسات – ، أعذرْنَني إذا أطلتُ الكلام على هذا الموضوع، لأنّ ما لاحظته لدى البعض يحملني على ذلك.

الفطنة في ممارسة الطاعة

١١. وأَلفُتُكُنَّ إلى أمر آخر مهمّ جدًّا وهو أن لا تأمرن بفعلِ شيءٍ، ولو كان لاختبار الطاعة، يمكن أن يكون خطيئةً ولو عرضيةً؛ فقد عرفتُ أنَّ البعضَ كنَّ ارتكبنّ خطيئةً مميتة لو أُطِعنَ. فهؤلاء يمكن أن تخلّصهنَّ

---

٤ إشارة إلى أسطورة القديسة كوردولا Cordula، واحدة من أحد عشر الف عذراء شهيدة، احتجبت أولاً واختبأت، ثم قدّمت ذاتها، منفردةً، بشجاعةٍ للشهادة.

براءَتهنَّ، أما الرئيسة فلا، لكونها تعرف أنّها ما إن تقول شيئًا حتى ينفّذنه حالاً. فما يَسمَعْنَه ويطالِعنَه عمّا كان يفعله قدّيسو الصحراء يَحمِلُهنَّ على اعتبار كلِّ ما يؤمَرْن به صالحًا، أو على الأقل صالحًا أن يفعلنه. ولتعلم المرؤوسات أيضًا أن ما قد يكون خطيئةً مميتةً إذا فعَلْنَه من ذاتهنَّ، لا يجوز لهنَّ فعله إذا أُمِرْنَ به، إلاّ أن يكونَ عدمَ حضور القداس أو فسخَ الصوم الذي تفرضه الكنيسة، أو ما يشبه ذلك؛ فقد يكون لدى الرئيسة أسبابٌ [تبرّر ذلك]. لكن أن تُلقي الواحدة بنفسها في البئر وأمورٌ من هذا القبيل فتصرّفٌ سيّء؛ فيجب أن لا يَخْطُرَ ببال واحدة أنَّ الله سيصنع أعجوبةً من أجلها كما صنعها مع القديسين. إنّ هناك أشياءَ عديدةً يمكن أن تُمارَ سَ فيها الطاعةُ الكاملة.

خبر طاعة حمقاء

١٢. إنّي أُثني على كلِّ ما لا ينطوي على هذه الأخطار. فذات مرَّة سألَتْ إحدى الأخوات في مالاغون الرئيسةَ أن تأذن لها بجلد ذاتها، فأجابتها الرئيسة — ومن المؤكَّد أنَّ الأخت كانت قد سألتها مراراً –: "دعيني". وعندما لجّت في طلبها، قالت لها: "إذهبي فتنزّهي. دعيني". أمّا الراهبة، فمضت تتنزّه طوال ساعاتٍ بكلِّ بساطة، إلى أن سألتها إحدى الأخوات لماذا تتنزّه طوال هذا الوقت، فأجابتها ان الرئيسة أَمَرَتها بذلك. وفي هذه الأثناء فُرِعَ الناقوسُ لصلاة الليل، فلما سألتها الرئيسة لماذا لا تمضي إلى الصلاة، أخبرتها تلك بما يجري.

تحذير الرئيسات

١٣. وعليه، فمن الواجب، كما قلت ذات مرّة، أن تكون الرئيسات يَقِظاتٍ في تصرّفهن مع نفوسٍ على أتمّ الاستعداد للطاعة. فإنّ رئيسةَ جاءَتها راهبةٌ بدودةٍ كبيرةٍ وهي تقول لها أن تنظر ما أجمَلها، فقالت الرئيسة ساخرةً: "كُلِيها، إذًا". فمضت وراحت تقليها جيّدًا. فسألتها الطبّاخة لماذا تقليها. فأجابتها بأنّها ستأكلها. وهذا ما كانت تريد فعله، والرئيسة تائهةٌ عن الواقع فيما كانت تلك عرضةً لأذىً خطير. إنّي لأبتهجُ كثيرًا بأن يُطِعْنَ أتمَّ الطاعة؛ لأنّي أقدّر هذه الفضيلةَ تقديرًا خاصًّا؛ وعليه فقد بذلك وسعي لأرسّخها فيهنَّ. وكان جهدي ذهبَ سدىً لولا ان الربّ لم يعطهنَّ، بواسع رحمته، نعمةً يميل إليها الجميع بوجهٍ عامّ. إلا رضيَ جلاله بأن يَسِرْنَ قُدُمًا في هذا السبيل، آمين.

الفصل التاسع عشر

تتمّة تأسيس دير القديس يوسف من مدينة سلمنكا.

سؤال ذوي العلم

١. لقد استطردتُ كثيرًا. فعندما يَخطر لي أمرٌ أرادني الربّ أن أعرفه بالاختبار، يصعب عليَّ أن لا أنبّه إليه. فقد يكون ما أفكّر فيه صالحًا. فيا بناتي، استطلعن دائمًا ذوي العلم، فلديهم تجِدْنَ الطريق إلى الكمال في الفطنة والحقيقة. وما تحتاج إليه الرئيسات أشدّ الحاجّة، إذا أردنَ أن يعمنَ بواجبهنَّ قيامًا حسنًا، هو أن يسترشدن ذا علم، وإلاَّ سقَطْنَ في كثير من الأخطاء ظنًّا منهنّ أنَّ تصرّفهنَّ قداسة؛ بل فليسعَيْنَ أيضًا لأن يكون معرّفو راهباتهنّ من ذوي العلم.

استلام المنزل

٢. عشية عيد جميع القديسين في السنة المذكورة[١]، وصلنا عند منتصف النهار إلى سلمنكا. فاستخبرت في المنزل عن رجل في المدينة اسمه نقولا غوتييريث[٢]، رجل يعبد الله عبادةً حقَّة، كنت قد كلّفته أن يسعى ليكون البيت خاليًا. وقد نال من خلاله، بفضل حياته الصالحة، صلامًا وسرورًا كبيرين في المحن؛ فقد آلت حاله إلى فقرٍ شديد بعد ازدهار كبير، فاحتمل ذلك بفرح كفَرَحه في حال الغنى. وقد عمل جاهدًا في تأسيس هذا الدير بتقوى شديدة وعزم ثابت. فلمّا قدم، قال لي إنّ البيت ليس خاليًا، وإنّه لم يستطع إقناع الطلاّب بإخلائه. أجبته أنّ ما يهمّنا هو أن يسلّمونا إيّاه قبل أن ينتشر خبرُ وجودي في المدينة؛ لأني كنت أخشى دائمًا أن يُثارَ عائقٌ ما، كما ذكرت. فقصد صاحبَ البيت وبذل جهدًا أيَّ جهد، فأخلى الطلاب البيت بعد ظهر ذلك اليوم، فدخلناه عند هبوط الليل.

الليلة الأولى

٣. كان ذلك أولَ بيتٍ أُنشئه من دون أن أصمدَ فيه القربان الأقدس، لأني كنت أعتقد أنذَ التملّك لا يكون صحيحًا إن لم يُصمَد القربان. لكنّي كنت قد فهمتُ أن ذلك ليس ضروريًا، فارتحت تمامًا لأنّ الطلاب قد تركوه مُهْمَلاً. ولأنّهم لا يهتّمون بصيانة البيت، فقد كان في حال سوء، فقضينا معظم الليل في ترتيبه. وأقيمَ القداسُ في صباح اليوم التالي، واستدعيتُ الراهبات اللواتي كان يجب أن يأتين من مدينا دِل كامپو. قضينا ليلة

---

١ ٣١ تشرين الأول / اكتوبر ١٥٧١.

٢ Nicolás GUTIÉRREZ كان لهذا الرجل ست بنات كرمليات في دير التجسّد في آڤيلا، وقد ألتحقن جميعهنّ بالاصلاح الذي قامت به القديسة تريزا.

عيد جميع القديسين وحدَنا، أنا ورفيقتي. وأصارحكنَّ، يا أخواتي، أني عندما أذكر الخوفَ الذي استولى على رفيقتي، ماريا للقربان، وهي راهبةٌ أكبر منّي سنًّا وعابدةُ الله حقًّا، تنتابني رغبةٌ في الضحك.

إحسان راهبات الجوار

٤. البيت واسع جدًّا، خَرِبٌ، وفيه غرفٌ عديدة. وما كان يغيب عن بال رفيقتي أن الطلاّب نقموا على إرغامهم بمغادرته، فتخال ان أحدهم قد اختبأ هناك؛ وقد كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك بسهولة لأنّ المكان يُفسحُ لهم في المجال[٣]. فانحبسنا في غرفةٍ وضعتُ فيها قشًّا، وهو أوّلُ ما أُجهِّزُ به بيتًا لدى تأسيسه؛ فالقشّ يغنينا عن الفراش. ونمنا على القشّ تلك الليلة نلتحف بطانيَّتين أعارونا إيّاهما. وبعد أيام، أعارتنا راهباتٌ يُقِمْنَ على مقربة من المكان، وقد ظَنّنّا أن وجودَنا يشقُّ عليهنَّ، أَعَرْنَنَا بعضَ الثياب للراهبات المزمعات على القدوم وبعثنَ لنا ببعض الحسنات. كان الدير على اسم القديسة إليصابات[٤]؛ وطيلة الوقت الذي قضيناه في ذلك البيت أدَّيْنَ لنا أعمالاً صالحة كثيرة وقدّمن حسناتٍ وافرة.

مخاوف وأرق

٥. عندما رأت رفيقتي نفسَها منحبسةً في تلك الغرفة اطمأنّت بعض الطمأنينة إلى الطلاَّب، إلاّ انّها ما كانت تنفكّ تنظر إلى ناحيةٍ فناحيةٍ بشيء من الخوف، ويساعدها الشيطان، ولا شكّ، على تصوّر أخطار ليقلقَني، أنا؛ فقلبي من الضعف بحيث يكفيه القليل ليستبدّ به القلق. فسألتها إلى ما تنظر، فليس أحدٌ يستطيع الدخول إلى هناك. فأجابتني: "إنّي أفكّر، يا أمّاه، إذا متُّ الآن هنا، فماذا يكون من أمرك وحدك؟". لو حدث ذلك لكان ضربةً قاصمة. فبدأتُ أفكّر في الأمر قليلاً، بل بدأ يساورني الخوف. فإن أجساد الموتى، لو لم تُخِفني فإنّها تُوهن قلبي ولو لم أوجَدْ وحيدةً. وإذ كانت ليلةَ تذكار الموتى، – كما قلت _ فقد ساعد قرعُ الجرس حزنًا [على إثارة الخوف]، وكان منطلقًا حسنًا كي تُحدث هذه الأفكارُ الصبيانية في رأسنا دوارًا؛ فالشيطان عندما يعرف انّنا لا نخاف منه مباشرة، يبحث عن تخويفنا مداورةً. فقلت لها: "يا أختي، إذا حدث ذلك، فسأفكّر في ما أصنعه؛ أمّا الآن فدعيني أنام". ولما كنّا قضينا ليلتين في أرق، فسرعان ما هدَّأ الرقادُ الخوف. وفي الغد وصلت الراهبات فزالت المخاوف.

مساوئ دير سلمنكا

٦. واستمرّ هذا البيت كدير نحو ثلاث سنوات، بل لا أذكر إذا استمرَّ أربعًا، لأنّني أُمِرتُ بالذهاب إلى دير التجسّد في آڤيلا[٥]. فأنا ما غادرت قطّ ديرًا ولا أغادره إلاّ لأقيمَ بيتًا خاصًّا بنا، هادئًا، ومُعَدًّا كما يحلو لي إعداده. فالله قد أعطاني نعمةً كبرى بأن يطيبَ لي أن أكون الأولى في العمل وأن أهتمّ بكل شيء، حتى بالتفاصيل الدقيقة لتكون الأخواتُ في راحة وهناء، وكأنني، أنا، سأسكنُ طوال حياتي ذلك البيت؛ وعليه، كان

---

٣ إن هذا البيت تملكه حالياً خادمات القديس يوسف (سيلفيريو).

٤ كان للراهبات الفرنسيسيّات.

٥ في تموز / يوليو ١٥٧١، عيّنها رئيسة على دير التجسّد الأب پدرو فرناندیث Pedro FERNÁNDEZ، من رهبانية القديس عبد الأحد، ثم اضطلع بمهمّة زائر رسولي للكرمل في ٢٠ آب / أغسطس ١٥٦٩.

فرحي يكبر جدًّا حين أراهنّ يُقِمْنَ في راحة. لقد تألمتُ كثيرًا لما قاسته هذه الأخوات هنا، ليس من نقص المؤونة؛ – فقد عنيت بهذا من حيث كنت أُقيم، لأن البيت كان بعيدًا عن أن تأتيه الحسنات –، بل لسوء شروطه الصحيّة: فقد كان رطبًا وباردًا، وكان واسعًا جدًّا فلا يمكن اصلاحه. وأسوأُ الأمور أنه لم يكن لديهنّ القربان المقدّس؛ وغياب القربان في حياة انحباس كهذه، فاجعة. لكنهنَّ لم ينفجعنَ، بل قبلنَ الواقع بسرور جدير بأن يُحمَدَ الله عليه؛ وكان بعضهنَّ يقلن لي، إنّ الرغبة في بيت آخر، في رأيهنَّ، نقص؛ وسَيكنّ مسروراتٍ جدًّا هناك لو كان القربان المقدّس موجودًا.

عودتها إلى سلمنكا

٧. عندما رأى الرئيس كمال حياتهنّ والمحنَ التي يقاسينها، أخذته الشفقة، فأرسل يستدعيني من دير التجسّد. وكنَّ قد اتّفقن ورجلاً على أن يقدّم لهنّ بيتًا، إلاّ أنّه كان في سوء حالٍ اقتضى صرفَ أكثر من الف دوفية للدخول إليه. كان البيت وقفًا، ومع هذا فقد وافق، هو، على السماح لنا بسكناه، ولو لم يأتِنا الإذن من الملك، وعلى بناء بعض الجدران. فطلبت من الأب خوليان دي آڤيلا، الذي ذكرته رفيقًا لي في هذه التأسيسات، ان نزور البيت معًا لنقرّر ما يجب عمله، ذلك ان الاختبار علّمني أن عليَّ التفاهم في هذه الأمور، تفاهمًا تامًّا.

إعداد البيت الجديد

٨. وصلنا في شهر آب / أغسطس. ورغم التعجيل الكبير في الأشغال، فقد بقيت الأخوات حيث كنَّ حتى عيد القديس ميخائيل[٦]، وهو التاريخ الذي يتمّ فيه تأجير المنازل؛ فقد كان أبعد من أن يكون جاهزًا. وبما اننا لم نستأجر البيت الذي نشغله لسنة أخرى، فصار إلى مستأجرٍ آخر كان يستعجلنا في مغادرته. كانت الكنيسة على وشك أن ينتهي طلاؤها. وصاحب البيت الذي باعنا إيّاه لم يكن هناك. والبعض ممّن يحبّوننا مخلصين اتهمونا بسوءِ التصرّف في مغادرتنا المكان سريعًا. لكن عندما تقضي الضرورة، يصعُبُ العمل بالمشورات إذا لم تؤدِّ إلى علاج.

هطول المطر

٩. انتقلنا عشية عيد القديس ميخائيل قبيل طلوع الفجر. وقد عمّمنا أن القربان المقدَّس سيُصمَدُ يوم العيد وستُلقى عظة. وشاء الربّ أن يهطل المطر غزيرًا عصرَ النهار الذي انتقلنا فيه، ما خلق صعوبةً في نقل الأشياء اللازمة. كان المعبد جديدًا، والسقفُ لم يتمّ صنعه، فإذا المطر يسقط في أكثر النواحي. وأصرّح لكنَّ، يا أخواتي، أنني رأيتني ناقصةً جدًّا في ذلك اليوم. لقد أعلن عن الاحتفالات: فما كنت أدري ماذا أصنع، بل وجدتُني أَنهارُ؛ فقلت لربِّنا وأنا أكاد أتذمَّر: إمّا أن لا يأمرني الإهتمام بهذه الأشغال، وإمَّا أن يخفّ لمساعدتي. وكان الرجل الطيّب نقولا غوتييرّيث الممتاز بهدوئه، يقول لي بوداعة، وكأن شيئًا لم يحدث، أن لا يأخذني الغمّ لأنّ الله سيعالج الأمر. وهكذا كان. فيوم عيد القديس فيخائيل، ولدى وصول القوم، أشرقت الشمس، فاتّعظتُ، ورأيت كيف ان ذلك الانسان المبارك كان أحسن فاعليّةً باتكاله على ربِّنا منّي في استسلامي إلى الغمّ.

---

٦ ٢٨ أيلول / سبتمبر ١٥٧٣.

غضب صاحب البيت

١٠. حضر جمعٌ غفير، وعزفت الموسيقى، وصُمِدَ القربان المقدّس باحتفال عظيم. ولما كان موقعُ البيت هذا مناسبًا، بدأ يُشْهَرُ أمرُه ويحترمونه. وقد ساعدتنا بنوع خاص مساعدةً جليلة كونتيسة مونتريّ، السيّدة ماريا پيمنتيل[٧]، وزوجة حاكم المنطقة، واسمها دونيا ماريانا. وفي الغدّ، كي يعتدل سرورُنا بوجود القربان المقدّس، جاء صاحبُ البيت غاضبًا؛ فما دريت كيف أتصرّف معه، وقد حال الشيطان دون أن يعودَ إلى رشده مع أنّنا وفَينا بكل ما اتفقنا عليه. وعبثًا حاولت اقناعه؛ فخاطبه بعضُهم فسكن قليلاً، لكنّه ما لبث أن غيّر رأيه. وبلغت من أمري أن عزمت على تسليم البيت إليه، فما كان هذا مطلبه، بل أن يُدفَعَ له المالُ حالاً. أمّا امرأته، وهي المالكة، فقد وضعت البتَ برسم البيعِ لتدبّر أمر ابنتين لها؛ وعلى هذا الأساس كان يطلب الإذن ببيعه ليودّع المالُ لدى من يريد إيداعه.

حيرة في أمر الدير

١١. رغم مرور ثلاث سنوات مذ ذاك، لم يتمّ الشراء؛ ولا أدري هل سيستمرّ الدير هناك، أعني في ذلك البيت، ولا إلى ما يؤول كل هذا، ولهذا أوردت القصّة[٨].

ثقة برحمة الله

١٢. ما أعرفه، هو أن الراهبات في أَيِّ دير من الأديار التي أسَّسها الربُّ لرهبانية القانون القديم، لم يقاسين مِحَنًا توازي هذه المحن شدّة. إنهنَّ ذواتُ صلاحٍ سام، برحمة الله، فيحتملن كلَّ شيء بفرح. ألا رضي جلاله بأن يدفعهنّ هذا قُدُمًا، لأن امتلاكَ بيتٍ أو عدم امتلاكه أمرٌ قليل الأهمية؛ ولذّةٌ عظمى نُعطاها عندما نُرى في بيتٍ يمكن أن نُطرَدَ منه، فنتذكَّر أنَّ ربّ العالم لم يملك أيّ بيت. لقد حَدَثَ لنا أحيانًا أن ننزلَ في بيتٍ لا يَخصُّنا، كما يرى في هذه التأسيسات؛ والحقيقة انني لم أرَ قطّ راهبةً تأسف لذلك. إلا رضيَ الجلال الإلهي بأن لا تفوتنا المنازل الأبدية، بفضل جوده المتناهي ورحمته الغزيرة. آمين. آمين.

---

٧ Condesa de MONTERREY, Doña Maria PIMENTEL.

٨ وبالفعل فقد تركت الراهبات ذلك البيت وانتقلن إلى بيت آخر في سنة ١٥٨٢.

الفصل العشرون

في تأسيس دير سيّدة البشارة في ألبا دي تورميس، سنة ١٥٧١.

دعوة إلى تأسيس جديد

١. ما مضى شهران على استلام البيت في سلمنكا، يوم عيد جميع القديسين[١]، حتى ألحَّ عليّ وكيل دوق ألبا وزوجته كي أنشئ ديرًا في ألبا دي تورميس[٢]. ما كانت لي رغبةٌ كبيرة في ذلك لأن القرية صغيرة، ويجب أن يكون للدير ريع، وأنا أميل دائمًا إلى أن لا يملكَ الديرُ ريعًا؛ أمّا الأب المعلّم دومنغو بانييث[٣]، معرّفي، الذي تحدّثت عنه في مطلع التأسيسات، وكان في سلمنكا، فقد لامني وقال: ما دام المجمع [التريدنتيني] أجاز امتلاك ريع، فليس من حسن التصرّف امتناعي عن إنشاء دير لهذا السبب؛ وأنا لا أفهم هذا الموقف؛ فلا شيء يحول دون أن تكون الراهباتُ فقيراتٍ وذواتِ كمال سامٍ.

وقبل أن أتابع كلامي سأعرّف بالمؤسِّسَةَ وأروي كيف دفعها الربّ لتؤسِّسَ الدير.

عائلة مؤسِّسة الدير

٢. إنّ مؤسِّسة دير بشارة سيّدتنا في ألبا دي تورميس، تريزا دي لايث[٤] ابنة والدين نبيلين، شريفَي الحسب، صافيي العرق[٥]. كانا يقيمان في توردياليوس[٦]، وهي قرية صغيرة على بعد غلوتين من ألبا، ذلك أنهما لم يكونا من الثراء على ما يقتضيه سموُّ حَسَبهما. ومن المؤسف جدًّا أن يبلغَ الغرورُ بالبعض فيفضّلوا حياةَ العزلة في هذه القرى الصغيرة محرومين من التعليم ومن أشياء أخرى كثيرة، وهي وسائل تنير النفوس، على أن يفقدوا علامةً ممّا يسمونه علامات الشرف. كان لوالدَيْ تريزا دي لايث أربع بنات، فلما ولدت، هي، امتلكهما الأسف لأنّها بنتٌ أيضًا.

احتقار البنات

٣. والحقيقة ان هذا التصرّف يثير البكاء. فالناس لا يفهمون ما هو خير لهم لأنّهم يجهلون تمام الجهل أحكام الله، فلا يعرفون الخيرات العظيمة التي قد تأتيهم بواسطة البنات، ولا الشرور العظيمة بواسطة الأبناء،

---

١ الأول من تشرين الثاني / نوفمبر ١٥٧٠.

٢ Alba de Tormes، اسمها ألبا، وتورميس اسم النهر الذي يمر بقربها، وهي بلدة تقع على بعد ٣٠ كلم من سلمنكا، توفيت فيها القديسة في ٤ تشرين الأول / اكتوبر ١٥٨٢.

٣ الأب دومنغو بانييت الدومينيكاني من كبار اللاهوتيين في الفرقن السادس عشر، الذين اشتركوا في المجمع التريدنتيني، كان معرّفًا للقديسة، وما زال محفوظًا المكان الذي كانت تعترف فيه في دير الدومينكان، في سلمنكا. وهي تذكره في غير موضع من مؤلفاتها. ولقب معلم هو أرفع لقب علمي لدى الرهبان الدومينكان وعدد الذين يحصلون عليه قليلون (م),

٤ Teresa de LAYZ.

٥ إشارة إلى انّها لا تمتّ بصلة إلى سلف يهودي أو مغربي (م).

٦ Tordillos.

ولهذا لا تراهم يريدون أن يتركوا الأمر لمن يعرف كلَّ شيء ويخلق كلَّ شي، بل إنّهم يتقاتلون بسبب ما كان يجب أن يفرّحهم. مثلهم مثل أناسٍ ناقدٍ إيمانُهم، لا يتبصَّرون فيتقدَّمون، ولا يتذكَّرون أن الله هو الذي يدبّر كلَّ شيء فيلقون كلَّ شيء بين يديه. وما داموا في عماهم هذا، فجهلٌ كبير أن لا يفهموا قلَّة جدوى أَسفهم. آه، عونك اللهمَّ! ما أعظم ما يكون مختلفًا حكمُنا على هذه الجهالات يوم تُفْهَمُ حقيقةُ جميع الأشياء! وكم من الآباء سيؤول مصيرُهم إلى جهنّم لأنّهم رُزقوا صبيانًا، وكم من الأمهات أيضًا سيُرَيْنَ في السماء بفضل بناتهنَّ!

طفلة تتكلم

٤. وأعود إلى حديثي. بعد ثلاثة أيام من الولادة، ولأنّ حياة البنت ليست بذات أهمية، فقد تركوها وحيدة، دون أن يتذكَّرها أحد، من الصباح إلى المساء. لقد صنعوا أمرًا واحدًا حسنًا، وهو أنّهم استدعوا كاهنًا فعمّدها بعد ولادتها. فعندما جاءَت في المساء امرأة تعنى بها وعرفت ما جرى، أسرعت لترى إذا كانت ميتة؛ ورافقها بعض أشخاص كانوا قد وفدوا لزيارة والدتها، فكانوا شهودًا على ما سأرويه الآن. أخذت المرأة الطفلة في ذراعيها وقالت لها وهي تبكي: "ما الأمر يا بنيَّتيّ! أَلستِ مسيحية؟"، وتعني بقولها هذا القساوة التي عوملت بها. فرفعت الطفلة رأسها وقالت: "أجل، أنا مسيحية"، ولم تتكلَّم من ثمَّ إلى أن بلغت العمر الذي يتكلّم فيه الأطفال عادة. أما الذين سمعوها، فذُهلوا؛ وبدأت أمَّها تحبّها منذئذ وتدلّلها، وتقول غالبًا إنّها تودّ لو انها تعيش إلى أن ترى ما يريد الله أن يصنع من هذه الطفلة. وكانت تربّي بناتها جميعهنَّ بحشمة وتعلّمهنَّ كلَّ الأعمال الفاضلة.

الزوجة الصالحة

٥. وعندما بلغت سنّ تزويجها، رفضت التزوّج، ولم تكن تشتهي ذلك. وعندما طَلَبها [من والديها] فرنثيسكو ڤيلاسكيث٧، وهو مؤسس هذا البيت أيَضًا، أصابت في حكمها. فما إن سمعت اسمه حتى قرّرت القبول به زوجًا، ولم تكن قد رأته في حياتها. لكن الربَّ كان يعرف ان هذا الزواج مناسبٌ ليُتِمَّ العملَ الصالح الذي حقّقه كلامُها لخدمة جلاله. فهو، إضافةً إلى كونه رجلاً فاضلاً وغنيًا، يحبّ امرأته حبًّا يحمله على إرضائها في كلّ شيء، وبحقّ؛ لأنّ الربَّ وهبها كلّ الصفات المطلوبة في امرأة متزوجة، وبدرجة كاملة. فإضافة إلى عنايتها الكبرى ببيتها، امتازت بصلاحٍ كبير. فعندما انتقلت مع موجها الدوق إلى ألبا، مسقط رأسه، وأنزل وكلاؤه في بيته شابًا، ساءَها الأمرُ كثيرًا، فبدأت تكره القرية؛ ولما كانت شابةً وافرةَ الجمال، أخذ الشيطان يحرّك في ذلك الشاب أفكارًا خبيثة؛ فلو لم تكن صاحلةً جدًّا لكان حدث سوءٌ ما.

سيرتها الحسنة

٦. عندما أدركت الواقع، سألت زوجها أن يُخرجها من ذلك البيت من دون أن تذكرَ له السبب؛ ففعل، ونقلها إلى سلمنكا حيث عاشت مسرورة وغارقةً في البحبوحة، وشَغَلَ، هو منصبًا يحمل الجميع على إرضائهما وتكريمهما٨. وما غمَّهما إلاّ أمرٌ واحد وهو أنَّ الربَّ لم يرزقْهما أولادًا. وطالما مارست أفعال التقوى وأكثرت من

٧ Francïsco VELÁZQUEZ.

٨ محاسب ومعتمد القبض في الجامعة من سنة ١٥٤٤ إلى سنة ١٥٦٦.

الصلوات؛ وما كانت تسأل الربّ سوى أن يعطيَها نسلاً حتى يسبّح الربّ متى غادرت، هي، هذه الحياة. فقد كان يعزّ عليها أن تموت وأن لا لخلفها أولادٌ يسبّحون جلاله بعدها. وكانت تقول لي انه ما كان يخكر قطّ في بالها شيء تشتهيه. إنّها امرأةٌ شديدةُ الإخلاص، راسخةٌ في إيمانها المسيحي وفي الفضيلة، كما قلت، ما يدفعني غالبًا إلى أن أسبّح ربَّنا لدى رؤيتي أعمالها، ونفسًا كهذه النفس تشتهي دائمًا مرضاته ولا تتوانى في استخدام وقتها استخدامًا حسنًا.

رؤيا نبوية

٧. عاشت سنواتٍ يلازمها هذا الشوق. وبعد ممارسات تقوية عديدة توسّلت إلى القديس أندراوس إذ قيل لها إنّه شفيعٌ في هذه الأمور. وذات ليلة وهي نائمة قيل لها: "لا تطلبي أولادًا فيكون في ذلك هلاكُك". فخافت وأصابها ذعرٌ شديد؛ ومع هذا لم تفارقْها الرغبة [في الأولاد] لأنّها ترى الغاية منها صالحة، فكيف تصر إلى الهلاك. فاستمرّت تطلب ذلك من ربّنا، وترفع إلى القديس أندراوس صلاةً خاصّة. وذات مرّة، وفميا هذه الرغبة تجول في نفسها ولا تدري أهي في اليقظة أم في المنام — ومهما يكن من أمر، فقد كانت رؤيا صالحة نظرًا إلى نتيجتها –، تصوّرت نفسَها في منزلٍ فيه بئرٌ تحت الرواق؛ ورأت في ذلك المكان مرجًا تغمره الخُضرة، وفيه زهورٌ بيض ذاتُ جمالٍ رائع تعجِزُ عن وصفها كما رأتها. وظهر لها القديس اندراوس قرب البئر بصورة شيخٍ جليل بهيِّ الطلعة سرَّها منظرهُ أيَّ سرور، وقال لها: "سيكون لك أبناء غير أولئك الذين تشتهينهم". وتمنَّت لو أنَّ التعزية الكبرى التي عرفتها في ذلك المكان لا تزول؛ لكنّها لم تدم أكثر من هذا. فأدركت بوضوح أن ذاك كان القديس أندراوس، ولم تُطلع أحدًا على ما حدث. وفهمت أيضًا أن إرادة ربّنا أن تُنشئ ديرًا. ومن ثمَّ، يُفْهَم أنّها كانت رؤيا عقلة وخيالية معاً ولم يَكن هوىً فارغًا ولا وَهْمًا من الشيطان.

علامة على صدق الرؤيا

٨. أولاً، لم يكن هوىً فارغًا بسب مفعوله الكبير؛ فمنذ تلك اللحظة لم تشتهِ الأولاد، بل رسخ في قلبها تمامًا أنَّ تلكَ إرادةُ الله، فلم تسأله بعد ذلك أولادًا ولم تشتهِ أن تُرزَقَهم. فشرعت تفكِّر في طريقة تحقِّق بها ما يريده الربّ. وواضحٌ أنَّ الشيطان لم يكن وراء تلك الرؤيا بسبب المفعول الذي أحدثته؛ لأن أيَّ شيءٍ يصدر عن الشيطان لا يمكن أن يُحدِثَ خيرًا، كإنشاء الدير الذي يُخدَمُ فيه ربُّنا خدمةً جُلَّى؛ ولأنّ هذه الرؤيا حصلت قبل أكثر من ست سنوات على إنشاء الدير، والشيطان لا يستطيع معرفةَ المستقبل.

قرارها إنشاء الدير

٩. لقد أذهلتها تلك الرؤيا فقالت لزوجها؛ ما دام الربُّ لا يريد أن يرزقها أولادًا فليبنِيا ديرًا للراهبات. وهو، لأنّه رجلٌ كثيرُ الصلاح ويحبُّها حبًّا جمًّا، فرح برأيها، فأخذا يبحثان عن موضع لبنائه. اقترحت بأن يكون في مسقط رأسها؛ أمّا هو فبسَطَ موانعَ معقولة، فأقنعها بأنَّ المكان غيرَ ملائم.

العودة إلى ألبا

١٠. وبينما كان يدرس المشروع، استدعته دوقة ألبا، فوافاها، فأَمرته بأن يعود إلى ألبا ليشغل الوظيفة التي كلَّفته بها في منزلها[٩]. فبعد أن اطَّلع على ما أمرته به، قَبِلَ الوظيفةَ ولو انها دون وظيفته في سلمنكا أهمية. وحين علمت زوجته، حزنت جدًّا لأنّها كانت تكره تلك القرية، كما ذكرت. وعندما أكّد هو لها أنّه لن يُفْرَض عليها ضَيفٌ، سَكَنَ روعُها نوعًا ما، ولو ان الأسفَ تمكّن منها لأنّها كانت أكثر ارتياحًا في سلمنكا [منها في البا]؛ فاشترى بيتًا واستدعاها؛ فجاءت مكرهة، وازدادت أسفًا حين شاهدت المنزل؛ فمع أنه حسنُ الموقع، واسعُ، إلاّ انّه سيّءُ التقسيم؛ فكانت جدّ حزينة تلك الليلة. وهي صباح اليوم التالي، حين ذخلت باحة الدار، رأت البئر التي بقربها شاهدت القديس أندراوس. كان كلُّ شيءٍ مثلما شاهدته في الرؤيا تمامًا، وأعني بكلَّ شيء المكان. فلا القديس هناك، ولا المرج، ولا الزهور؛ ولو أنَّ كلَّ هذا كان حاضرًا، وهو حاضر في مخيَّلتها.

السعي لتأسيس الدير

١١. عندما شاهدت ما شاهدت، اضطربت فقرّرت أن تنشئ الدير هناك، وشعرت بارتياح وطمأنينة كبيرين، فما أرادت أن تذهب إلى مكان آخر. وأخذ الزوجان يشتريان مزيدًا من البيوت القريبة حتى توافَرَ مكانٌ كافٍ. كان همّها تعيين الرهبانية التي يجب أن تشغلَ الدير، لأنّها كان تريد راهباتٍ قليلاتِ العدد ومحصَّنات. فبحثت الأمر مع راهبَيْن كثيريْ الصلاح والعلم من رهبانيتين مختلفتين، فنصحا لها أن خيرٌ لها أن تنصرف إلى أعمال أخرى، لأنّ أكثر الراهبات متبرّمات، وأشياء أخرى كثيرة. ولأنَّ الدير يضايق الشيطان، فقد أراد تعطيلَ إنشائه، فصوَّر لها الحجَجَ التي قدّماها لها قاطعة. ولما كرّرا عليها أن المشروع غير صالح، فإن الشيسطان الذي جهد أكبر جهد لتعطيله، أثار فيها الخوف والاضطراب، فقرَّرت التراجعَ عن إنشائه. وأبلغت قرارها إلى زوجها. ورأى كلاهما أنّه ما دام شخصان كذينك يقولان إنّ المشروعَ غيرُ صالح، بينما هما يقصدان خدمة ربِّنا، فمن الأفضل إهمالُ المشروع. فاتفقا على تزويج ابنِ أختٍ لها تحبُّه حبًّا وافراً وابنة أخ لزوجها واعطائهما حصّة كبيرة من أملاكهما، وتخصيص الباقي لخلاص نفسيهما، لأنّ ابن شقيقتها كان فاضلاً جدًّا وشابًّا وسيمًا. وقرَّ راي كليهما على هذا وثبتا فيه.

موت العريس

١٢. إلاّ ان ربّنا كان قد قرّر خلاف ذلك، فلم يثمر اتفاقهما. فما مضى خمسة عشر يومًا حتى نزل بابن الأخت مرضٌ شديد، فنقله ربُّنا إلى جواره. فرسخ في ذهنها أيَّ رسوخ ان سببَ موته كان قرارهما بإهمال ما كان الله يريدهما أن يفعلاه لإعطائه إيّاه، فسيطر عليهما خوفٌ كبير؛ فتذكَّرت ما حصل ليونان النبي (**يونان** ١-٢)، لأنَّه رفض إطاعة الله. وتصوَّرت كذلك أنّه عاقبها، هي، بانتزاعها منها ابن أختها الذي كانت تحبّه حبًّا جمًّا. فقرّرت من ذلك اليوم، هي وزوجها، بأن لا يتراجعا عن بناء الدير كائنًا ما كان السبب، ولو لم يكونا يعرفان كيف يحقّقانه. فيبدو أن الله حفر في قلبها النموذج الذي نُفِّذ. والذين كانت تصف لهم وتصوِّر الديرَ الذي تريده، كانوا يسخرون منها وفي ظنَّهم أنها لم تجد الأمور التي تسعى إليها، خصوصًا معرّفها الراهب الفرنسيسي، وهو رجلٌ ذو علمٍ وصفاتٍ رفيعة، فكاد اليأس يسيطر عليها.

---

[٩] وكيل الدوق، كما في العدد ١.

إختيار رهبانية الكرمل

١٣. وصدف في هذه الأثناء أن ذهب هذا الراهب إلى مكان أطلع فيه على إنشاء أديرة لسيّدة الكرمل. فبعد استقصائه المعلومات، عاد إليها فقال لها إنّه وجد نموذج الدير الذي تريده، وأخبرها بما يجري، وسألها أن تبحث الأمر معي. وهذا ما فعلَتْه. فاتفقنا بعد صعوبات جمّة. لقد كان همّي دائمًا أن يكون ريعُ الأديار التي تُنشأ على هذا الأساس كافياً لا تحتاج معه الراهبات إلى الاستعانة بأهلهنَّ أو بغيرهم، بل أن يقدِّم الدير لهنَّ ما يلزم من الطعام والملبس، وأن تُوفَّرَ العنايةُ التامّة للمريضات منهنَّ؛ لأنه إذا أعوزهنّ الضروري، حصلت سيّئاتٌ عديدة. وما فاتتني الشجاعة والثقة قطّ لأُنشئَ أديرةً كثيرةً فقيرةً لا ريع لها ليقيني أن الله لا يتخلّى عنها. ويفوتني كلُّ شيء لإنشاء أديرةٍ ذاتِ ريعٍ غيرِ كاف؛ فأفضّل أن لا تؤسَّس.

تأسيس الدير

١٤. الخلاصة أنهما اقتنعا وأَمَّنا ريعًا كافيًا لعددٍ الراهبات الملحوظ. وما قدّرته فيهما أجلَّ تقدير أنّهما تنازلا لنا عن منزلهما وذهبا يسكنان في بيتٍ حقيرٍ جدًّا. صَمِدَ القربان المقدَّس، وتمّ التأسيس في تذكار ارتداد القديس بولس سنة ١٥٧١[١٠] لمجد الله وإكرامه؛ وإخاله يُعبَد في هذا الدير عبادة لائقة جدًّا. إلا رضيَ جلاله بأن يدفعه دائمًا قُدُمًا !

تواضع ورصانة في سردها

١٥. بدأتُ أروي بعض أمورٍ خاصّة عن عدد من راهبات هذه الأديار معتبرةً أنّها حين تطالَع، لن يكون على قيد الحياة من الراهبات مَن هنَّ أحياء الآن، ورغبة في أنَّ من يأتين بعدهنَّ يتشجّعن لتطبيق هذه المبادئ الصالحة. ثم فكّرت في أنّه قد يأتي من يرويها خيرًا منّي، وأكثر تفصيلاً ممّا أفعل، ودون الخوف الذي يرافقني من تصوّري أن قد أبدو متحيِّرة. وعليه، فقد أسقطت أمورًا كثيرة لا يستطيع من رآها وعرفها إلاّ أن يعتبرها عجائبية، لأنّها فائقة الطبيعة. فما أردت أن أذكر شيئًا عن هذه الأمور ولا عن تلك التي عُرِفَ يقينًا أن ربَّنا حقّقها استجابة لصلواتهنَّ.

أما تواريخ السنوات التي أنشئت فيها الأديار، فأخشى أن أخطئ فيها ولو اني أجهد نفسي ما استطعت كي أتذكرها. ولأنّها ليست بذات أهمية، إذ يمكن تصحيحُها فيما بعد، فإنّني أثبتها كما ترد على ذاكرتي؛ وإذا كان هناك من خطأ فإنه يكون يسيرًا.

١٠ في ٢٥ كانون الثاني / يناير ١٥٧١.

الفصل الحادي والعشرون

في تأسيس دير القديس يوسف المجيدلرهبانية الكرمل في سيغوفيا، وذلك يوم عيد القديس يوسف سنة ١٥٧٤.

أمرٌ جديد من الربّ

١. لقد رويت أنّه بعد تأسيس دَيريْ سلمنكا وألبا، وقبل أن يكون لدير سلمنكا بيتٌ خاص، أمرني الأب المعلم بدرو فرنانديث، وهو آنذاك مفوَّضُ رسولي، أن أذهب إلى دير التجسّد في آڤيلا لمدّة ثلاث سنوات؛ ورويت أنّه عندما رأى راهبات سلمنكا يواجهن متاعب، أمرني أن أمضي فأوفِّرَ لهنَّ بيتًا خاصًّا. وإذ كنت ذات يوم في سلمنكا أقوم بالتأمّل، قيل لي من لدن ربّنا أن أذهب لأنشئ ديرًا في سيغوفيا. بدا لي الأمر مستحيلاً لأنّني لا أستطيع الذهاب إلاّ بناءً على أمر، وكنت فهمت من المفوّض الرسولي، الأب المعلم بدرو فرنانديث، إنّ لا رغبة لديه في أن أنشئ أديرة جديدة. ورأيت أنّه على حقّ في موقفه قبل أن تنقضي ثلاث سنوات على وجودي في دير التجسّد. وفيما أنا أفكر في هذا، قال لي الربّ بأن أعرض الأمر عليه، وهو، يحقّقه.

استشارة المفوّض الرسولي

٢. في هذه الأثناء كان [الأب فرنانديث] في سلمنكا، فكتبت إليه قائلةً إنّه يعرف مثلي أن لديَّ أمرًا من رئيسنا العام الجزيل الاحترام بأن لا أتقاعسَ عن تأسيس دير في ناحيةٍ ما حين أرى ذلك مناسبًا، وأن ديرًا مثل هذه الأديرة يلقى قبولاً لدى أهل المدينة ولدى أسقفها؛ فإذا أمرَتْ أبوّته بأن أنشئه فعلت؛ وإنّما أُشعره بهذا إراحةً لضميري؛ وكائنًا ما كان أمرُه لي فإنّي سأكون مطمئنةً ومسرورةً. بهذه الكلمات تقريبًا خاطبته، وقلت إنّني أرى في تحقيق ذلك خدمةً لله. ولا شكّ أن جلاله كان يريد ذلك، لأن [الأب فرنانديث] سارع فقال لي أن أنشئه وأعطاني الإذن بذلك، فأخذتني دهشةً أيُّ دهشة بعد أن كنت عرفت رأيه بهذا الشأن. ومن سلمنكا بعثت أطلب أن يُستَأْجَرَ لي بيتٌ في سيغوفيا؛ فبعد الذي حصل في طليطلة وڤاليادوليد، فهمت أن من الخير، لأسباب عديدة، أن لا نشتري بيتًا خاصًّا إلاّ بعد أن نشغله؛ وأهمُّ سبب هي أنّني ما كنت أملك فلسًا فأشتري، لكن إذا أقيم الدير فإنّ الربّ يدبّر الأمر حالاً؛ ثم إنّه يجب أن يُختارَ الموقعُ الأنسب.

خبر سيّدة تقيّة

٣. كان هناك سيّدةٌ، أرملةٌ صاحبةُ إقطاعيةٍ بكريّة تدعى دونيا آنا دي خيمينا[١]. زارتني مرَّةً في آڤيلا وكانت خادمةً لله حقًّا، وطالما شعرت بأنّها مدعوّة للحياة الرهبانية. فما ان أنشئ الدير حتى دخلته هي وابنةٌ لها ذات سيرة مثاليّة، فضاعف الله سرورَها في حياة الترهّب بعد أن عانت الحزن متزوجةً وأرملة. وامتازت الأمُّ والإبنةُ دائمًا بحبِّ الاختلاء وعبادة الله.

---

١ Doña Ana de JIMENA.

مرض شديد

٤. فهذه المرأة المباركة استأجرت لنا البيت وأعدّت كلّ ما نحتاج إليه ويَلزَمُ الكنيسة، فخفَّفت عن كاهلي صعوبة. وحتى لا يتمَّ تأسيسٌ من دون صعوبة ما، فعدا أنّي وصلتُ إلى هناك [سيغوڤيا] وقد أخذت بي حمّى شديدة، وسأمٌ، وآلامٌ داخلية متنوّعة من جرَّاء اليبوسة الروحية، وأوجاعٌ جسديةٌ عديدة، دام أثقلُها ثلاثة أشهر، فقد لبثتُ مريضةً طيلة الأشهر الستّة التي مكثتها هناك[٢]...

غضب الوكيل

٥. حين صمدنا القربان المقدس يوم عيد القديس يوسف، فمع أننا حصلنا على الإذن من الأسقف وعلى رضى أهل المدينة، ما أردت دخول البيت إلاّ عشية العيد ليلاً، وسرًّا. كان قد مضى زمنٌ على إعطاء الإذن، غير أني كنت عندئذٍ في دير التجسّد ورئيسي إذ ذاك هو غير أبينا العام، فما استطعتُ أن أقوم بهذا التأسيس. كان الأسقف آنئذٍ قد أعطى الإذن شفهيًا إلى سيِّدٍ فاضل سعى لنا به يدعى أندريس دي خيمينا[٣]، فما اهتمّ بأن يكون خطيًّا؛ وبدا لي أن لا بأس في ذلك، فخاب ظنّي؛ فما إن بلغ الوكيلَ ان الدير قد أنشئ حتى جاء سريعًا غاضبًا جدًّا ورفض إقامة القداس؛ بل أراد أن يُدخِلَ السجن من احتفل بالقداس، وهو راهبٌ كرملي حافٍ[٤] كان برفقة الأب خوليان دي آڤيلا وخادمٍ آخر من خدّام الله كان يرافقني يدعى أنطونيو غايتان[٥].

خبر السيّد غايتان

٦. كان هذا سيِّدًا من ألبا؛ وبعدما كان منغمسًا في العالم، دعاه ربُّنا منذ بضع سنوات، فداسَ العالم ولم يعد يهتمّ إلاّ بخدمة الله خدمةً فضلى. وإنّما عرّفته لأنّه سيؤتى على ذكره في التأسيسات التي سأتحدَّث عنها؛ فقد ساعدني مساعدةً جلّى وبذل جهدًا وافرًا؛ ولو أردت الحديث عن فضائله لطال بي المجال. وأبرزُ ما يهمُّنا من فضائله، تقشّفُه البالغ؛ فقد بلغ من تقشّفه أنَّ أيًّا من الخدَّام الذين يرافقوننا ما كان ليقوم بالضروري مثله. يمارس التأمّل بحرارة، وقد غمره الله بمنن وافرة فيُسَرُّ بما يعتبره الآخرون مناهضةً ويبدو له سهلاً؛ وهذا شأنه في كلِّ ما يعمله في هذه التأسيسات. فكأن الله دعاه ودعا الأب خوليان دي آڤيلا إلى هذا الأمر، ولو أن الأب خوليان انطلق مع تأسيس أول الأديرة. ولا شكّ أنَّ ربَّنا أراد بواسطة هذه الصحبة أن يحصل لي كلُّ خير. حديثُهما في أثناء السَفر كان حديثًا عن الله، وعملُهما كان تعليمَ صَحْبِنا ومن يصادفانه؛ فعليه، كانا في كلِّ حالٍ يخدمان جلاله.

فضل الرفيقين

---

٢ تبدو الجملة متبورة كما يحدث أحيانًا في اسلوب القديسة المتشابك. إلاّ ان المعنى يكتمل في العدد ٥ "... جاء الوكيل غاضبًا ورفض إقامة القداس".

٣ Andrés de JIMENA.

٤ هو القديس يوحنا لصليب.

٥ Antonio GAETÁN.

٧. فيجدر بكنّ، يا بناتي، يا من سيُطالعن التأسيسات، أن تعرفن ما تدين لهما به حتى تَكِلْنَ أمرَهما إلى ربّنا وينتفعا بصلواتكنّ؛ فقد جهدا كثيرًا، جهدًا مجرَّدًا عن أي نفع، لتنعمنَ أنتنَّ بالحياة في هذه الأديرة؛ فلو علمتنّ ما قاسياه من ليالٍ مؤرّقة، ونهاراتٍ مُتعبة، ومشقّاتٍ في الأسفار، فإنكنَّ ستفعلنَ ذلك بكلّ طيبة خاطر.

الاتفاق مع الوكيل

٨. ما أراد الوكيلُ أن يغادرَ كنيستنا من دون أن يقيمَ شرطيًّا على الباب، ولا أدري لأيّ غاية؛ لقد ساعد على التهويل على سكان المكان. أنا أنا، فما كنت أعيرُ كبيرَ اهتمام أيَّ أمرٍ يحصل بعد شغل البيت، بل كانت كلُّ مخاوفي تحصل قبل التسلّم. فاستدعيتُ بعضَ أشخاصٍ من اقارب إحدى الأخوات اللوات صحبْنَني، وهم من وجهاء المدينة، ليخاطبوا الوكيلَ ويقولوا له إنَّ لديَّ إذنًا من الأسقف. أما هو، فكان عارفًا بالأمر حقّ المعرفة، كما قال فيما بعد، غير انّه كان يتمنّى لو أعلمناه بالأمر؛ وفي ظنّي، أننا لو فعلنا، لجاءَت النتيجة أسوأ ممّا حصل. وأخيرًا، تمّ الاتفاق معه على أن يترك لنا الدير، وأن يرفع القربان الأقدس. فلم يكدّر ذلك حياتنا. ومكثنا على هذه الحال بضعة أشهر إلى أن اشترينا بيتًا آخر ومعه نزاعاتٍ عديدة. وكانت قد قامت قبلاً منازعاتٌ كثيرة بيننا وبين الرهبان الفرنسيسكان بسبب بيتٍ اشتريناه قريبًا من ديرهم؛ أمّا الآن، فقد قامت مع رهبان سيّدة النعمة، ومع مجلس الكاتدرائية الذي كان يحصّل ايرادًا من ذلك البيت.

توالي العقبات

٩. آه يا يسوع! ما أصعب التفاهم عندما تتعدّد الآراء! فحين بدا أنَّ كلَّ شيء قد انتهى، بدأ كلُّ شيء ثانية؛ فما ان نوافق على اعطائهم ما كانوا يطلبون حتى تقوم عقبةٌ أخرى. فان يُروى الأمر روايةَ يبدو وكأنّه لا شيء، أمّا مُقاساتُه فكانت شديدةً.

بذل كثير من المال

١٠. كان ابنُ أختٍ للأسقف، وهو رئيس تلك الكنيسة وكاهن قانونيٌّ[٦] فيها، يعمل كلَّ ما يستطيع لمساعدتنا، ومثله مُحاميٌ من آل هيريرا[٧]، مشهور بعبادته الله. وأخيرًا، بعد بذل مبالغ طائلة من المال، أنهينا المعاملات. وبقي علينا النزاع مع رهبان سيّدة النعمة[٨]؛ فلزم كثير من السرّية كي ننتقل إلى البيت الجديد. عندما رأونا هناك، وكنا قد انتقلنا قبل عيد القديس ميخائيل بيوم أو يومين، رأوا من الأفضل أن يتّفقوا معنا مقابل مبلغ من المال. وأكثر ما كان يُشجيني من هذه المشاكل من انه لم يبق لي إلاّ سبعة أيام أو ثمانية من السنوات الثلاث لرئاستي على دير التجسّد، وعليَّ أن أكون هناك حتمًا عند انقضائها.

حمد الله

---

٦ الكاهن القانوني (Chanoine) هو واحد من جماعة من الكهنة يقومون على خدمة الكنيسة الكاتدرائية في الأبرشية، ويلتزمون بإقامة صلوات الفرض والقداس الجماعي في أوقات محدّدة (م). والكاهن المذكور هو دون خوان دي اوروتكو Don Juan de OROZCO y Covarrubias de Leiva.

٧ HERRERA.

٨ يعرفون بأسم Mercenarios.

١١. ورضي ربُّنا، فانتهى كلُّ شيء على خير، ولم يبقَ أثرٌ لخصام، فمضيتُ إلى دير التجسّد بعد يومين أو ثلاثة أيّام. ليكن اسمه مباركًا إلى الأبد، فقد طالما غمرني بمننه؛ ولتسبّحه الخلائق جميعها. آمين.

الفصل الثاني والعشرون

في تأسيس دير القديس يوسف المجيد للمخلص في بياس، سنة ١٥٧٥، في عيد القديس مَتِّيَاس.

دعوة إلى تأسيس بياس

١. بينما كنت في سلمنكا، إثر تبلّغي الأمرَ بالذهاب إليها من دير التجسّد، كما ذكرت[١]، جاءَني رسولٌ من مدينة بياس برسائل من سيّدة من تلك الناحية، ومن كاهنها ومن أشخاصٍ آخرين يسألونني أن أذهب فأنشئ ديرًا هناك؛ فإنّهم قد أعدّوا بيتًا لهذا الغرض، ولا ينقص إلاّ الذهاب لتأسيس [الدير].

حيرة وحذر

٢. استعلمت الرجلَ عن الوضع، فأغدق الثناء على المنطقة، وبحقّ، لأنّها بهيجة، ومعتدلة المناخ؛ لكن عندما رأيت أنه تفصلني عن المكان غلوات وغلوات، بدا لي الأمرُ حماقةً، خصوصًا أنّه يجب أن يتمَّ بأمرٍ من المفوّض الرسولي الذي، كما قلت، أو أقلّه لم يكن يؤيّد قيامي بتأسيسٍ ما. فنويت أن أجيبَه بأني لا أستطيع، لكنّني لم أصرّح له، ثم رأيت أنّه لا يليق الإقدامُ على المشروع من دون استشارته، ما دام، هو، في سلمنكا، ولأن أبانا العام الجزيل الاحترام كان قد أوصاني بأن لا أرفض أيَّ تأسيس.

إذن المفوّض الرسولي

٣. حين رأى الرسائل، أرسل يقول لي إنّه لا يجد مبرّرًا لتفشيل هؤلاء الأشخاص؛ فقد تأثر من مشاعر التقوى لديهم؛ وسألني أن أكتب إليهم بأنّ التأسيسَ يُدَبَّر أمرُه ما إن يحصلوا على الإذن من منظَّمتهم[٢]؛ وقال لي إنذَ باستطاعتي الوثوق بأنّهم لن يُعطّوا الإذن، فهو يعرف من مفوّضي المنظمة أنهم لم يستطيعوا الحصول عليه منذ سنوات عديدة، فما عليَّ إذًا أن أجيبهم سلبًا. أفكّر أحيانًا في هذا فأرى كيف أنَّ ربَّنا يريد، ولو لم نُرِدْ نحن، فنكون أداةً له، ولو لم نَفْقَه ذلك، كما كان في هذه الحال الأب المعلم بدرو فرنانديث، مفوّضُنا. وعليه، فحين حصلوا على الإذن، ما أمكنه أن ينكره، فتأسَّسَ الديرُ كما سأروي خبره.

منشأ الدير

٤, تأسَّس هذا الدير على اسم القديس يوسف الطوباوي في مدينة بياس يوم عيد القديس متِّيَاس سنة ١٥٧٥. وكان منشأه كما يلي، لمجد الله وإكرامه:

---

١ الفصل السابق عدد ١.

٢ أي منظمة القديس يعقوب التي تقع في دائرة بياس (أنظر العدد ١٣ من هذا الفصل).

قصّة جونيا كاتالينا

كان في هذه المدينة رجل شريف النسب، يدعى سانتشو رودريغث دي ساندوڤال[٣] يملك خيراتٍ زمنيةً وافرة. تزوَّج سيّدةً هي دونيا كاتالينا غودينيث[٤] ومن الأولاد الذين رزقهما الربّ ابنتان أسّستا الدير المذكور، اسم الكبرى دوينا كاتالينا غودينيث[٥]، وإسم الصغرى دونيا ماريا ساندوڤال[٦]. كانت الكبرى في الرابعة عشرة من عمرها تقريبًا حين دعاها ربُّنا إليه. وقبل أن تبلغ هذا العمر، لم يخطر ببالها أن تترك العالم، بل كانت معتدَّةً بذاتها أيّ اعتداد، فترى كلَّ من يرشِّحهم والدُها للزواج منها غيرَ أكفياء لها.

تبدّلها بمنظر المصلوب

٥. وبينما هي ذات يوم في غرفةٍ ملاصقةٍ لغرفة والدها وهو ما يزال في فراشه، صدف أن قرأت فوق مصلوبٍ كان هناك العنوانَ الذي يوضع على الصليب[٧]؛ وفيما هي تقرأ، غيّرها الربُّ كلَّها فجأة. فقد كانت تفكّر في طالبِ زواجٍ عرضوه عليها، مناسبٍ لها تمامًا، فتقول في نفسها: "ما أقلَّ ما يَقنعُ به والدي ! يكفيه أن يكونَ ذا حقٍّ في البكريّة[٨] ! أمّا أنا فأعتبرُ أن ذريّتي يجب أن تبدأ معي". ما كانت تميل إلى الزواج، إذ ترى الخضوعَ لآخر إذلالاً، ولا تفقهُ ممَّا تولّدت لديها هذه العجرفة، ووجد الربّ إلى شفائها سبيلاً. تباركت رحمته.

رغبة في التألّم

٦. ما إن طالعت العنوان حتى خُيِّل إليها أنّ نورًا نَفَذَ إلى نفسها لتفهمَ الحقيقة، كما تنفذ الشمسُ إلى غرفةٍ مظلمة؛ وبفعل هذا النور، حدّقت إلى الربّ الذي يسيل منه الدم على الصليب، ففكّرت في شدّة ما قاساه، وفي عمق تواضعه، وفي السبيل المغاير له تمامًا والذي تسلكه بدافع من كبرياء. ومكثت على هذه الحال بعض الوقت لأنّ الربَّ فَتَنَها. وعندئذ أتاح لها جلاله معرفة شقائها معرفةً حقّة فتمنَّت لو انذَ الجميع يعرفونها أيضًا. فاجتاحتها رغبة عارمةٌ في التألم حبًّا بالله حتى تمنَّت أن تقاسيَ ما احتمله الشهداء مجتمعين، وغمرها انسحاقٌ عميق من تواضع ومن كُرهِ الذات حتى كادت تشتهي أن تكون امرأةً سافلةً لينبذَها جميعُ الناس لولا ان في ذلك إهانةً لله. وهكذا بدأت تكره ذاتَها، وتشتدّ فيها رغبةٌ في التقشّف وضعتها من ثَمَّ موضعَ التنفيذ، فنذرت العفَّة والفقرَ حالاً، وتمنَّت أن تكونَ مستَعْبَدَةً، بل اشتهت بفرحٍ لو تساق إلى أرض المغاربة لتكون في الرقّ. وما برحت هذه الفضائل ملازمةً لها حتى ظهر جليًّا أنَّها منَّةٌ فائقةُ الطبيعة من لدن الربّ، كما سيقال لاحقًا، كي يسبّحه الجميع.

---

٣ Sancho Rodriguez de SANDOVAL.

٤ Doña Catalina GODÍNEZ.

٥ Doña Catalina GODÍNEZ.

٦ Doña Maria de SANDOVAL.

٧ أي "يسوع الناصري ملك اليهود" وتوضع عادة باختصار في اللاتينية INRI (م).

٨ حقّ البكرية: المركز الذي يحتلّه في نظام الاقطاع المولود البِكر فيَرث ممتكات والديه بنوع كلّي حفاظًا على وحدة الملكية (اقتباسًا عن **القاموس القانوني**، لمكتبة لبنان ١٩٨٨).

مناجاة الله وشكره

٧. مبارك أنت، يا الله، إلى أبد الآبدين، ما من في لحظة يَنقُض نفسًا ويُعيد تكوينَها. ما هذا، يا ربّ؟ بودّي لو أطرح الآن السؤال الذي طرحه عليك الرسل، حين شفيتَ الأعمى، قائلين: هل أخطأ أبواه؟ (يوحنا ٣/٩). أما أنا فأسأل: من تُراه استحقّ لها منّةً كهذه ساميّة ؟ – ليست هي؛ فقد ذكرتُ الأفكارَ التي حرّرتَها منها حين أتيتَها هذه المنّة –. آه، ما أعظمَ أحكامك، يا ربّ ! أنت تعرف ما تفعل، أما أنا فلا أَفقَهُ ما أقول، لأنّ أعمالك وأحكامك لا تُدرَك. فلتكن ممجَّدًا إلى الأبد، لأن قدرتك تستطيع المزيد. وما تُرى يكون من أمري لو لم تكن كذلك؟ ولكن... هل كان لوالدتها دورٌ ما ؟ فقد كانت مسيحيةً حقّة حتى يصحّ الاعتقاد أنك أردت، بجودتك ورأفتك، أن تُرى في حياتها فضائلُ ساميةٌ هذا السموّ في بناتها. وأفكّر أحيانًا، في أنك انّما تمنح مِننًا كهذه للذين يحبّونك، وتؤتيهم جزيلَ الخير هذا كوسيلة يخدمونك بها.

ضجّة صاخبة

٨. في هذه اللحظة، جدثت ضجةٌ صاحبةٌ فوق الغرفة حتي خيّل أنها تنهار. ولدا كأن تلك الضجّة كلَّها سقطت نحو الركن الذي كانت هي فيه، وسمعَتْ هديرًا شديدًا دام لحظاتٍ حتى إنّ والدها الذي كان ما زال نائمًا، كما قلت[٩]، انتابه خوفٌ عظيم، فبدأ يرتعد، وكمن أصابه مسٌّ من جنون، ارتدى ثيابه وامتشق سيفًا، فدخل الغرفة، فسألها بصوتٍ مضطربٍ ما الأمر. فأجابت انّها ما رأت شيئًا. فتفحّصَ عرفةً مجاورة؛ ولما لم يَرَ شيئًا، أمَرَها أن تمضي إلى أمّها، وأَوصى هذه أن لا تتركها بعد أن روى لها ما سمع.

ذعر الشيطان

٩. من هنا يُفهِمُ بوضوح ما يشعر به الشيطان ولا شكّ عندما يرى نفسًا تتحرَّر من سلطانه في حين يظنُّ نفسه قد ظفر بها؛ ولأنّه شرُّ عدوٍّ لكل ما هو خير لنا، فلا يثير عَجَبي أن يستشعر ذعرًا ويُفصِحَ عن رُعبه هذا الافصاح حين يرى الربَّ الرؤوف يُغْدِقُ على نفسٍ ما مننًا عديدة مجتمعة؛ خصوصًا وهو يدرك أنّه بسبب الغنى الذي أصابته تلك النفس، سيُحرمُ، كهذه، نفوسًا كان يعتبرها ملكًا له. فأنا على ثقة بأنّ ربّنا لا يمنح أبدًا منّةً عظيمة كهذه من دون أن تُصيبَ حصةٌ منها شخصًا غير الذي أُعْطِيَها. أمّا هي فلم تتحدّث قط عن هذا الأمر؛ لكنّها اضطرمت رغبةً في الدخول إلى الرهبانية، فألحَّت في السؤال على والديها. أما هما، فما وافقا قط على طلبها.

ارتداؤها زيًّا فقيرًا

١٠. وبعد أن كرَّرت طلبها طوال سنوات ثلاث، ورأتهما ثابتَين في الرفض، ارتَدَتْ ثوبًا وضيعًا يوم عيد القديس يوسف، وما أطلعت على الأمر إلاّ والدتها التي كانت تمكّنت من إقناعها بموافقتها على دخولها الرهبانية، لولا انّها خافت والدها. ومضت إلى الكنيسة بذلك الثوب آملةً أن لا يُلزموها بنزعه إذا شوهدت وهي مُرتديَةٌ إيّاه. وهذا ما حصل؛ إذ تجاوز والدُها الأمر. لقد خصّصت، خلال تلك السنوات الثلاث، ساعاتٍ للتأمّل، والتقشّف

٩ في العدد ٥.

في كل ما تستطيع، وكان الربّ يعلّمها. كانت تقضي وقتها في فناء فتبلّل وجهها وتعرّضه للشمس حتى إذا بشع منظرها نَفَرَ الطامحون إلى الزواج بها، وأقلعوا عن مضايقتها.

تقشّف صارم

١١. وبلغ بها الأمر أن عزفت عن إصدار أمرٍ لأيٍّ كان. ولما كانت تُدبّرُ شؤونَ البيت الوالدي وترى ان لا بدّ من إعطاء أوامر للنساء، كان يحدث أن تنتظرَ حتى يرقدْنَ فتقبّل أرجلهنَّ إذ يعزّ عليها أن يخدمْنَها وهنّ خيرٌ منها. ولهذا كانت تقضي نهارها إلى جانب والديها، فعندما يحين وقت النوم، كانت تمضي الليل كلَّه في التأمّل، حتى بدا مستحيلاً أن تصرفَ هذا الوقتَ الطويل وتنام قليلاً إن لم يكن بنعمةٍ فائقة الطبيعة. كانت تبالغ في التقشّف وجَلد جسدها لأنَّ لا أحدَ يرشدها، ولا تتداولُ الأمرَ مع أحد. من جملةِ ما فعلته أنّها حزمت جسمها طوال زمن الصوم بسلسلةِ من زَرَدٍ تخصّ أباها. وكانت تختلي في ناحيةٍ ما لتصلّي والشيطان يسخر منها جهارًا. وغالبًا ما بدأت تأملها في الساعة العاشرة ليلاً فلا تعود إلى ذاتها إلاّ وقد طلع النهار.

مصاعب وأعمال صالحة

١٢. قضت في هذه الرياضات سنواتٍ أربع، فبدأ الربّ يرسل إليها مصاعبَ أعظم، وأخذت بها أمراضٌ جسيمة جدّ مؤلمة: حمَّى مُطبقة، واستشفاء، ووجعُ قلب، وسرطانٌ[١٠] استئصل منها. الخلاصة، دامت هذه الأمراض سبعة عشر عامًا تقريبًا، عرفت فيها طعمَ الراحة أيّامًا قليلة. وبعد خمسة أعوام من منحها الله هذه المنّة، توفي والدها[١١]. وعندما بلغت أختها الرابعة عشرة – وذلك سنة بعد هذا التحوّل الذي عرفته هي – ارتدت أيضًا ثوبًا وضيعًا، مع انها تهوى الزينة أيّ هوىً، وبدأت تمارس التأمّل. وكانت أمّها تساعدها في رياضاتها الصالحة وفي رغائبها، فحَسُنَ لديهما أن تقوما بعملٍ فاضل جدًّا ولو أنّه لا يناسب مكانتهما، وهو أن تعلّما بناتٍ صغيراتٍ الخياطة والقراءَة من دون أن تتقاضيا منهنَّ شيئًا، بل رغبةً في تعليمهنَّ الدين والصلاة. فصنعتا خيرًا كثيرًا لأنّ فتياتٍ كثيراتس أقبلن عليهما، وما زلنَ حتى اليوم محافظاتٍ على العادات الصالحة، التي اكتسبْنَها وهنّ صغيرات. إلاّ أنَّ هذا العمل لم يدمْ طويلاً، لأنّ الشيطان الذي ساءَه العملُ الصالح دفعَ الأهل إلى أن يعتبروا مُذلاً تعليمَ بناتهم مجانًا. وهذا ما دفعهما إلى الكفّ عن التعليم خصوصًا أن الأمراض بدأت تشتدّ عليهما.

نصيحة بتأسيس دير

١٣. بعد موت والد هاتين السيِّدتين[١٢] بخمس سنوات، توفِّيت والدتهما. فما لبثت دونيا كاتالينا أن رغبت في دخول الرهبانية، وقد طالما شعرت بهذه الدعوة، إلاّ أنّها ما استطاعت أن تقنعَ والديها. وما كان في بياس دير، فنصحها أقرباؤها أن تؤسِّسَ ديرًا في قريتها، لأنّ الامكانيات اللازمة متوافرة، فيكون ذلك خدمةً كبيرة

١٠ هو سرطان في الصدر.

١١ في سنة ١٥٦٠، وتوفيت والدتها في سنة ١٥٦٥.

١٢ أي دونيا كاتالينا وأختها.

لربّنا. ولأنّ القريةَ تابعةٌ لمنظّمة مار يعقوب، فيجب الحصول على إذنٍ من مجلس المنظمات[١٣]. وعليه شرعت في إجراء المعاملات لطلب الإذن.

إصرار على التأسيس

١٤. صعُبَ الحصولُ على الإذن أيَّ صعوبة حتى انقضت أربعُ سنوات عانت في أثنائِها مشقاتٍ شديدةً، وتكلَّفت مصاريفَ طائلة، فما أجداها سعيُها نفعًا حتى رفعت طلبًا إلى الملك نفسه وتوسّلت إليه بالأمر. جرى ذلك على النحو التالي: حين بدت الصعوبة معجزة، نصحها أقرباؤها بإهمال المشروع لأنّ من الحمقِ الاستمرارَ فيه؛ وقالوا لها إنّها ما دامت تلازم الفراش دائمًا تقريبًا وتعاني أمراضًا شديدة، كما ذُكر سابقًا، فلن تُقبلَ كراهيةٍ في ايَّ دير من الأديار. فأجابت انه إذا أرجع إليها ربُّنا الصحّةَ في فترة شهر، فيجب أن يفهموا انه يرضى بذلك، وتذهب هي إلى العاصمة سعيًا وراء الإذن. وعندما أجابت بهذا، كان قد مضى عليها ستَّةُ أشهرٍ من دون أن تغادر الفراش، وثماني سنوات وهي تكاد لا تستطيع أن تفارقه. وفي هذه السنوات الثماني، كانت الحمى تلازمها فتُرى منهوكةً، مسلولةً، مستسقيةً، تُحرِقُ كبدَها نارٌ لاعجة، حتى انها كانت تحسّ النارَ فوق ثيابها تلتهم قميصها، وهو أمرٌ يكاد لا يُصَدَّق. وقد استفسرتُ، أنا، الطبيبَ عن هذه الأمراض التي كانت تعاني منها آنذاك، فارتعبَ لذِكرها. وكانت تعاني كذلك من داء المفاصل ومن عِرق النَسَا.

شفاء عجيب

١٥. عشية عيد القديس سيبستيان[١٤]، وكان يوم سبت، أَعاد إليها ربُّنا الصحّة تامّة، فما كانت تعرف كيف تُخفي ما حدث لئلا تُرى الأعجوبة؛ وروت أنَّ الربّ حين أراد شفاءَها أحدث فيها رعشةً باطنية جعلت أختها تظنُّ ان قد شارفت على الموت، وشعرت هي بتبدُّلٍ كبير جدًّا في حالها، وبتحوُّلٍ آخر في نفسِها لكثرة ما أصابها من تحسّن؛ وإنّما كانت الصحّة تسرّها أكثر ما تسرّها لتستطيعَ المضيَّ في السعي لإنشاء الدير، لأن احتمال الآلام لا يُؤثِّر فيها إطلاقًا. فمنذ أن دعاها الله، أخذت تكره ذاتها حتى ترى كلَّ شيء تافهًا. وتقول إنّ رغبةً في الاحتمال قويةً جدًّا رسخّتْ فيها حتى إنّها كانت تتوسّل إلى الله من كلِّ قلبها أن يمرِّسها فيه في كل حال.

علاجاتها المؤلمة

١٦. وما انفَكَّ جلالهُ يُتِمّ رغبتها هذه، ففُصِدَتْ[١٥] في هذه السنوات الثماني أكثر من خمسمائة مرّة، إضافةً إلى حجْمها وشرْطِها[١٦] مرارًا، وفي جسمها علاماتٌ تشهد على ذلك. وكان يُرَشّ أحيانًا ملحٌ على المحاجم لأن أحد الأطباء قال إن الملح صالحٌ لنزع السمّ من ألم الخاصرة، وقد عانت منه أكثر من عشرين مرّة. وأكثر ما

---

١٣ هو المجلس الأعلى الذي كان يدبِّر شؤون منظمات الفرسان في اسبانيا.

١٤ Sebastian ١٩ كانون الثاني / يناير ١٥٧٤.

١٥ الفَصد هو شقّ العِرق.

١٦ الحَجْم، العلاج بالمِحْجَم وهو معروف لدى العامة بـ"الحجايات"؛ كأس يُفْرغ من الهواء، ويوضع على الجلد فيجذب الدم بقوّة؛ والشَّرط هو الفَصْد، أو بالعامية "التشطيب"، وهما من الوسائل العلاجية القديمة المعروفة (م).

يثير العجب أنه ما إن كان الطبيب يصف لها أحد هذه العلاجات حتى تبدي رغبةً كبرى في أن تبلغَ الساعةُ التي يداوونها به من دون أن يعتريها أدنى خوف، بل كانت تشجّع الأطباء على استعمال الكيّ، وكثيرًا ما استعملوه لمعالجة السرطان؛ وفي مناسباتٍ أخرى اضطرّوا إلى اعتماده. وتقول إنَّ دافعَها إلى اشتهاء ذلك إنّما كان لتختبرَ صحَّةَ رغبتِها في الاستشهاد.

إخفاء شفائها

١٧. عندما رأت تحسّن حالها فجأة، بحثت الأمر مع معرّفها ومع الطبيب، فسألت أن تُنقَلَ إلى قرية أخرى ليستطيعا القول إنّ تغيير المناخ هو الذي شفاها. أمّا هما فرفضا؛ بل إن الأطباء نشروا الخبر، فقد كانوا يعتبرونها غيرَ قابلةٍ للشفاء، لأنّها كانت تنزف من فمها دمصا فاسدًا كريهًا، فاعتبروا انّها تتفل رئتيها. ومكثت في الفراش ثلاثة أيام لا تجرؤ على النهوض حتى لا يُكشَفَ أمر شفائها؛ لكن محاولتها هذه فشلت، لأن الشفاء كالمرض لا يمكن إخفاؤه.

أملٌ راسخ

١٨. قالت لي إنّها، في شهر آب الفائت، فيما كانت تسأل ربَّنا إمّا أن ينزعَ منها تلك الرغبة الجامحة في أن تصير راهبةً وتنشئَ الدير، وإمّا أن يعطيها وسائلَ لإنشائه، تأكّدَ لها عن يقينٍ أنّها ستكون في حالٍ جيّدة في زمن الصوم لتلتمس الإذن. وقالت أيضًا إنّها رغم تفاقم الأمراض عليها في ذلك الوقت أكثر من قبل، ما فقدت قطّ الرجاءَ بأنّ الربَّ سيمنحها هذه المنّة. ومع انها دُهِنَتْ بزيت مسحة المرضى مرتين، حتى انّ الطبيب في احداهما قال أن لا ضرورةَ لطلب زيت المسحة لأنها ستموت قبل وصوله، ما انقطع أملُها الراسخ في ربِّنا بأنّها ستموت راهبة. ولا أقول إنّها مُسِحَت بالزيت مرّتين في هذه الأثناء، أي بين شهر آب / أغسطس وعيد القديس سيبستيان، بل قبل ذلك.

وعندما رأى أخوتُها وأقاربها المنّة والأعجوبة اللتين صنعهما الربُّ معها بمنحها الصحَّة فجأة، ما تجاسروا على منعها من الذهاب، ولو أن ذهابها بدا حماقة. مكثت في العاصمة ثلاثة أشهر فلم تحصل على الإذن. لكن عندما رفعتِ الطلبَ إلى الملك فرأى أنّه يتعلّق براهبات الكرمل الحافيات، أمر حالاً بإعطائها الإذن.

تأسيس الدير

١٩. حين شُرِع في تأسيس الدير، بدا واضحًا انّها تفاوضت بشأنه مع الله لأنّ الرؤساء وافقوا على المشروع رغم بعده وقلّة ريعه. إنّ ما يريده جلاله لا يمكن الحؤول دون تحقيقه. وعليه فقد جاءَت الراهبات في أوائل الصوم سنة ١٥٧٥، فاستقبلهنّ الشعبُ باحتفالٍ كبير، وفرحٍ، وبتطواف. وكان السرورُ شاملاً؛ وقد أظهر الأطفال أنفسهم أنَّ هذا عملُ يطيب لربِّنا. وأنشئ الدير على اسم القديس يوسف للمخلص، في هذا الصوم بالذات يوم عيد القديس متِّيَّاس[١٧].

١٧ ٢٥ شباط / فبراير.

تقوى كاتالينا

٢٠. في اليوم نفسه، لبست الأختان الثَّوبَ الرهباني بسرور كبير. واستمرّت صحَّةُ دونيا كاتالينا في التحسُّن. ويأتي تواضعها، وطاعتها، ورغبتها في أن تكون محتقرةً، دليلاً واضحًا على أن رغباتها كانت خالصةً في سبيل خدمة ربّنا. فليكن ممجَّدًا إلى أَبد الآبدين !

حلمٌ نبوي

٢١. قالت هذه الأخت في ما قالته لي إنّها نامت ذات ليلةٍ وهي تتمنّى أن تجد أكملَ رهبانيةٍ على الأرض لتنخرطَ في سِلكها. وبدأت تحلم، فتصوَّرت أنَّها تسير في طريق طيّق جدًّا تحيط به المهاوي العميقة الخطرة، فرأت راهبًا من الحفاة[١٨]، قالت فيما بعد، حين شاهدت الأخ يوحنا البائس، – (وهو أخ مساعد في الرهبانية ذهب إلى بياس عندما كنتُ هناك – إنّه هو [الراهب]، الذي رأته وقال لها: "تعالي معي يا أُختاه". فاقتادها إلى بيتٍ فيه عدد كبير من الراهبات، ولم يكن في ذلك البيت إلاّ نورُ شموعٍ مضاءَة يحملنها في أيديهنَّ. فسألت ما تكون تلك الرهبانيَّة. فسكتت جميع الراهبات ورفعن الحجاب، فإذا وجوههنَّ فَرحَة ضاحكة. وتؤكِّد أنّها شاهدت وجوهَ الأخوات إيّاهنَّ اللواتي شاهدتهنَّ الآن، وإن الرئيسة أخذتها بيدها وقالت لها: "أريد أن تكوني هنا، يا ابنتي"، وعرضت عليها **الرسوم والقانون**. أفاقت من نومها في حالٍ من السرور حسبت نفسها معه انّها كانت في السماء، وكبت ما تذكَّرته من **القانون**. ومضى زمنٌ طويل من دون أن تُطلعَ معرِّفَها أو أيَّ شخصٍ آخر على الأمر، وما كان أحدٌ يستطيع أن يُطلعها على هذه الرهبانية.

اكتشافها الرهبانية

٢٢. وجاء إلى هناك أحد الآباء اليسوعيين وكان مطَّلعًا على رغائبها، فأبرزت له الورقة، وقالت له إنَّها إذا وجدت تلك الرهبانية تكون مسرورةً لأنّها ستنخرط فيها حالاً. وكان ذلك الأب مطَّلعًا على أمر هذه الأديار، فقال لها إنّ ذلك **القانون** هو قانون رهبانية سيّدة الكرمل، ولو انه لم يزد توضيحًا لإفهامها إلاّ قوله إنّها الأديار التي أنشأتُها؛ وعليه، بعثت أليَّ رسولاً، كما قلت.

توسّل حارّ

٢٣. عندما جاؤوها بجوابي، كانت في حال يُرثى لها؛ فطلب إليها معرّفها أن تستكين، لأنّها لو وُجدَت في الدير لأخرجوها منه، فبالأحرى أن لا يقبلوها الآن. أمّا هي فحزنت جدًّا، ورجعت إلى ربّنا متلهّفةً إيَّ تلهّف وقالت له: "يا ربّي وإلهي: إنّي أؤمن بأنّك قادرٌ على كلّ شيء؛ فيا حياةَ نفسي، إمّا ان تنزعَ منّي هذه الأشواق، وإمّا أن تعطيني الوسائط لأحقِّقها"؟ وكانت تقول هذا بثقة بالغة متوسِّلة إلى سيّدتنا، بحقِّ آلامها حين رأت ابنها ميتًا في ذراعيها، أن تكونَ هي شفيعتها؛ فسمعت صوتًا في داخلها يقول لها: "آمني وثقي بي، فأنا القادر على كلّ شيء؛ إنّك ستتعافين؛ فإن الذي قدر على ان يُنزل بك أمراضًا كثيرة كهذه، وكلّها بذاتها مميتة، وأمرها ان لا تفعل فعلها، أسهل عليه أن ينزعها منك". وتقول إن هذه الكلمات قيلت لها بقوّة وتأكيد بحيث ما استطاعت أن

---

١٨ **الحفاة** هو لقب أطلق على الراهبات والرهبان الكرمليين الذين دخلوا في إصلاح القديسة تريزا ليسوع، **والمنتعلون** (ف ١٢/٢٣) صار لقب الرهبان الذين مكثوا على نمط الرهبانية القديم (ش. ر.).

تشكّ في تحقُّق رغبتها، ولو ان أمراضها تضاعفت وتضاعفت قبل أن يعيد إليها العافية كما قلنا. وفي الحقيقة، فإنّ ما حدث يبدو أمرًا لا يُصَدَّق. ولولا انني استعلمتُ الطبيبَ واللواتي كنَّ في منزلها وأشخاصًا آخرين، لَمِلْتُ إلى الظنّ، على حقارتي، أنّ في الأمر مبالغة.

تجرّدها تواضعها

٢٤. ورغم ضعفها، فانَّ صحّتها الآن تسمح لها بالمحافظة على القانون وهي مرؤوسٌ صالح، تمتاز بفرحها العظيم، وتُفْصِح في كل حال، كما قلت، عن تواضع يدفعنا جميعًا إلى حَمْد ربّنا. ووهبت الأختان جميع أموالهما للرهبانية من دون شرط؛ بل لم تضعا شرطًا في حال لم تُقْبلا فيها. و[كاتالينا] متجرّدة تجرّدًا كبيرًا عن أقربائها وأرضها، وتُبدي رغبةً كبيرةً في الابتعاد عنهم وعنها، فتُلحّ على الرؤساء كثيرًا في هذه المسألة؛ لكنّها مطيعة أيَّ طاعة فتبقى حيث هي على سرور. ولهذا السبب نفسه، حين لبست الثوب، ما أمكن اقناعها بأن تكون من راهبات الخورس، بل من الأخوات المساعدات. فكتبتُ إليها، وبسطت أمورًا عديدة، بل وبَّختها لأنها تريد ما يخالف إرادة الأب الرئيس الاقليمي، وهذا ما لا يزيدها استحقاقًا، إلى جانب أشياء أخرى وجَّهتُها إليها بلهجة قاسية. وانها لتشعر بسرور أكبر حين تخاطَب بهذه اللهجة. فتغلَّبتُ عليها بهذه الحُجج ولو على خلاف إرادتها. ولست أرى في هذه النفس أيَّ شيء لا تسعى به لإرضاء الله. وهو ما تقصده مع جميع الأخوات. أَلا رضي الله ان يأخذها بيده، وينمّي فيها الفضائل والنعمة التي أعطاها إيّاها لمزيدٍ من خدمته وإكرامه. آمين.

الفصل الثالث والعشرون

في تأسيس دير القديس يوسف المجيد للكرمليات في مدينة اشبيلية، وقد أقيم فيه أول قدّاس يوم عيد الثالوث الأقدس في سنة ١٥٧٥.

بدء الحديث عن غراثيان

١. بينما كنت أنتظر في مدينة بياس هذه، الإذنَ من مجلس المنظّمات لتأسيس دير كاراڤاكا، جاء لمقابلتي أحدُ آباء رهبانيتنا من الحفاة ويدعى المعلم ايرونيموس لأمِّ الله، غراثيان، وكان لبس ثوبنا في ألكالا منذ سنوات قليلة. انّه رجلٌ ذو علمٍ وافر، وعقلٍ ثاقب، ودعةٍ طاهرة؛ وقد أظهر طوال حياته فضائلَ رفيعةً؛ فكأنّ سيِّدتنا اختارته لخير هذه الرهبانية القديمة العهد، وهو في ألكالا أبعدُ ما يكون عن أن يلبسَ ثوبنا، لكن ليس ببعيدٍ عن أن يصير راهبًا. فلئن كانت لدى والديه مشاريعُ أخرى لأنّهما ينعمان برضى الملك ويريان فيه ذكاء كبيرًا، فإنّه كان غريبًا عن [مخططاتهما]. فمنذ أن بدأ دراسته، أراده والدُه ان يتّجه إلى الحقوق. أمّا هو، على حداثة سنّه، فقد حزن أيَّ حزن، واستطاع بقوَّة دموعه أن يُقنَعه بأن يدعه يدرس اللاهوت.

رغبته في دخول الرهبانية

٢. حين حصلَ على الملفنة في اللاهوت، حاول الدخول في الرهبانية اليسوعية فقُبِل فيها؛ لكن بسبب ظرفٍ ما طُلب إليه أن ينتظر أيّامًا. قال لي إن حياة الرفاهية التي كان يعيشها كانت تقلقه لأنّه لا يرى فيها طريقًا صالحًا يؤدّي إلى السماء. كان يمارس التأمّل ساعات، ويبالغ في الاختلاء والحشمة.

رغبته في تعرّف الرهبانية

٣. في هذه الأثناء، دخل رهبانيتنا في دير پاسترانا صديقٌ له كبير هو الأخ يوحنا ليسوع[1]، ملفانٌ في اللاهوت مثله. لا أدري ما إذا كانت رسالةٌ كتبها إليه بهذه المناسبة حول قِدَمِ رهبانيتنا وعظمتها، أو سببٌ آخر بعث فيه لذّةً كبرى أيَّ لذّة لمطالعة كلِّ ما يتعلَّق بها والتثبُّت منه في تصانيف كبار المؤلفين، حتى إنّه كثيرًا ما كان ضميره يَخِزُه لتركه دراسةَ أشياء أخرى لأنّه لم يكن يستطيع الإنصرافَ عن هذه، فكان يخصِّص لها أوقاتَ فراغه. فيا لحكمة الله وسلطانه ! ما أعجزنا عن الهرب من إرادته ! لقد كان ربُّنا يرى الحاجة الكبرى إلى شخصٍ مثله في المؤسسة التي كان جلاله قد بدأ بإنشائها. إنّي لأحمده غالبًا على المنّة التي صنعها معنا في هذا الشأن. فلو انني أَلْحَحْتُ في طلبي إلى جلاله أن يؤتينا شخصًا ينظِّم جميعَ أمور الرهبانية في مستهلِّ عهدها، لما أصبتُ في أن أطلبَ بقدرِ ما أعطانا جلاله. فليكن مباركًا دائمًا.

[1] من عائلة روكا، وكان زميل دراسة لغراثيان في جامعة ألكالا.

معونة العذراء

٤. لقد كان بعيدًا عن ذهنهِ كلُّ البعد أن يلبس هذا الثوب حين طُلِبَ إليه أن يذهب إلى پاسترانا ليباحثَ رئيسة دير رهبانيتنا، بقبول إحداهنَّ راهبةً فيه، وذلك قبل أن يُنقَلَ الديرُ من هناك. ما أعجب الوسائط التي تستخدمها العزّة الإلهية ! فلو انه صمّم أن يمضي إلى هناك ليلبس الثوب، لكان صادف كثيرين ينْهونه عن ذلك، ولما فعل فطّ. إلاّ ان العذراء سيّدتنا، التي يتعبّد لها أشدّ العبادة، ارادت أن تكافئه بتقديمها ثوبها له. وعليه فإخالها كانت الوسيطةَ ليمنحه الله هذه المنَّة؛ بل إنّ هذه العذراء المجيدة كانت السببَ في اتخاذه الثوب، وفي تعلّقه الشديد بالرهبانية. إنّها لم تشأ أن تَفوتَ فرصةُ العمل من يرغب رغبةً قويةً في خدمتها، لأنّ من عاداتها أن تساعد من يؤدّون الالتجاء إليها.

إكرامه للعذراء

٥. في صباه، غالبًا ما كان يمضي ليصلِّي أمام صورةٍ لسيّدتنا يكنّ لها إكرامًا كبيرًا، ولست أذكر المكان. كان يدعوها "معشوقتَه" ويُكثر من زياراته لها. وكانت هي تنالُ له، ولا شكّ، من لدن ابنها، نقاوةَ الحياة التي عاش فيها دائمًا. ويروي أنّه تصوّر عينيها أحيانًا تورَّمتا من البكاء بسبب الإهانات الكثيرة التي تَلْحَقُ بابنها. فَمِنْ ثمَّ تولّدَ فيه اندفاعٌ قويٌّ ورغبةٌ جامحةٌ في معالجة النفوس، وأَسَفٌ بالغٌ لدى رؤيته الله يُهان. ويدفعه ميلٌ شديدٌ إلى هذه الرغبة في خير النفوس فيرى أيَّ مشقّةٍ يسيرةً حين يفكِّر في أنّها قد تعطي ثمرًا. ولقد شهدتُ عيانًا مشقاتٍ شديدةً قاساها.

مكافأة الله

٦. كأنَّ العذراء قادته إلى پاسترانا بالحيلة. فقد ظنّ هو أنّه ماضٍ ليلتمس الثوبَ للراهبة فيما الله مضى به ليعطيه له. يا لأسرار الله ! ويا لإعدادِه إيَّانا من دون أن نريد الأمر كي يعطينا منَّته، وكي يكافئ هذه النفس على أعمالها الصالحة، وعلى المثل الصالح الذي أعطته دائمًا، وعلى رغبتها الشديدة في خدمة والدته المجيدة ! إنّ جلاله ليؤدّي دائمًا أجرًا وافرًا عن أعمالٍ كهذه.

لطف معشره

٧. عندما وصَل، إذاً، إلى پاسترانا طلب إلى الرئيسة أن تقبل تلك الراهبة، وكأنّه سألها أن تلتمس من ربِّنا كي يدخلَ، هو أيضًا، رهبانيَّتَنا. عندما شاهدته الرئيسة ظهر لها لطفُ معشره بحيث إنّ الذين يتعاطون معه يحبّونه، – وهذه نعمة يعطيها ربُّنا –؛ وعليه فإنّ مرؤوسيه ومرؤوساته جميعًا يحبونه للغاية. فمع انّه لا يتغاضى عن أيِّ خطأ — فهو شديدُ القساوة في ما يتعلّق بتقدّم الرهبانية –، فإنّما يفعل ذلك بحلاوةٍ عذبةٍ أيِّ عذوبة تُعْجِز أيًّا كان عن التشكّي منه.

أمنية الرئيسة

٨. حدث لهذه الرئيسة ما حصل للآخرين، فتمنّت بحرارة لو يدخل الرهبانية وأعربت عن أمنيتها هذه للأخوات وسألتهنَّ أن يقدّرن كم يهمّهنَّ الأمر، إذ إنّ الذين يوازونه إذ ذاك قليلون جدًّا أو يكاد لا يوازيه أحد، وان يطلبن جميعًا إلى ربِّنا أن لا يدعه يرجع من دون أن يلبسَ الثوب.

قبوله النداء بسرعة

إنّ هذه الرئيسة تخدم الله خدمة حقًّا، فأَعتقد أنَّ جلاله كان ليسمع صلاتها وحدها. فكم بالحري يسمح صلواتِ نفوسٍ كثيرةِ الصلاح كتلك القريبة من جلاله ! لقد أَوْلَتْ جميعُهنَّ الأمرَ اهتمامًا كبيرًا. فرحنَ يطلبنه من جلاله بالصوم، وجلد الجسد، والصلاة، فتلطَّف واصطنع هذه المنّة معنا وعندما ذهب الأب غراثيان إلى دير الرهبان ورأى وفورَ التقوى والنظام في خدمة ربِّنا، خصوصًا ان الرهبانية على اسم أمّه المجيدة التي كان يتوق إلى خدمتها، بدأ قلبه يخفق كي لا يرجع إلى العالم. أمّا الشيطان، فكان يثير في وجهه الصعاب، وبنوع خاص الحزنَ الذي سيأخذ بوالديه اللذين يحبّانه حبًّا جمًّا، واللذين يثقان ثقةً كبرى بأنّه سيساعد على إعالة أولادهما، وكان لهما كَثرةٌ من البنات والبنين؛ وأمّا هو، فألقى الاهتمام بهذا الشأن على الله لأنّه أزمع أن يتركَ كلَّ شيء من أجله، فعزم على أن يكون خاضعًا للعذراء ويلبسَ ثوبها. فألبسوه إيّاه والجميع مبتهجون، خصوصًا الراهبات والرئيسة اللواتي كنَّ يرفعن آياتِ المديح لربِّنا، وفي ظنّهنَّ أنَّ جلاله أعطاهنَّ هذه المنّة بفضل صلواتهنّ.

تواضع وصبر

٩. خلال سنة الامتحان، أبدى من التواضع أكثر ممّا يبدي أصغرُ المبتدئين. واختُبرت فضيلتُه خصوصًا في زمن غاب فيه الرئيس فقام مقامه راهبٌ فتيّ[٢]، غيرُ ذي علم، قليلُ الفهم والفطنة في التدبير، عديمُ الخبرة لأنّه حديثُ العهد في الرهبانية. كان يقتد الرهبان بشدّة ويفرضُ عليهم اقصى التقشّفات؛ ويصيبني الذهولُ كلما تذكَّرت ذلك وكيف استطاع احتماله، خصوصًا أشخاصٌ مثل [الأب غراثيان]؛ فقد كان يلزمه الروح الذي يعطيه الله كي يستطيعَ الاحتمال. وقد لوحظ فيما بعد أن ذلك الراهب سيطرت عليه الكآبة ولم يستطع أن يتحرَّرَ منها، حتى إنّه الآن يثيرُ صعوبات مع انه مرؤوس. فما أكثر ما كان يثيرها وهو رئيس ! فهو أسير مزاجه على كونه راهبًا صالحًا؛ والله يسمح أحيانًا بخطأ تعيين أمثاله ليدفع فضيلة الطاعة في الذن يحبّهم إلى الكمال.

تجاربه الخطيرة وأمانته

١٠. ولعلّ هذا ما حصل في هذه الحال. فإنّ الله، مكافأة منه للأب ايرونيموس لأمّ الله، أتاه نورًا عظيمًا في شؤون الطاعة كي يعلّمها لمرؤوسيه، باعتباره مارسَها منذ البدء ممارسةً ممتازة. وكي لا تفوته الخبرة في كلِّ ما نحتاج إليه، فقد لقيَ تجاربَ خطيرةً جدًّا خلال شهورٍ ثلاثة قبل إبرازه النذور. أمّا هو، فلأنه كان مدعوًّا لأن يصير قائدًا صالحًا لأبناء العذراس، فقد دافع عن نفسه خير دفاع، حتى إنّه حين كان الشيطان يشدّد التضييقَ عليه كي

٢ هو الأب انخل للقديس جبرائيل، وقد عالج الأمر بوداعة وحنكة الأب يوحنا الصليب.

يخلع الثوب، كان يقاومه بوعده إن لا يتخلّى عنه وان يحفظَ نذوره. وقدَّم لي مؤلَّفًا وَضَعَه حول تلك التجارب الشديدة فحرّك فيَّ روح التقوى؛ وتُرى في هذا المؤلَّف القوَّة التي كان ينفحه بها الربّ.

ثقته بالأم تريزا

١١. قد يخال وقاحةً إفصاحُه لي عن شؤون خصوصيَّة جدًّا عن نفسه؛ ولعلَّ الربّ رضي بذلك لأثبته هنا فيمجَّد في خلائقه؛ وأنا أعرف أنّه لم يكشفْ عن هذه الأمور لشخصٍ آخر، بل حتى لمعرّفه. وقد توافرت المناسبة أحيانًا، فاعتَبَرَ أن تقدّمي في السنّ وما سمعه عنّي أتاحا لي بعض الخبرة. وكان يروي لي هذه الأشياء بمناسبة حديثنا في بعض شؤون، ويُرفقها برواية أمورٍ أخرى لا أثبتها هنا خوفًا من الإطالة.

الرهبان في بداية الإصلاح

١٢. في الحقيقة، لقد أمسكتُ بيدي وكبحتُها لئلا يسوءَه الأمر إذا ما وقعَ ذاتَ يوم في يده ما كتبت. غير أني ما استطعتُ، ولم يخطُر لي، أن أُغفِلَ ذكرَ من أسهمَ أحسنَ إسهامٍ في تجديد القانون الرهباني القديم — لأنّ ما كتبتُ سيُطالَع، إذا طولع، في مستقبل بعيدٍ جدًّا –. ورغم انّه لم يكن أولَّ من شرع في هذا التجديد، فقد جاء في الوقت المناسب بحيث كنت لآسفَ أحيانًا لأنني باشرت به لو لم تكن لديَّ ثقةٌ عظمى برحمة الله. وإنّما أعني بكلامي هذا أديرة الرهبان، فإنّ أديرةَ الراهبات سارت بفضله دائمًا إلى الآن سيرًا حسنًا. أمّا أديرة الرهبان فلم يكن وضعُها شيّئًا، إنّما كان يمكن أن تؤولَ إلى انحطاطٍ سريع. فلمّا لم تكن تشكّل مقاطعةً مستقلة، كانت خاضعةً للمنتعلين؛ ومن كان باستطاعته أن يقوم بالتدبير، وهو الأب أنطونيو ليسوع الذي باشر التجديد، لم تُطلَق يده. وكذلك لم يَسنّ لهم أبونا العام الجزيل الاحترام قوانين. ففي كلِّ دير كانوا يفعلون ما يحلو لهم. وقد نشأت مصاعبُ جمّةٌ قبل أن تُعطى لهم قوانين ويتدبّروا شؤونهم بأنفسهم، لأنَّ البعض كانوا يرون رأيًا، والآخرين رأيًا آخر. فكنت أعاني الإرهاق بسببهم أحيانًا.

الأب ايرونيموس مفوَّض رسولي

١٣. وعالج الوضع ربُّنا بواسطة الأب المعلّم ايرونيموس لأمّ الله، الذي عُيّنَ مفوَّضًا رسوليًا وأعطي سلطةً ليدبّر شؤونَ الحفاة والحافيات؛ فوضع قوانين الرهبان؛ أمّا نحن فلم يضع لنا مثلها لأنّه كانت لنا قوانين من وضع أبينا العام الجزيل الإحترام؛ وإنّما وضعها لهم بالسلطان الرسولي الذي كان ينعم به وبفضل المواهب التي آتاه الربّ كما ذكرت. وفي أول مرّةٍ زارهم وضعَ كلَّ شيء في جادّة الصواب والتنسيق التام، فبدا واضحًا أنّ العزّة الإلهية تساعده وأنّ سيدتنا اختارته ليعالجَ أمر الرهبانية. فإليها أضرع بحرارةٍ أن تنالَ من ابنها دائمًا مساعدتَه له ونعمتَه كي يمضي قدمًا في خدمته. آمين.

الفصل الرابع والعشرون

تابع تأسيس دير القديس يوسف للراهبات الكرمليات في مدينة اشبيلية.

زيارة الأب غراثيان

١. عندما زارني الأب المعلم ايرونيموس غراثيان في بياس، كما ذكرت، ما كنا قد التقينا من قبلُ رغم أنيّ كنت أتمنّى بحرارة هذا اللقاء؛ لقد تراسلنا أحيانًا. سُعِدْتُ غايةَ السعادة حين علمت بوصوله لأنّني كنت أشتهي ذلك كثيرًا للأخبار الطيّبة التي بلغتني عنه؛ لكنّني فرحتُ أكثر فأكثر عندما شرعتُ في التعاطي معه، لأنّه سرّني أيَّ سرور، حتى بدا لي أن الذين أثنوا عليه أمامي ما عرفوه.

تعيينه مفوَّضًا

٢. ولما كنت مُنْهكةً، فقد خيّل إليّ، ما إن رأيته[١]، أنَّ الربّ مثّل لي الخير الذي سنجنيه بواسطته. نعمتُ في تلك الأيام بأقصى ارتياح وسرور حتى كنت أَدهَشُ من حالي. ولم يكن إذ ذاك مفوَّضًا إلاّ على إقليمَ الأندلُس؛ لكنّه حين كان في بياس، استدعاه القاصد [الرسولي] لمقابلته، ففوّض إليه حينئذٍ أمرَ الحفاة والحافيات في مقاطعة كاستيليا. فاغتبطت روحي أيَّ غبطة لم أعد أنفكّ معها من شكر ربّنا في تلك الأيام، وما كنت لأتمنّى أن أصنع شيئًا آخر.

الإذن بتأسيس كاراڤاكا

٣. في هذه الأثناء، جيء لنا بالإذن بتأسيس دير في كاراڤاكا؛ لكنّه كان مخالفًا لمقتضيات مشروعي؛ فَلزِمَ أن يُعادَ إلى العاصمة. وكتبتُ إلى المؤسِّسات بأنّ الدير لن يؤسَّسَ ما لم يطلبْنَ تضمينَ الإذن بعضَ تفاصيل خاصّة ناقصة؛ وعليه وجبت إعادته إلى العاصمة. ورأيتُ أنَّ الانتظار هناك سيطول كثيرًا فيما كنت أودّ العودة إلى كاستيليا؛ إلاّ ان الأب ايرونيموس كان هناك، ولسلطانه، كمفوّض على اقليم كاستيليا كلّه، يخضعُ ذلك الدير، فما كنت بالتالي أستطيع شيئًا من دون إرادته؛ فعرضتُ الأمر عليه.

قرار بتأسيس اشبيلة

٤. فرأى أنيّ لو ذهبت فإن تأسيسَ دير كاراڤاكا لن يتحقَّق؛ ورأى أيضًا ان تأسيس دير في اشبيلية يؤدّي خدمةً عظمى لله، وأنّ إنشاءَه سهلٌ جدًّا؛ فقد طلب إليه ذلك بعضُ الأشخاص من ذوي الثراء وهم مستعدّون لأن يقدّموا بيتًا فيما بعد. ورئيس أساقفة أشبيلية كان يساعد الرهبانية مساعدةً كبرى، فاقتنع بأن تلك خدمةٌ كبرى تؤدَّى لها. فتقرَّر أن تمضي إلى اشبيلية الرئيسةُ والراهبات المعيّنات للذهاب إلى كاراڤاكا. أمّا أنا فقد رفضت ُ دائمًا رفضًا قاطعًا إنشاءَ أديرة في الأندلس لعدّة أسباب؛ فلو عرفت قبل ذهابي إلى بياس أنّها تقع في

---

١ جرى هذا اللقاء في بياس في نيسان / ابريل من سنة ١٥٧٥.

اقليم الأندلس، لما كنتُ ذهبت إليها بأيِّ حال؛ أمّا الخطأ فيعود إلى أنَّ المدينة ليست جزءًا من الأندلس التي تبدأ حدودُها على أربع أو خمس غلوات منها، لكنّها تابعة للإقليم. إزاءَ قرار الأسقف، رضختُ حالاً – وربُّنا يؤتيني نعمةً بأن أعتقد [أن الرؤساء] يصيبون في كلّ شيء –، مع اني كنتُ مصمِّمةً على القيام بتأسيس آخر؛ بل كانت لديّ بعضُ أسبابٍ خطيرة جدًّا كي لا أذهب إلى اشبيلية.

رحلة التأسيس

٥. بدأنا حالاً بإعداد الرحلة لأنّ موسم الحرّ الشديد لاحت طلائعه. ومضى الأب غراثيان، المفوّض الرسولي، يلبّي دعوةَ القاصد؛ أما نحن فمضينا إلى أشبيلية يصحبُنا رفاقي الصالحون الأب خوليان دي أڤيلا، وأنطونيو غايتان، وراهب من الحفاة. مضينا في عرباتٍ مغطّأة، على عادتنا الدائمة في أسفارنا. ولدى وصولنا إلى النَّزْل كنّا نستأجر أيَّةَ غرفة، جيّدةً أو سيئة، وتستلم إحدى الأخوات عند الباب ما نحتاج إليه، لأن الذين كانوا يصحبوننا في السفر، أنفسهم، ما كانوا ليدخلوا.

مشقَّات السفر

٦. وجَدَدْنا في السّير فبلغنا أشبيلية يوم الخميس السابق عيد الثالوث الأقدس[٢] بعد أن قاسينا حرًّا شديدًا؛ ورغم أنّنا كنّا نتوقَّف ساعةَ القيلولة، فإنّي أؤكّد لكنّ، يا أخواتي، أنّنا، لدى عودتنا إلى المركبات التي سلّطت الشمس عليها حرارتها، كنّا وكأنّنا ندخل المطهر. كانت أولئِك الأخواتُ يمضين بسرورٍ وفرح عظيمين، يفكّرن في الجحيم حينًا، أو يعتبرن أنهنَّ يعملنَ أو يقاسين شيئًا في سبيل الله. وكانت رفيقاتي الستّ نفوسًا ممتازة حتى لكنتُ، فيما أظن، تجرَّأتُ على أن أمضيَ معهنَّ إلى بلاد الأتراك، ولكنّ امتلكْنَ القوَّة، أو على الأصح، لكان ربُّنا أعطاهنَّ إيّاها ليتعذّبن من أجله. فهذه كانت رغباتهنَّ وموضوع أحاديثهنَّ، وهنَّ متمرّسات بالتأمُّل والتقشّف. ولما كنَّ سيُقِمْنَ في مكانٍ بعيد، فقد سعيتُ لأن يكنَّ ممن أعتبرهنَّ أكثر كفاءَةً لهذا الغرض. كان كلُّ ذلك لازمًا كما ظهر من معاناة المشقّات؛ ولن أذكرَ بعضها، ولا أكبرَها، لأنّها قد تسيء إلى شخصٍ ما.

حمّى شديدة

٧. عشيَّة عيد العنصرة[٣]، امتحنهنَّ الله محنةً شاقَّة بأن أنزل بي حمّى شديدةً جدًّا. وفي اعتقادي أن أدعيتهنَّ إلى الله حالت دون أن يتفاقَمَ أَذى البُرَحاء[٤]؛ فما أخذتني حمَّى في حياتي قطّ إلاّ وازداد أذاها وطال. وكان من أثرها هذه المرَّة أنّني كنت فاقدة الوعي فكأَنْ قد غلبني نعاسٌ ثقيل. ورحنَ يرششنَ وجهي بالماء، والماءُ ساخنٌ أي سخونة من الشمس فقلّما يبرّدني.

٢ ٢٦ أيار / مايو ١٥٧٥.

٣ في ٢١ أيار / مايو ١٥٧٥.

٤ أي الداء.

ضيافة مزعجة

٨. لن أتوانى عن أن أرويَ لكنَّ سوءَ حال النزل في هذا الظرف. لقد قُدِّمت لنا تتخيتة تحت السقف لا نافذة فيها، وإذا فُتِحَ بابُها غمرتها الشمس. ولاحِظن أنَّ الشمسَ هناك ليست كشمس كاستيليا، بل إنّها أشدّ وأشدّ إزعاجًا. طرحوني في فراشٍ كان أفضل منه انطراحي على الأرض، فهو في ناحيةٍ ناتئٌ جدًّا وفي ناحيةٍ أخرى منخفضٌ كثيرًا، فأحارُ كيف أنام، فكأنّه مصنوعٌ من حجارة مسنَّنة. ما أرهب المرض ! كلّ شيء يحتمل مع العافية. وفضّلت في آخر الأمر أن أنهضَ فنغادرَ المكانَ إذ اعتبرتُ احتمالَ شمسِ الريف خيرًا من تلك التتخيتة.

من محنة إلى محنة

٩. يا لمصير البائسين المهول، الساكنين في جهنّم لا يتغيّر حالُهم أبداً ! فنحن رغم انتقالنا من محنةٍ إلى محنةٍ أخرى نشعر أحيانًا ببعض الفرج. لقد حصل لي ذات مرَّة ألمٌ شديد جدًّا في ناحية، فلو انتابني في ناحية أخرى ألمٌ يوازيه ثقلاً، لكنتُ رأيت في انتقاله ارتياحًا. وهذا ما حصل هنا. لا أذكر أنّني أسفتُ مرَّةً، فيما أذكر، عندما يُصيبني مرض؛ بل إن الأخواتِ كنَّ يقاسين من ذلك أشدّ ممّا أقاسي؛ وحَسُنَ لدى الربّ أنّ الألم المبرّح ما استمرّ أكثر من ذلك النهار.

مأزق النهر الكبير

١٠. قبَيْل ذلك بيومين، فيما أعتقد، حصل لنا شيء آخر سبَّب لنا مأزقًا ونحن في زورقٍ نجتاز النهرَ الكبير[٥]. ما كان ممكنًا أن تمرَّ العرباتُ حيث الحبال ممدودةٌ، بل مداورة في النهر، ولو انَّ الحبل كان يؤدّي بعض المساعدة ونحن نواريه أيضًا. وحدث أنَّ الممسكين بالحبل أفلتوه، أو لا أدري كيف جرى الأمر، فانحرف الزورقُ الحاملُ العربة بلا حبال ولا مجاذيف. فكان أسفي لرؤيتي النوتيَّ مُرْهَقًا أشدَّ من لهفي من الخطر. فَرِحْنا، نحن، نصلّي، فيما الآخرون جميعًا يطلقون صياحًا عاليًا.

الخلاص من الورطة

١١. كان رجلٌ نبيلٌ ينظر إلينا من قصر قريب، فثارت شفقتُه، فأر سل أَحدَهم ليساعدنا، وكان الحبلُ ما زال موجودًا، وأخوتنا[٦] ممسكين به بكلِّ قواهم؛ إلاَّ أنَّ قوّةَ الماء كانت تجرّهم جميعًا وتطرح أحدهم أرضًا. وفي الحقيقة، أثّر فيَّ ابنُ النوتيَّ تأثيرًا كبيرًا، فلن أنساه أبدًا. كان في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره فيما أظنّ، وكان ما يعانيه من رؤيته كدَّ والده يجعلني أسبّح ربّنا. لكنّ جلاله يؤتي المشقَّة بلطف، وهذا ما فعله في هذه الحال، إذ جنحَ الزورقُ إلى شطٍّ رمليّ، وكان الماء في جهةٍ منحسرًا، فتخلّصنا من الورطة. ولكان صَعُبَ علينا أن نهتديَ إلى الطريق، لأن الليل منسدلٌ، لو لم يُرشِدنا ذاك الذي جاءَ من القصر.

ما خطر ببالي أن أروي هذه الأمور، فهي قليلة الأَهمية، وإلاّ لاستطعتُ أن أرويَ الكثيرَ عن أحداث السفر السيئة. لكن أُلحَّ عليَّ كي أطيل الكلام في هذا الموضوع ففعلت.

---

٥ Guadalquivir.

٦ المذكورون هم الأب غريغوريوس نازينزينو، ومعه خوليان دي آڤيلا وأنطونيو غَيتان.

مشكلة عبور الجسر

١٢. إنّ ما حدثَ لنا في آخر يوم من عيد عنصرة الروح القدس، كان لي محنةً أقسى ممّا ذكرت. جَدَدْنا في السير أيَّ جدّ كي نصلَ إلى قرطبة صباحًا فنسمعَ القداس ولا يرانا أحد. وإمعانًا في الإنفراد، توجَّهنا إلى كنيسةٍ في الجهّة الأخرى من الجسر. وعند محاولتنا العبور، لم يمكن معنا تصريحٌ لنجتازَ بالعربات، والتصريح يعطيه المحافظ. فانقضى أكثرُ من ساعتين إلى أن جِيءَ بالتصريح لأنّ المحافظ ما كان قد أفاقَ من النوم؛ فتقاطر جمهورٌ غفيرٌ واقتربَ من العربات محاولاً معرفة من فيها. وما همَّنا ذلك كثيرًا، فانّهم لا يستطيعون أن يَرَوا شيئًا لأنّ العربات كانت مغطَّاةً تمامًا. وعندما وصلَ التصريح، ما كان باستطاعة العربات أن تعبُرَ باب الجسر، فلَزِمَ أن تُنشَرَ أو أن يُعمَل ما لا أدري به، فمضت فترةٌ أخرى. وعندما وصلنا أخيرًا إلى الكنيسة حيث كان سيقيم الأب خوليان دي آقيلا القدّاس، كانت تغصُّ بالناس لأنّها مكرَّسةٌ على اسم الروح القدس، وهو ما كنّا نجهله؛ فالعيد احتفالي يتخلّله إلقاءُ عظة.

سماع القداس في الكنيسة

١٣. أسفت أسفًا شديدًا حين رأيت ما يجري، وكان من الأفضل برأيي، أن نمضيَ بدون أن نسمعَ القدّاس من أن نندسَّ وسطَ تلك الضوضاء. أمّا الأب خوليا دي آقيلا فخالفني الرأي؛ ولأنّه لاهوتي، اضطررنا جميعنا إلى أن نخضعَ لحكمه. أمّا سائر الرفاق فلعلَّهم كانوا اتَّبعوا رأيي فكان أسوأ؛ ولا أدري إذا باستطاعتي أن أثقَ برأيي دون غيره. ترجّلنا قرب الكنيسة؛ ورغم ان أحدًا ما كان يستطيع أن يرى وجوهنا لأنّنا نسترُها بحُجُبٍ كبيرة، فيكفي أن يرانا الناس محجَّباتٍ، لابساتٍ أرديةً بيضاءَ خَشنة، منتعلاتٍ صنادلَ، حتي يضطربَ الجميع. وهذا ما حصل. ولا شكَّ ان الهَلَعَ دَفَع الحمّى عنّي تمامًا؛ والحقّ يقال، إنّي أحسَسْتُ الهَلَعَ، وأحسَّه الجميعُ كبيرًا.

مساعدة رجل صالح

١٤. عندما دخلنا الكنيسة، اقترب منّي رجلٌ خيّرٌ فأَبعدَ الناس. فسألته بإلحاح أن يقودنا إلى مُصلّى. ففعل، وأغلقَ الباب، ولم يُترِكْنا إلاّ بعد أن ساعدنا على الخروج من الكنيسة. وبعد أيام قليلة، جاء إلى أشبيلية، فقال لأحد آباء رهبانيتنا ان الله، في اعتقاده، مكافأةً له على عمله الصالح ذلك، منحه منّةً فأوتي ثروةً كبيرة أو أُعطِيَها، ولم تكن في حسبانه.

وأنا أقول لكنَّ يا أخواتي: لئن أعتبرتنَّ هذا تافهًا، فأنا أعتبره من الأوقات السيئة التي عشتُها، لأنّ البلبلة التي أحدثها الجمهور كانت شبيهةً باقتحام الثيران. وعليه، انتظرتُ بفارغ الصبر ساعة مغادرتنا تلك المدينة. ورغم انه لم يتوافر لنا مكانٌ قريب نستريح فيه القيلولة، فقد استرحنا تحت جسر.

معارضة الأسقف

١٥. وصلنا إلى اشبيلية فحللنا في منزل كان استأّجره لنا الأب ماريانو الذي أشعرناه مسبقًا بقدومنا؛ كنت أظنُّ كلَّ شيء معدًّا، لأن المطران، كما قلت، كان يساعدُ الحفاةَ كثيرًا، وكتبَ إليَّ أحيانًا مُظهرًا لي مودَّةً

كبيرة. إلاّ أنَّ ذلك لم يكفِ لإبعاد المِحَن عنّي. تلك كانت إرادة الله. فالمطران يعارض بشدّة إنشاءَ أديرة للراهبات من دون ريع؛ وهو على حقّ. وحدث ذلك الضررُ، أو بالأحرى النفعُ، ليتحقَّق المشروع. فأنا على يقين أنّه لو أطلِعَ على الأمر قبل انطلاقي في السفر، لما كان وافق. إلاّ ان الأب المفوّض، والأب ماريانو — الذي سَرَّه قدومي عظيمًا — كانا على يقين تام بأنهما يقدّمان له خدمة جلّى بقدومي، فلم يكشفا له عن ذلك مسبقًا؛ لكنّي أقول: كان يمكن أن يرتكبا خطأ فادحًا فيما هما يظنّان أنهما مصيبان. فأوّلُ ما كنت التمسُ الحصولَ عليه في سائر الأديار كان إذن رئيس الأبرشية كما يأمر المجمع المقدس. وهنا، ما اعتبرنا الإذن حاصلاً فقط، بل اقول إنّنا، كنّا نقدِّم له خدمةً كبيرة؛ هذه هي الحقيقة، ولقد أدركَها هو فيما بعد، إلاّ أنَّ الربّ ما أراد أن يَتمَّ أيُّ تأسيسٍ من دون أن أقاسيَ مشقّاتٍ بطريقة أو بأخرى.

ديرٌ من دون ريع

١٦. وصلنا إلى المنزل المستأجر، ففكَّرت في استلامه حالاً، كما اعتدتُ أن أفعل، للقيام بصلوات الفرض الإلهي؛ فبدأ الأب ماريانو الذي كان هناك، يسألني أن أنتظرَ. لم يكن يريد إطلاعي على كلِّ شيءٍ لئلا يُسبِّبَ لي حزنًا. وإذ لم يقدّم لي حُجَجًا كافية، أدركتُ ان الصعوبة تعود إلى رفض الإذن. وعليه، فقد طلب إليَّ أَن أرضى بأن يكونَ للدير ريعٌ أو ما يُشبه ذلك، لست أذكر. وأخيرًا، قال لي إن المطران لا يطيب له أن يأذن بإنشاءِ أديارٍ للراهبات، وانه منذ أن صار مطرانًا على أشبيلية منذ سنواتٍ عديدة، وحين كان مطرانًا على قرطبة من قبل، لم يعطِ قطّ إذنًا بإنشاء ديرٍ، رغم أنه خادمٌ لله حقًّا؛ وعليه، فلن يعطيَ هذا الإذنَ، خصوصًا لدير من دون ريع.

وضع حَرِج ونفاد المال

١٧. هذا كان يعني الاقلاعَ عن إنشاء الدير؛ **أولاً**، لأن إنشاءَه في أشبيلية ما كان ليطيب لي ولو أنَّ الأمر باستطاعتي؛ ذلك ان الأديرة ذاتَ الريع التي أسّستُها إنّما أسّستُها في قرىً؛ فأمّا أن لا تُنشَأ أو تُنشَأ على هذا النمط، لأنْ لا طريقة أخرى لتأمين العيش. **ثانياً**، لأنّه لم يبقَ لنا من نفقات السفر إلاّ قطعةٌ واحدة من الفضّة، وما جلبنا معنا سوى ما كنّا نلبسه ورداءً آخر، وطرحةً، وستائرَ لتغطية العربات تغطيةً محكمة. واضطررنا إلى أن نقترضَ بعضَ المال لتأمين العودة للذين رافقونا؛ فقد أقرض أنطونيو غايتان صديقٌ له هناك مبلغًا؛ وحصل الأب ماريانو على مبلغٍ آخر لترتيب المنزل. ولم يكن لدينا بيت خاص. لذلك كان الوضع شديدَ الصعوبة.

أسفٌ شديد وانتظار

١٨. وبفضل إلحاح الأب المذكور أُتيح لنا الاحتفال بالقدّاس في عيد الثالوث الأقدس[٧]، وهو أول قداس. وأُمِرْنا أن لا يُقْرَعَ الجرس وأن لا يُعَلَّق؛ لكن الجرس كان قد علّق. قضيت على هذه الحال أكثر من خمسة عشر يومًا؛ وأقرّ شخصيًّا، بأنّه لولا الأب المفوّض والأب ماريانو لكنتُ رجعتُ وراهباتي إلى بياس من دون أسفٍ لأنشئ ديرًا في كاراڤاكا. وعانيتُ أسفًا أشدَّ كثيرًا من ذاك في تلك الأيام، ولا أذكر طولها لضعف ذاكرتي، لكنّي أعتقد أنّها تجاوزت شهرًا؛ فقد كان احتمالُ الرحيل آنذاك أصعبَ ممّا لو كنّا عدنا أدراجنا حالاً، ذلك بأن خبرَ انشاء الدير قد ذاع. وما سمحَ لي الأب ماريانو بأن أكتبَ [إلى المطران] قطّ، إنّما كان يلطّف موقفه شيئًا فشيئًا وبواسطة رسائل من الأب المفوّض من مدريد.

أسف واسترخاء

١٩. أما أنا، فشيءٌ واحد كان يسكّن روعي ويعصمني من الحيرة، وهو أنّنا احتفلنا بالقداس بإذنٍ منه، وكنّا نتلو دائمًا صلاةَ الفرض في الخورس. وما كان ينفكّ عن إرسال زوّار من قِبَله وعن إعلان زيارته لي في موعدٍ قريب، بل أرسلَ أحدَ معاونيه ليحتفلَ بأوَّلِ قداس؛ فبدا لي واضحًا ان الغاية من كلِّ ذلك هي أن يزيلَ منّي الأسف. أمّا أسفي فما كنت أنا ولا راهباتي سببًا له؛ بل كان أسف الأب المفوّض؛ وبما أنه أمرني بالذهاب، فقد كان في غمّ شديد، ولكان أصابه غمّ أشدّ كثيرًا لو حصلَ أيُّ سوء، وأسبابُ حصوله كثيرة.

موافقة المطران

٢٠. في هذه الأثناء، جاء الآباء المنتعلون ليروا كيف تمّ التأسيس. فقدّمتُ لهم الترخيصاتِ الصادرة عن أبينا العام الجزيل الإحترام؛ فاطمأنَّ خاطرهم؛ ولو عرفوا موقفَ المطران لا أظنّهم كانوا اكتفوا بذلك. لم يكن موقفُه معروفًا، بل كان الجميع يطنّونه راضيًا جدًّا ومسرورًا. ورضي الله، فجاء [المطران] يزورنا، فعرضتُ له الضررَ الذي يسبّبه لنا. فوافق أخيرًا على إعطائي ما أريده وكما أريده. وراح يغمرنا دائمًا بفضله ورعايته في كل ما يقدّمه لنا.

٧ ٢٩ أيار / مايو ١٥٧٥. والأب المذكور هو ماريانو للقديس مبارك. راجع العدد ١٥.

الفصل الخامس والعشرون

تابع تأسيس دير القديس يوسف المجيد في اشبيلية
وما بُذِل من جهد للحصول على بيتٍ خاص.

سهولة غير متوقعة

١. ما كان أَحد ليقدّر أن تكون الظروف المؤاتية لتأسيس ديرٍ في مدينة وافرة الثراء كأشبيلية، سكّانها كثيرو الغنى، أدنى منها في جميع المدن التي قصدتها. بل كانت دون ذلك بكثير، حتى انني فكّرت أحيانًا في انه لا يناسبنا أن يكون لنا ديرٌ في تلك المدينة. ولست أدري ما إذا كان مناخ المنطقة وراء ذلك؛ فقد سمعتُ دائمًا أنَّ الشياطين مطلقةٌ يدهم ليجرّبوا الناس، ولا شكّ في أنّ الله يسمح لهم؛ ولقد ضيّقوا عليَّ في هذه الناحية، فما رأيتُني في حياتي قطّ أوهى جأشًا وأجبنَ منّي هناك؛ وفي الحقيقة، ما كنت أتعرّف ذاتي. وما كانت لتفارقني ثقتي التي تعوَّدت ان أثقها بربِّنا؛ إلاّ ان طبعي، منذ أن أخذتُ أهتمُّ بهذه الأمور، صار يخالف طبعي الذي تعوّدت أن أفصح عنه، ففكّرت في أن الربّ يبعد يَدَه عنّي بعض الإبعاد ليبقى مستقلاً وأرى، أنا، أنَّ شخاعتي لم تكن من عندي.

حيرة المؤسِّسة

٢. ولما مكثتُ هنالك منذ الفترة التي ذكرتُها إلى ما قبيل الصوم، ولم يكن شراءُ البيت واردًا، ولا المالُ متوافرًا، ولا من يَضْمَنُنا، كما حصل في أمكنةٍ أخرى، – وكلُّ اللواتي وعدنَ الأب الزائر الرسولي بأنهنَّ سيدخلن الرهبانية ورجَوْنَه أن يستقدم إلى هناك راهبات، بدت لهنَّ فيما بعد صرامةُ القانون شديدةً وان ليس باستطاعتهنَّ احتمالها إلاّ واحدة سأذكرها لاحقًا –، فقد آن الأوان لأن أُستَدْعى من الأندلس لأنّ شؤونًا أخرى طرأت هنا [في كاستيليا]. فشقّ عليَّ للغاية أن أتركَ الراهبات من دون بيت، رغم اقتناعي بأنَّ وجودي هناك لا يجديهنَّ نفعًا، لأنّ النعمة التي يؤتينيها الله فأجدُ هنا [في كاستيليا] من يساعد هذه المشاريع، لم تكن متوافرة لي هناك [في أشبيلية].

مساعدة أخيها

٣. ورضيَ الله فرجع عندئذ من الهند [أميركا] أحدُ اخوتي المدعو لورنثو دي ثيبيدا[١]، بعد أن قضى في تلك البلاد أكثر من ثلاثين عامًا، وكان يسوؤه أكثر ممّا يسوؤني أن لا يكونَ للراهبات بيت خاص. فساعدنا كثيرًا، خصوصًا في السعى للحصول على البيت الذي يشغَلْنه الآن. وكنت أُلحُّ آنذاك على ربِّنا متوسّلةً إليه أن لا يدعني أمضي من دون أن أوفِّر لهنَّ البيت، واسألُ الأخوات أن يطلبنَ منه ذلك، ويلتمسْنَه من القديس يوسف المجيد، ونقوم بتطوافات وصلواتٍ لسيِّدتنا العذراء. وإذ رأيتُ أخي مصمّمًا على مساعدتنا، بدأت التفاوضَ لشراء بعض البيوت. لكن حين كان الاتفاق يوشك أن يتمّ، كانت تفشل كلُّ المحاولات.

---

١ Lorenzo de CEPEDA لورنثو أخو القديسة (١٥١٩ – ١٥٨٠)، هاجر إلى أميركا سنة ١٥٤٠ وعاد بعد غياب ٣٥ سنة بصحبة أولاده الثلاثة، بعد فقده زوجته، وبصحبة أخيه بدرو. كان يسترشد أخته القديسة في الأمور الروحية.

استجابة الربّ

٤. كنت ذات يوم أقوم بالتأمّل؛ وفيما أنا أسأل الله أن يوفّر بيتًا [للراهبات] لأنّهنَّ عرائسه وأقصى رغائبهنَّ أن يرضينه، قال لي: **لقد سمعتكنّ، فدَعْنني أتصرّف**. فسررتُ سرورًا عظيمًا، وبدا لي أن البيت صار في متناول يدي؛ وهكذا كان، فنجّانا جلاله من شراء بيتٍ يُعجب الجميعَ موقعُه، لكنَّه قديمٌ جدًّا وفي حالِ سوء أيِّ سوءٍ بحيث يُشترى الموقعُ فقط بمبلغٍ يكاد يكون أدنى من ثمن البيت الحالي. كان الاتفاق قد تمَّ ولم يبقَ سوى توقيع العقد؛ أمّا أنا فما كنتُ مسرورةً. لقد رأيتُ أنَّ الأمر لا يطابق العبارة الأخيرة التي سمعتها في التأمّل؛ لأنّها، فيما بدت لي، كانت دليلاً على توفير بيتٍ صالح لنا. وهذا ما أراده الربّ؛ لكنّ البائع، رغم تحقيقه ربحًا وفيرًا بهذه الصفقة، أخذ يثير موانع لدى وضع الصكّ؛ فاستطعنا، من دون الإخلال بشيء، الخروجَ من الاتفاق، فإذا ذلك منّة كبيرة صنعها معنا ربّنا. وإلاّ لكانت الراهبات قضين حياتهنَّ كلّها في تعمير البيت، وقاسين محنًا شديدةً، ولم يتيسَّر لهنَّ إلى مالٌ قليل.

مبادرة خيِّرة

٥. لقد لعَب أحدُ عبيد الله دورًا كبيرًا [في هذا التأسيس]؛ فما إن عرف، لدى وصولنا إلى هناك، أن لا أحدَ يقيم لنا القداس، كان يأتي كلَّ يوم فيحتفلُ به رغم أن منزله بعيدٌ والشمسُ لافحة. انه غرثيا ألقاريث[٢]، رجلٌ خيِّرٌ ومشهور في المدينة بأعماله الصالحة، ولا يهتمّ بشأْنٍ آخر؛ ولو توافرت لديه الثروة لما أعوزنا شيء. كان يعرف البيت [الذي سنشتريه] معرفةً جيّدة، فبدا له حماقةً كبرى أن يُدفَعَ ثمنه بهذا القدر باهظًا. وما زال يردّد علينا رأية يوميّا، وحاول أن تُقْطَعَ المباحثات لشرائه؛ ثم مضى وأخي للاطلاع على البيت الذي تشغله الراهبات الآن، فعادا راضيين أيَّ رضى، وبحقّ؛ وبمساعدة ربِّنا، تمّ توقيع العقد.

صعوبات جديدة

٦. ولم تكن الصعوبات قبل دخولنا البيت قليلةً؛ فالذي كان يشغله ما كان يودّ إخلاءَه؛ والرهبان الفرنسيسكان القريبون منه جاؤوا حالاً يسألوننا أن لا ننتقل إليه في أيِّ حال. ولوا ان العقد كان مُبْرَمًا بصورة قاطعة، لكنت حمدتُ الله على إمكانية فسخه، لأنّنا هُدِّدْنا بدفع مبلغ ستة آلاف دوقية، هي ثمن البيت، من دون أن نستطيع دخوله. وما رأت الر ئيسة[٣] الأمر من هذه الزاوية، بل حمدت الله على أن العقد لا يمكن فسخه، لأنّ جلاله كان يعطيها إيمانًا واندفاعًا أكثر ممذا يعطيني بشأن البيت، بل وفي كلِّ شيء، لأنّها تفوقني صلاحًا.

استلام البيت ليلاً

٧. عانينا هذه المصاعب ما يزيد على شهر، ثمّ رضي الله فانتقلنا إلى البيت، بخوفٍ راعب، أنا والرئيسة وراهبتان. انتقلنا ذات ليلة كي لا يدري بنا الرهبان إلاّ بعد استلامه. وكان مرافقونا يحسبون راهبًا أيّ ظلٍّ يرونه. وعند انبلاج الفجر، أقام رفيقنا الطيّب غرثيا ألقاريث أولَ قداس هناك فزال منذئذٍ خوفنا.

---

٢ García ALVAREZ.

٣ الأم ماريا للقديس يوسف، كانت من أقرب المقرَّبين إلى القديسة تريزا الآفيلية، وقد أعلنت طوباوية.

خوف شديد

٨. آه يا يسوع ! ما أكثر المخاوف التي اعترتني عند تسلّمي بيتًا ما ! وفي اعتباري كم يشعر بخوفٍ مريع من يسعى لا ليعمل شرًّا، بل لما فيه خدمة الله، اسائل نفسي ما يكون من أمر الذين يفعلون السوءَ ضدّ الله وضدّ القريب ؟ لست أدري أيَّ ربحٍ يمكن أن يجنوا مقابل ذلك ولا أي لذّة يلتمسون.

أذى أخيها وإحسان قديس

٩. لم يكن أخي قد جاء ليكون معنا، بل إنّه مكث في مكانٍ آمنٍ[٤]، لأنّ العقدَ الذي ضِيغَ بسرعةٍ انطوى على خطأ يسبِّب للدير أذىً فادحًا؛ ولما كان أخي هو الكفيل، فقد عزموا على القبض عليه؛ وبما أنّه كان غريبًا، فقد سبّب لنا متاعبَ كثيرة، بل سبّبها فعلاً إلى أن دفع من ماله تغطية التأمين. ثم تمَّ التفاوض بشكل حسن، ولو لم يخلُ الأمر من خلاف في الرأي في فترةٍ ما لمزيدٍ من المتاعب. لقد احتبسنا في بعض غرف في الطابق السفلي، وكان هو حاضرًا يقضي النهار مع العمَّال ويوفّر لنا الغذاء، كما كان يوفّره قبل ذلك بزمنٍ طويل. فلمّا كان الناسُ جميعًا لا يدرون أن ذلك ديرٌ لأنّنا كنّا نسكن بيتًا خاصًّا، لم تكن الحسنات تَرِدُ إلينا إلاّ قليلاً يقدّمها رجلٌ قديس رئيسُ دير لاس كويڤاس للكرتوسيين[٥]، خادمٌ لله حقٌّ. من آڤيلا منشأً، ومن عائلة پانتوخا. وقد بثّ الله في قلبه حبًّا تجاهنا بحيث انه، منذ وصولنا، ما انفَكَّ يُحسن إلينا في كلّ حال، وأظنُّ أنَّ إحسانه سيدوم ما دام حبًّا. فمن واجبنا، يا أخواتي، إذا طالعتُنَّ ما أكتب، أن تَكِلْنَ إلى الله من ساعدونا أحسن مساعدة، أحياءً كانوا أم أمواتًا. ولهذا أثبته هنا. إنّنا ندين بالكثير لهذا القديس.

ذاكرة ضعيفة

١٠. دامت الحال على هذا المنوال أكثر من شهر على ما أظنَّ؛ – إنّ ذاكرتي ضعيفة فيما خصّ التواريخ، فيمكن أن أخطئ؛ لكن أعرفُ أنَّ الأمرَ "بين بي"، ولا أهمية لذلك –. لقد عمل أخي جاهدًا طوال هذا الشهر لتحويل بعض الغرف إلى كنيسةٍ وترتيب كلَّ شيء. أمّا نحن فما كان لدين عملٌ نقوم به.

شيوع أمر الدير

١١. بعد الفراغ من ذلك، أردت أن يُصمَدَ القربانُ الأقدس من دون إحداث ضجَّةٍ لأنّني أكره جدًّا إحداثَ متاعب متى أمكن تحاشيها؛ فعرضت الأمر على الأب غرثيا ألقاريث، وهو بدوره تباحث والأب رئيس دير لاس كويڤاس، فاهتمّا بالأمر كأنّه يخصُّهما أكثر ممّا يخصّنا. واعتبرا ان لا بدّ من أن يُصْمَدَ القربان بصورةٍ احتفالية كي يشهر أمرُ الدير في أشبيلية، فذهبا لمقابلة المطران. واتفق الجميع على أن يؤتى بالقربان الأقدس بأبّهة عظيمة من إحدى الرعايا؛ وأمر المطران أن يدعى رجالُ الاكليروس وبعضُ الأخويات، وأن تُزيَّن الشوارع لهذا الغرض.

---

٤ هو أخوها لورنثو، وقد التجأ إلى الكنيسة لئلا يُقْبض عليه بسبب خطأ في العقد يعود إلى "القبالة"، أي الرسم الذي يدفعه الشاري.

٥ هو فرناندو پانتوخا Fernando PANTOJA, Prior de la Cartuja de Santa María de las Guevas (١٥٦٧– ١٥٨٠).

احتفال رائع

١٢. لقد زيّن الرجل الطيّب غرثيا ألقاريث رواقنا الذي كان مَمْشى — كما ذكرت — وزيّن الكنيسة بعناية قصوى، وأعدَّ مذابح جميلة، وابتدع زخارف رائعة. وكان من بينها نبع ماؤه ماء زهر. لم نلتمس، نحن، ذلك ولا طلبناه، ولو انه حرّك فينا التقوى كثيرًا فيما بعد. وأثلجَ نفسَنا أن ينَظَّمَ عيدنا تنظيمًا احتفاليًّا كهذا، والشوارعُ مزيّنةٌ أحسنَ زينة، والموسيقى تملأ الجو، والمرتِّلون كُثُر، حى قال لي رئيسُ دير لاس كويڤاس القديس إنّه لم يرَ مثل هذا الاحتفال قط في اشبيلية، فواضحٌ أنّه عملُ الله. وشارك هو في الاحتفال خلافًا لعادته. والمطران نفسه صَمَدَ القربان الأقدس[٦].

انكنَّ تزَيْنَ، يا بناتي، كيف ان الجميع يكرّمن الحافيات. وما كان الماء، فيما يبدو، ليتوافر لهنَّ قبيل ذلك ولو أنَّ ماء ذلك النهر يجري دافقًا. أمّا الجمهور الذي شارك في الاحتفال فكان غفيرًا.

حريق خطير

١٣. وحدث أمرٌ جديرٌ بالذكر، في رأي جميع من شاهدوه: لقد أطلقَت مفرقعاتٌ وأسهمٌ ناريةٌ كثيرة، بحيث إنّه خَطَرَ للبعض، في نهاية التطواف وعند هبوط الليل، أن يتابعوا إطلاقها؛ ولا أدري كيف اشتعل شيءٌ من البارود في يد أحدهم فلم يُقْتل؛ فاعتُبِرَ ذلك من العَجَب العُجاب. لقد ارتفع لسانٌ من اللهيب إلى ما فوق الرواق، وكانت القناطر مغطاة بستائر من حرير، فظُنَّ أنّها ستصير رمادًا، إلاّ انه لم يُصبها أذى كبير أو صغير، ولم يتأثّر لونُها الأصفر والقرمزي. والمذهل في الأمر، أنذَ حجارةَ القناطر تحت ستائر الحرير، صارت سوداء بفعل الدخان، أمّا الستائر نفسها التي تغطّيها فلم يُصبها سوء، وكأنَّ النارَ لم تصل إليها.

انتقام الشيطان

١٤. ذُهِلَ الجميع عندما رأوا ذلك المشهد. أمّا الراهبات فحمدنَ الربّ لأنّه وفَّر عليهنَّ شراء ستائر أخرى. وأمّا الشيطان، فلا شكّ انه كان غاضبًا أشدّ الغضب بسب الاحتفال الذي تمَّ، ورؤيته إنشاءَ بيتٍ جديد لله، فأراد أن ينتقمَ بشيءٍ ما، فلم يُتِحْ له جلالُه المجال. فليكن مباركًا إلى أبد الآبدين، آمين.

---

٦ حدث ذلك في الثالث من حزيران / يونيو ١٥٧٦. وفي نهاية التطواف، سجدت القديسة أمام الأسقف الذي منحها بركته. وكم كانت دهشة المؤسِّسة عندما رأت رئيس الأساقفة يسجد بدوره طالبًا من المؤسِّسة أن تباركه أمام هذا الجمع الغفير من الأشبيليين. وبعد عدّة أيام كتبت الأم تريزا إلى الأم حنّة ليسوع قائلة: "بمَ كنتِ تشعرين لو رأيت ذلك الحبر الجليلَ ساجدًا أمام هذه المرأة الصغيرة المسكينة، ولا ينوي النهوض إلاّ بعد أن تمنحه البركة في حضور جميع رهبانيات اشبيلية وأخويّاتها؟" (توماس).

الفصل السادس والعشرون

تابع تأسيس دير القديس يوسف في مدينة أشبيلية. في بعض أمور جديرة بالذكر تخصّ أول راهبة دخلت ذلك الدير.

ارتياح عام

١. باستطاعتكنَّ، يا بناتي، أن تتصوَّرْنَ الارتياح الذي نعمْنا به ذلك اليوم. ويمكنني أن أقول لكنَّ إن ارتياحي، أنا، كان عظيمًا جدًّا؛ وقد وفّره لي خصوصًا تَرْكي الأخوات في بيتٍ صالح، والديرَ في موقعٍ ملائم ومعروف، وراهباتٍ في البيت يمكنهنَّ أن يسدّدن القسطَ الأوفر من ثمن البيت، بحيث إذا قَدِمت أولئك اللواتي سيُكمْلنَ العدد وأتَيْنَ بالقليل القليل، استطعن أن يَقينَ الدَيْنَ كلَّه. وفرَّحني خصوصًا أنيّ تمتَّعت بالمتاعب، وأنيّ كنت أغادرُ الساحةَ حين يتاحُ لي أن أستريح قليلاً. فهذا العيد احتُفِلَ به يوم الأحد الذي سبق عنصرة الروح القدس سنة ١٥٧٦؛ ونهار الإثنين التالي انصرفت، والحرّ يزحف لاحفًا، وأَملي أن لا تحلّ العنصرة وأنا في سفر، لأني أودّ الاحتفال بها في مالاغون، وبي رغبة شديدة في التوقّف هناك بضعة أيام؛ ولهذا عجّلت في انصرافي أيَّ عجلة.

مقارنة متاعب التأسيس

٢. لم يَرْقِ الربّ أَن يُتاحَ لي سماعُ القداس يومًا في الكنيسة. وعكَّر ذهابي سرورَ الراهبات تعكيرًا، فأَسِفْنَ لذلك جدًّا[١]؛ فقد كنّا قضينا تلك السنة مجتمعات وقاسينا معًا متاعبَ جمّةً، أُعرِضُ عن رواية أشدَّها خطورةً، كما قلت. وإذا تركتُ جانبًا التأسيسَ الأول في آقيلا، الذي لا يوازيه آخر، فإنّ أيَّ تأسيس لم يكلّفني ما كلّفني هذا لأنّ أكثر المتاعب كانت باطنيّة. إلا رضي جلاله أن يؤولَ هذا الدير دائمًا لخدمته، وهو ما آمله، وأعتبر كلَّ شيء قليلاً في سبيل ذلك. وبدأ جلاله يأتي بنفوسٍ صالحةٍ إلى ذلك البيت؛ وأقلّ ما يمكن أن يقال عن اللواتي اصطحبتُهنَّ إلى هناك، وكنَّ خمسًا، أنهنَّ، كما أخبرتكنَّ، جدُّ صالحاتٍ. وأودّ أن أحدّثكنَّ عن أولِ راهبةٍ دخلت هذا الدير لأنَّ خبرَها سيَشرح صدركنَّ.

قصّة فتاة ضحية

٣. إنّها فتاة والداها مسيحيان حقيقيان، ووالدها جبليّ. عندما كانت طفلةً، في السابعة من عمرها تقريبًا، طلبتها من والدتها عمّةٌ لها لم تُرزَقْ أولادًا، فأخذت تدلّلها وتُظهر لها الحبَّ الذي تفرضه الطبيعة؛ أمّا

---

١ تخفيفًا لهذا الأسف على هذا الفراق، ابتكر الأب غراثيان والراهبات طريقةً لتخفيفه بأن فرضوا على القديسة أن تجلس أمام مصوّر متوسّط، هو الأخ حنا البائس (Juan de la MISERIA) فرضخت. وصورتها هذه "الوحيدة الأصلية" محفوظة في دير أشبيلية حتى اليوم. ويروي الأب غراثيان تعليق القديسة على الصورة بقولها: "سامحك الله يا أخ خوان؛ لقد صوَّرتني لكنّك صوَّرتني بشعة وغَمْصاء" (بي غَمَص أي عُمش) (م).

خادماتها الثلاث اللواتي كنَّ يأملن، قبل مجيء الطفلة، أن تؤولَ ثروةُ العمَّةِ إليهنَّ، فبدا لهنَّ واضحًا من ذلك الحبّ انها تفضّل تركَ الثروة للطفلة. فاتفقن على أن يَحُلْنَ دون ذلك بفعل شيطاني؛ فاتّهمن الطفلة بأنّها تنوي قتلَ عَمَّتها وأنّها، لهذه الغاية، أعطت إحداهنَّ عددًا من "المرابطيات"[٢] لتشتريَ لها سليمانيًا[٣]. ورَوَت الخادمات الثلاثُ الخبرَ نفسه فصدَّقتهنَّ العمَّةُ ووالدةُ الطفلة، وهي امرأة جدّ فاضلة.

عذاب الطفلة

٤. فأخذت الأمّ ابنتها وعادت بها إلى منزلها وفي ظنّها أنّها ستصير امرأةً شرّيرة. وقالت لي بياتريس لأمّ الله، كما تُدعى في الرهبانية، أنّها قضت أكثر من سنة وأمُّها تجلدها يوميًا، وتعذّبها، وتُلزمُها أن تنامَ على الأرض لإرغامها على أن تقرَّ باقترافها ذلك الإثمَ الفظيع. ولما كانت الفتاة تؤكّد أنّها لم تفعل ذلك، وأنّها تجهل ما هو السليماني، ساءَ والدتَها جدًّا أن تراها تمعنُ في الكذب، فاغتمَّت المسكينة إذ رأت الإبنة متشبِّثةً بنكرانها، وتصوَّرت أنَّ أمرَها لن يصلح ابدًا. وأظهرت الفتاة شجاعةً فلم تقبل التهمة للتخلّص من ذلك العذاب المِمِضّ. لقد كانت بريئةً، فأعطاها الله تلك الشجاعة لتقولَ الحقّ دائمًا. ولما كان جلاله يقف إلى جانب الأبرياء، فقد أنزل باثنتين من أولئك النساء مرضًا خطيرًا جدًّا كأنه الكَلَب، فأرسلتا العمّة إلى الطفلة سرًّا، فسألتاها العفو، وعندما أشرفتا على الموت، تراجعتا عن ادِّعائهما. وفعلت الثالثة ما فعلته الأخريان، وماتت في أثناء الولادة. والخلاصة أن الثلاث أودت بهنّ المنيّة بآلامٍ مبرّحة عقابًا لهنّ على الآلام التي سبَّبْنَها لتلك البريئة.

رواية الأم

٥. ولست أعلم هذا من الإبنة وحدها؛ فإنّ أمَّها، بعد أن رأتها راهبةً، وقد آلمها سوءُ معاملتها لها، رَوَتْ لي القصَّة بتفاصيلها، وكان كلٌّ من [تلك الآلام] استشهادًا قاتلاً. لم يكن لأُمها ولدٌ سواها، ولانّها مسيحيةٌ صاحلة جدًّا، فقد سمح الله بأن تكون لابنتها جلادًا رغم حبِّها البالغ لها. إنّها لأمرأةٌ وافرة الاستقامة والتقوى.

تصميم على الترهّب

٦. حين تجاوزت الطفلة الثانية عشرة من عمرها قليلاً، وإذ هي تطالع في كتاب سيرة القديسة حنّة، أخذها ميلٌ كبير إلى التعبّد لقدّيسي جبل الكرمل؛ ويقول الكتاب إنّ والدة القديسة حنّة وأظنّها تدعى ميرينسيانا، كانت كثيرة التردّد عليهم. فنشأ من ثمّ لدى [الطفلة] اعتبارٌ كبيرٌ لرهبانية سيّدة الكرمل هذه، فصمّمت حالاً على أن تصير راهبةً فيها، ونذرت العفَّة. كانت تقضي فتراتٍ طويلةً في الاختلاء، حين تستطيع، وفي ممارسة التأمّل. وكان الله وسيّدتنا ينعمان عليها في التأمّلاً بمِنَنٍ وافرةٍ وخاصةٍ جدًّا. وتمنّت لو تصير راهبةً في الحال، لكنَّها، ما كانت تجرؤ على ذلك بسبب والديها، ولا تعرف أين تجد هذه الرهبانية. وتجدر الملاحظة، انه رغم وجود دير في أشبيلية تابع للقانون الملطَّف فلم يبلغها خبرُه إلى أن عرفت بأمر هذه الأديار سنين بعد ذلك.

إصرار والديها على تزويجها

---

٢ المرابطيات، قطع نقدية سمّيت هكذا نسبة إلى المرابطين الذين أقاموا مملكتهم في المغرب وسيطروا على اسبانيا العربية بين ١٠٩٨ و١١٤٨ (م).

٣ سليمانيّ : سمّ قاتل مأخوذ من الزئبق (م).

٧. عندما بلغت سن الزواج اتفق والداها على البحث عن عريسٍ لها رغم كونها فيتَّةً. لم يكن لهما أولادٌ سواها، فإن اخوتها ماتوا جميعًا وبقيت هي، المحبوبة أقلّ منهم، وحيدة. وعندما حصل ما ذكرته، قام أخٌ لها يدافع عنها ويطالب بأن لا تُصَدَّقَ الوشاية. عندما تقرّر تزويجُها، وفي ظنّ والديها انّها لن تخالفَهما، أبلغاها الأمر؛ فأجابت مُعلنةً النذر الذي صنعته بأن لا تتزوَّج، وأنَّها لن تتزوَّجَ كائنًا ما كانت محاولاتهما حتى ولو قتلاها.

عذابٌ واستشهاد

٨. أما أبواها، فلأنَّ الشيطان أعماهما، أو ان الله سمح بأن تكون شهيدةً، فقد اعتقدا بأنَّها أتت أمرًا مرذولاً، ولهذا لا تَرغب في التزوّج. ولما كانا قد أعطيا وعدًا، ورأيا طالبَ يدها مُهانًا، جَلداها جلدًا مبرِّحًا، وعذّباها تعذيبًا حتى بلغ بهما الأمر أن أرادا شنقها، وكادا أن يخنقاها، ولحسنَ الحظ انهما لم يقتلاها. أمّا الله الذي أرادها لأمرٍ أسمى، فأبقى على حياتها. وتقول، هي، لي، إنّها ما كانت لتحسَّ شيئًا في آخر المطاف، إذ تتذكّر ما قاسته القديسة أنييس؛ فإنّ الرب أعاده إلى ذاكرتها فكانت تفرح بأن تقاسيَ بعض الآلام حبًّا به، فتقدِّمها له. وظنَّ [أبواها] انها ستمون لأنّها لازمت الفراش ثلاثة أشهر لا تستطيع حراكًا.

فضائلها وتبدّل والديها

٩. وانه لأمرٌ لافتٌ جدًّا أن يُظَنّ بفتاةٍ فعلُ سوءٍ شنيعٍ هذه الشناعة وهي التي ما كانت تفارق جانبَ أمّها، ووالدُها شديد الرصانة، كما عَرَفْتُ. لقد كانت دائمًا قديسةٌ، عفيفة، كثيرة الإحسان، تعطي كلَّ ما كانت تحصّله. إنّ ربَّنا حين يريد أن يعطيَ أحدًا منّةَ العذاب، فإنّ لديه وسائلَ عديدةً لذلك. وبعد بضع سنوات كشف لوالدي الفتاة فضيلة ابنتهما بحيث إنّهما طفقا يقدّمان لها المال تبذله في ما تشاء من حسنا، فتحوّلت الاضطهادات تدليلاً. ورغم رغبتها في أن تصيرَ راهبة، صار كلُّ شيء شاقًّا عليها، فكانت، كما روت لي، ضَجِرةً كئيبةً جدًّا.

لقاؤها راهبًا من الحفاة

١٠. قبل مجيء الأب غراثيان إلى اشبيلية بثلاث عشرة أو اربع عشرة سنة، – ولم يكن للكرمليين الحفاة ذكرٌ، – حدث أن كانت مع أمّها وأبيها واثنتين من جاراتهم، فدخل أحدُ أفراد رهبانيتنا لابسًا عباءَةً، مثلما يلبسونها حاليًا، وهو حافٍ. كان وجهه، بحسب قولهم، نَضِرًا، وقورًا، رغم كونه شيخًا طاعنًا وكأنّ لحيته شلّةُ خيوطٍ فضيّة وكانت طويلةً. جلس بقربها وبدأ يلقي اليها كلامًا بلغة لم تفهمها ولم يفهمها أحد. وعند انتهائه من الكلام، رسم عليها إشارة الصليب ثلاثًا، قائلاً لها: "بياتريس، شدَّد الله عزمك"، ومضى. وما كان أحدٌ يأتي حراكًا بينما هو هناك، بل كانوا جميعًا مذهولين. ثم سأل الأب ابنته مَن كان ذلك الشخص؛ أمّا هي، فكانت تظنُّ أن والدها يعرفه. فنهضوا مسرعين ليلحقوا به، لكنّه كان اختفى. أمّا هي، فارتاحت إيَّ ارتياح؛ وأمّا الآخرون جميعًا فمكثوا مندهشين إذ رأوا أن الله ظهر لها، فقدَّروها مذ ذاك تقديرًا، كما ذُكر. وأمضت بعد ذلك سنوات، أظنُّها أربع عشرة، وهي تقوم بخدمة ربِّنا وتسأله أن يستجيب رغبتها.

لقاؤها الأب غراثيان

١١. كانت خائرة العزيمة عندما وصل الأبُ المعلّم ايرونيموس غراثيان إلى اشبيلية. وحين ذهبت ذات يوم لسماع موعظةٍ في كنيسة تريانا، الحيِّ الذي كان يقطن فيه والدها، فمن دون أن تعرفَ من يكون الواعظ، إذا به الأب المعلم غراثيان. فخرج والدها لأخذ بركته، وحين رأت ثوبه وشاهدته حافيًا، تمثَّل لها حالاً ذلك الذي رأته؛ فثوبة هو هو ولو انَّ وجهَه وعمرَه مختلفان؛ فالأب غراثيان لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد. قال لي إنّها لشدّة سرورها أصابها إغماء؛ ومع أنّها سمعت أن ديرًا أنشئَ في تريانا، فلم تعرف أنه للكرمليين الحفاة. ومنذ ذلك اليوم سعت لأن تعترف لدى الأب غراثيان؛ وسمح الله أن يكلِّفها حتى هذا الأمر جهدًا كبيرًا؛ فقد قصدته أقلّه اثنتي عشرة مرّة ولم يُرِدْ أن يسمح اعترافها قطّ. فقد كانت صبيّةً جميلة الصورة، لم تبلغ بعدُ السابعة والعشرين، وكان، هو متحفِّظًا يجتنب التعاطي مع أشخاص مثلها.

دخولها الدير

١٢. ذات يوم، كانت في الكنيسة وهي تبكي، وقد كانت أيضًا من طبعها خَجِلَة، فسألتها امرأة ما بها. فأجابتها أنها تحاول، منذ زمنس طويل، أن تحدّث ذلك الأب الذي في كرسي الاعتراف فلا تجد وسيلةً. فصحبتها إليه وسألته أن يستمع إلى تلك الفتاة، فأتيح لها أن تعترف لديه بانتظام. فلما رأى غنى تلك النفس، انتعش كثيرًا وشجَّعها بقوله إنّ الرهبانية التي تبحث عنها قد تكون رهبانية الكرمليات الحافيات، وسيسعى ليقبَلْنَها قريبًا. وهذا ما حصل؛ فقد أمرني، قبل أيِّ شيء آخر، أن تكون هي أول راهبةٍ أقبلها، لأنّه كان مرتاحًا إلى حال نفسها، وهذا ما أعلنه لها في أثناء سفرنا. وبذلت جهدها كي لا يدري والداها بالأمر لئلا يعرقلا صعيها. وهكذا، فيوم عيد الثالوث الأقدس بالذات، تركت النسوةَ اللواتي كن يصحبنها — وما كانت أمُّها ترافقها إلى دير الكرمليين الحفاة، حين تذهب للاعتراف، وهو الدير الذي كانت تقدِّم له، هي ووالدها، حسناتٍ كثيرة، لأنّه كان بعيدًا –، وقالت لهنَّ إنّها على موعد مع إحدى خادمات الله لتلتقيها — وهي امرأة مشهورة في اشبيلية بعبادتها الله وبأعمالها الحسنة العظيمة –؛ فتركنَها وشأنَها. ولبست الثوب ووشاح الخيشِ؛ ولا أدري كيف استطاعت أن تتحرك بهما؛ إلاّ أنذَ سرورها جعل كلَّ شيء تحمله خفيفًا. وما خشيت سوى أن يعرقلوا سعيها حين يرونها والحملُ ثقيلٌ عليها، وهو ما كان بعيدًا كلَّ البعد عن عادتها. ما أعجب ما يصنعه حبُّ الله ! ولما لم تعد تعير الكرامةَ اعتبارًا، ولا يهمّها إلاّ أن لا يحولوا دون رغبتها، فتحنا لها البابَ حالاً. وأَبْلَغْتُ والدتَها الأمرَ، فجاءَت هالعةً؛ وما لبثت أن قالت إنّها لمست النعمة التي صنعها الله مع ابنتها. ورغم حزنها، فقد استسلمت إلى الواقع، ولم تَقُدْها المغالاة فتمتنع عن مخاطبتها، كما تفعل بعض الأمهات، بل استمرَّت في إحْزالها الحسنات لنا.

حياتها في الدير

١٣. وبدأت عروس يسوع المسيح تنعم بالسرور الذي اشتهته أيَّ اشتهاء، وتعيش حياةَ تواضع راسخٍ، ميّالةً إلى عمل كلِّ شيء حتى يصعب علينا أن ننزع المكنسةَ من يدها. فبعد أن كانت ترتع في الدلال في بيتها، صارت تجد كلَّ راحتها في العمل. وسرورها الكبير أدّى بها إلى أن تَسْمَن، فأثَّر ذلك في والديها حتى صارا يشعران بارتياحٍ لدى رؤيتهما إيّاها هناك.

تجارب عنيفة

١٤. قبل شهرين أو ثلاثة أشهر من إبرازها النذور، وحتى لا تنعم بخيرٍ جزيل كهذا من دون عذاب، هاجمتها تجاربُ عنيفةٌ، ليس لأن صمّمت على عدم إبرازها، بل لأنّها رأت في النذور أمرًا عسيرًا. لقد نسيت العذاب الذي احتملته طوال سنوات في سبيل الخير الذي في حوزتها، وراح الشيطان يضايقها حتى لم تعد تملك ذاتها. ورغم هذا، فقد أكرهت نفسها، فغلبته، فقرّرت إبراز نذورها وسط تلك المضايقات. وربُّنا الذي ما أراد، ولا شكّ، أن يطولَ انتظارُ البرهان على شجاعتها، زارها ثلاثة أيام قبل موعد نذورها وعزّاها بصورة خاصّة وهزمَ الشيطان، فتشجَّعت أيَّ شجاعة حتى كأنّها كانت خارجةً عن طورها من السرور خلال تلك الأيام الثلاثة، وبحقّ، لأن النعمة التي نالتها كانت سنيّة.

الأم في دير الإبنة

١٥. وبعد أيام من دخولها الدير مات أبوها فلبست أمُّها الثوبَ في الدير نفسه ووهبت له كلَّ ما تملك. وها الأم والابنة تعيشان حالَ سرورٍ فائق، وهما قدوةٌ للراهبات جميعًا تخدمان مَن صَنع معهما هذه المنَّة الساميّة.

فتاة أخرى

١٦. ولم تمضِ سنةٌ حتى قدمت فتاةٌ أخرى رغم إرادة والديها. وهكذا نجد أنَّ الربّ يزرع بيته هذا بنفوسٍ مشتاقةٍ إلى خدمته، فلا يثبّطُ عزيمتَها عن هذه الخدمة أيُّ شّدةٍ تطالعها، ولا الحصن. ليكن مباركًا إلى أبد الدهر، وممجّدًا إلى أبد الأبدين آمين.

الفصل السابع والعشرون

في تأسيس دير كاراڤاكا، وقد صُمِدَ فيه القربان الأقدس يوم رأس السنة ١٥٧٦، وجُعل على اسم القديس يوسف المجيد.

فتيات كاراڤاكا

١. حين كنت في دير القديس يوسف في آڤيلا استعدّ للذهاب إلى بياس لتأسيس ديرٍ فيها، كما ذكرت، ولم يبقَ إلاّ أن نعدَّ المركبات للسفر، وصل رسولٌ خاصّ بعثت به من كاراڤاكا سيّدةٌ تدعى كاتالينا، فقال إن ثلاث فتيات قصدْنَ منزلَها — منذ أن سمعنَ عظةً على لسان أحد الآباء اليسوعيين، – وهنَّ عازماتٌ على أن لا يغادرنه قبل أن يُنْشَأَ ديرٌ فيه. ولا شكَّ في أنهنَّ كنَّ متّفقاتٍ مع هذه السيّدة التي ساعدتهنَّ على إنشائه؛ والفتياتُ ينتمينَ إلى أهمّ العائلات في تلك المدينة. كان والد إحداهنّ، ويدعى رودريغو دي مويا[١]، يعبد الله عبادةً حقًّا ويمتاز بفطنة كبيرة. وكان مجموعُ ما يملكنَ يكفي للطموح إلى مشروع كهذا. وقد أطّلعن على صنيعِ ربّنا في إنشاء هذه الأديار، بفضل الآباء اليسوعيين الذين عاضدونا وساعدونا دائمًا.

شوق إلى التأسيس

٢. فلمّا رأيتُ رغبةَ تلك النفوس وشوقهنَّ، وقطعهنّ مسافةً بعيدةً جدًّا للبحث عن رهبانية سيِّدتنا، تحرّكت فيَّ التقوى، وثار شوقي لمساعدتهنَّ على قصدهنَّ الصالح. وحين اطلعتُ على أنَّ المكان قريبٌ من بياس، اصطحبتُ مزيدًا من الراهبات، – فقد بدا لي من الرسائل أنَّ الاتفاق لين يفوتَنا –، وهي نيّتي أن أمضيَ إلى هنالك ما إن أكمل تأسيس دير بياس. غير أنَّ الربَّ كان قد قرَّر شيئًا آخر فأَجْدَتْ خططي قليلاً، كما ذُكر في تأسيس دير اشبيلية؛ ذلك أن الإذن الذي جيءَ به من مجلس المنَّظمات كان في صيغةٍ فرضَتْ عليَّ إهمالَ المشروع رغم تصميمي على التأسيس[٢].

استطلاع أمر المكان

٣. والحقيقة أنني عندما استطلعتُ أمرَ المكان في بياس فرأيت أنه بعيد عن المواصلات، وأنَّ الطريقَ إليه عسيرٌ بحيث ان الذين يريدون أن يزوروا الراهبات سيجدون مشقّةً، وإنّ الرؤساءَ سيجدون صعوباتٍ لذلك، تضاءَلَت كثيرًا رغبتي في الذهاب لتأسيس الدير. غير أني كنتُ قد فتَحْتُ أمامهنَّ باب الأمل، فطلبتُ إلى

---

١ Rodrigo de MOYA.

٢ عندما قدمت القديسة إلى بياس اصطحبت عددًا مضاعفًا من الراهبات يكفين لانشاء الدَيْرَين. ولأن كاراڤاكا تابعةٌ لمنظمة مار يعقوب، فان مجلس المنظمات، عندما أعطى الترخيص، اشترط أن يكون الدير المؤسّس خاضعًا له، وهذا ما لم تقبل به القديسة. ولهذا السبب وأسباب أخرى، أخذت الراهبات إلى أشبيلية (راجع الفصول ٢٢ — ٢٦).

الأبوين خوليان دي آڤيلا وأنطونيو غايتان أن يذهبا فيطّلعا على الوضع، وأن يهملا المشروع إن لم يرياه مقنعًا؛ فلاحظا فتورًا كبيرًا، ليس لدى اللواتي كنَّ يرغبنَ في الترهّب، بل لدى السيّدة كاتالينا وهي ربَّة المشروع برمته، وقد أنزلَتْ الفَتيات في غرفةٍ منعزلةٍ على سبيل الخلوة.

عقد الاتفاق

٤. كانت الراهبات ثابتاتِ العزم، وبخاصّة اثنتان منهنّ، أعني اللتين ستصيران راهبتين، فنجحن تمامًا في اكتساب الأب خوليان دي آڤيلا وأنطونيو غايتان إلى دعواهنّ، بحيث إنّ [الأبوين] قبل عودتهما وقّعا الصكوك فخلّفا الفتيات مسروراتٍ جدًّا، ورجعا مسرورَيْن بهنَّ وبالناحية أيَّ سرور؛ فما كانا ينفكان عن الحديث عنهنّ وعنها، ولا عن الطريق العسير. فعندما رأيت أنَّ الاتفاق قد تمَّ وأنَّ الإذن لا يصل، أسلتُ أنطونيو غايتان الصالح ثانيةً إلى هنالك، وكان يرتضي المشقّة بطيبة خاطر حبًّا بي، كائنًا ما كان ثقلُها؛ وكان كلاهما[٣] يودّان لو ينفَّذ التأسيس. وفي الحقيقة، يجب أن يؤدَّى الشكر لهما على هذا التأسيس؛ فلو لم يذهبا إلى المكان ويعقدا الاتفاق، لما بذلتُ جهدًا يُذكَر في هذا السبيل.

إعداد المكان

٥. سألته[٤] أن يذهبَ فيضع دولابًا ومصبَّعةً في المنزل الذي سيتمُّ استلامه وأن تمكثَ الراهبات فيه إلى أن يتمَّ إيجاد بيتٍ ملائم. فمكث هناك أيّامًا عديدة يرتّب هذه الأمور في منزل رودريغو دي مويا، والد إحدى أولئك الفتيات، كما ذكرت، الذي أخلى لهنّ، بكلّ طيبة خاطر، جناحًا من بيته.

مساعدة الملك

٦. عندما جاؤوا بالترخيص وكنت على أهبّةِ الذهاب إلى هناك، علمتُ أنَّ أحد البنود يوجب أن يكون البيتُ خاضعًا لمفوّضي المنظّمة وان تؤدِّيَ الراهباتُ لهم الطاعة؛ وهذا ما كنت لا أستطيع قبولَه لأنّه مخالف لقانون رهبانية سيّدة الكرمل؛ فجُدِّدَ طلبُ الترخيص، ولو لم تتمّ الموافقة، لما تحقق التأسيس هنا ولا في بياس. إلاّ ان الملك صنع معي منّةً عظيمة. فحين كتبت إليه، أمر بأن يعطى الترخيص. ودون فيليب[٥] يعطف عطفًا كبيرًا على الرهبان الأمناء لنذورهم؛ فحين طريقةَ العيش في هذه الأديرة، وأنها مطابقة للقانون القديم، فدّم لنا مساعدته في كلِّ أمر. وعليه، فإني أرجوكنّ، يا بناتي، بإلحاح، أن تقدّمن دائمًا صلاةً خاصّة على نيّة جلالته، كما نقدّمها الآن.

---

٣ أنطونيو غايتان وخوليان دي آڤيلا (م).

٤ المقصود هو الأب غايتان.

٥ هو الملك فيليب الثاني (١٥٢٧ – ١٥٩٨) الذي كان يكنّ إعجابًا كبيرًا للقديسة تريزا وعملها والذي ساعد مساعدة فعّالة في تحقيق الاصلاح الكاثوليكي (م).

تخلّف الأم تريزا عن السفر

٧. لما كانت العَوْدةُ إلى طلب الترخيص ضروريةً، ذهبتُ، أنا، إلى اشبيلية بأمر الأب الرئيس الاقليمي، وكان، وهو، حاليًّا، المعلّم ايرونيموس غراثيان لأم الله – كما ذُكر[٦] –، وبقيت الفتيات المسكينات حبيساتٍ إلى ما بعد رأس السنة الجديدة؛ وقد أرسلن إلى آڤيلا يُبلغْنَني الأمرَ في شهر شباط/فبراير. وجيء بالترخيص عاجلاً؛ غير أني، لبعدي وانهماكي بالكثير من الأشغال، ما كان باستطاعتي مساعدتهنَّ، بل كنت أشفقُ عليهنَّ كثيرًا لأنهنَّ غالبًا ما كنَّ يكتبن إليَّ ويُفْصحْنَ عن بالغ حزنهنَّ؛ فما كان بالتالي محتملاً أن يُفْرَض عليهنَّ مزيدٌ من الانتظار.

سفر الراهبات

٨. لما كان يستحيل عليَّ الذهاب إلى هناك لِيُعْد المسافة، ولعدم انتهائي من ذلك التأسيس[٧]، فقد قرّر الأب المعلم ايرونيموس غراثيان، الزائر الرسولي آنذاك، كما ذكرت[٨]، أن تذهب الراهبات اللواتي سيؤسِّسن الجماعة، ولو من من دوني، أي أولئك اللواتي بقين في مار يوسف في مالاغون. وجهدتُ في أن تكون الرئيسةُ واحدةً أثق بأنّها بارعةٌ في التدبير، لأنّها خيرٌ منّي. فحملنَ كلَّ ما يلزم، ومضَيْنَ بصحبة اثنين من آبائنا الكرمليين الحفاة، لأنّ الأبوين خوليان دي آڤيلا وأنطونيو غايتان كانا قد عادا من زمنٍ إلى ناحيتهما، وما أردت أن يأتيا لأن الشقَّة بعيدةٌ بيننا، والطقس سيّء جدًّا، فنحن في أواخر كانون الأول/ديسَمبر.

تأسيس الدير

٩. حين وصلن إلى هناك، استقبلهنَّ الشعبُ بسرور عظيم، وخصوصًا الفتيات المحتجبات. أَسَّسن الدير، وصَمَدْنَ القربان الأقدس يوم عيد اسم يسوع سنة ١٥٧٦[٩]. ولبست الثوب اثنتان؛ فالثالثة كانت تسيطر عليها السويداء، فضايقها ولا شكّ أن تعيش محتبسة، فكم بالحري يضايقها القانون القاسي والتقشّف الشديد! فقرَّرت العودةَ إلى بيتها لتعيش مع أختٍ لها.

عائق المزاج

١٠. أنظرن، يا بناتي، أحكامَ الله وواجبَنا بأن نخدمَه نحن اللواتي أعطانا أن نثبتَ فنبرزَ نذورَنا ونبقى دائمًا في بيت الله، وكبناتٍ للعذراء؛ أنظرن إلى أنَّ جلاله استفاد من مشروع هذه افتاة ومن ثروتها لينشئ هذا الدير؛ وعندما حان لها أن تتنعّمَ بما كانت قد اشتهته أيّ اشتهاء فاتتها الشجاعة، واستسلمت إلى المزاج الذي غالبًا ما نلقي عليه مسؤولية نقائصنا وتقلّبات أهوائنا.

---

٦ في الفصل ٢٤، عدد ٤.

٧ تأسيس دير اشبيلية.

٨ في الفصل ٢٣، عدد ١٣.

٩ أي يوم رأس السنة، ثامن يوم الميلاد، كما في الرواية الانجيلية (م).

تجدّد القانون القديم

١١. ألا رضيَ جلالُه وأسبغ علينا فيضَ نعمته فلا يقطع علينا الطريقَ شيءٌ من بعدُ لنسيرَ دائمًا قُدُمًا في خدمته؛ وليساعدْنا جميعًا وليعضدْنا لئلا يضيعَ، بسبب ضعفنا، ما شرعنا فيه شروعًا خيِّرًا، كما حَسُنَ لديه أن يبدأ في نساءٍ بائساتٍ مثلنا. فأسألكنَّ باسمه، يا أخواتي ويا بناتي، أن تطلبن هذا دائمًا من ربّنا، ولتعتبرْ كلُّ فتاةٍ تدخلُ الرهبانية فيما بعد، أن معها يتجدَّد هذا **القانون القديم** لرهبانية العذراء سيّدتنا، ولا ترتضِ أدنى تهاونٍ في أيَّ حال. ليكن معلومًا لديكنَّ أن أشياء تافهةً تفتح الباب على أمور عظيمة، وأنَّ العالم يَتَسلَّل إليكنَّ من دون أن تشعرن به. تذكّرن كم من الفقر والمشقة كلَّف صنعُ ما تنعمنَ أنتنَّ به بارتياح. فإذا لاحظتنَّ جيّدًا، ترين أن أكثر هذه البيوت لم يؤسِّسها الناس بل أسَّستها يدُ الله القديرة، وجلالُه يحبّ أن يكمّل الأعمال التي يصنعها إن لم نُقِمْ، نحن، عوائقَ دونها. فأنَّى، في ظنّكنَّ، القَدْرة لامرأةٍ صغيرةٍ مثلي كي تصنَع أعمالاً عظيمةً كهذه، وأنا مقيَّدةٌ، لا أملكُ مرابطيةً واحدة، وليس مَن يساعدني في شيء ؟ فأخي هذا الذي ساعد على تأسيس دير اشبيلية، وكان يملك مالاً، ولديه الشجاعة وحسن الاستعداد لتقديم عون ما، كان في بلاد الهنود[١٠].

تأمل في الحياة الرهبانية

١٢. تأمَّلْنَ، يا بناتي، تأَمَّلْنَ يدَ الله. فليس يعظّمني أني كريمةُ الأصل؛ فمن أَيةِ ناحية نظرتنَّ إلى الأمر، تدركن أنَّ العمل عمله. فلا يجوز لنا أن نقلّلَ من شأنِه في شيءٍ ولو كلّفنا ذلك حياتنا، وكرامتنا، وراحتنا؛ فكم بالأحرى إذا كنَّا نملكُ هذه جميعَها في آنٍ هنا. فالحياة معناها أن نحيا بحيث لا نخاف الموت ولا جميعَ أحداث الحياة، وأن نعيشَ في هذا الفرح الدائم الذي فيه تَعِشْنَ، وفي هذا الرغدِ الذي لا يعلوه رغدٌ، وهو، ليس فقط أن لا نخاف الفقر، بل أن نشتهيَه. فهل هناك ما يوازي السلامَ الباطني والخارجي الذي به تنعمنَ ؟ بيّدكنَّ أن تَعِشْنَ أو أن تَمُتْنَ في هذا السلام، كما ترين يمتن اللواتي رأيناهنَّ يمتن في هذه البيوت. فإذا سألتنَّ الله دائمًا أن يعنى بشؤونكنَّ، فلا تتَّكِلْنَ إطلاقًا على ذواتكنَّ، فلن يبخل عليكنَّ برحمته. وإذا وضعتنَّ فيه ثقتكنَّ وتسلَّحتنَّ بشجاعةِ قلب، وجلالُه يهوى هذا، فلا تَخَفْنَ أن يفوتكنَّ شيء. لا ترفضنَ أبدًا قبولَ اللواتي يأتين للترهّبِ — متى أقنعتكنَّ رغائبهنَّ وصفاتُهن، ولم يظهر أنهن بحثن عن ملجأ لهنَّ، بل يأتين بدافع خدمة الله خدمةً أكمل –، إذا فاتتهنَّ الثروة ومَلَكْنَ الفضائل، فإنّ الله يؤتيكنَّ مضاعفًا ما فاتكنَّ الحصول عليه.

فرحها بقبول الفقيرات

١٣. إنّ لي خبرةً واسعةً في هذا الموضوع. وجلاله يعرف حقًّا، على قدر ما أستطيع أن أتذكر، أنني ما رفضتُ قطّ قبولَ طالبةِ ترهّب لا تملك مالاً فأقنعني ما عداه، والشهودُ كثيراتٌ ممّن قُبِلْنَ حبًّا بالله وأنتنَّ بالأمر عالمات. واستطيع أن أؤكّد لكنَّ أني ما كنت أُسَرُّ حين أقبلُ ذاتَ غنى كما أُسَرُّ بالتي أقبلها حبًّا بالله فقط؛ بل كنت أنقبض من أولئك بينما كانت الفقيرات يشرحنَ روحي، ويُحدِثْنَ فيَّ لذَّةً كبرى تثير بكائي فرحًا. هذه هي الحقيقة.

---

١٠ بلاد الهنود، هي التسمية التي كانت تطلقَ على العالم الجديد، الذي اكتشفه كولومبس ودعي فيما بعد أميركا. وأخوها، هو لورنثو. راجع ٢/٢٥ (م).

تغليب الفضائل على المال

١٤. فإذا سارت أمورنا سيرًا ممتازًا باعتمادنا هذا النهجَ حين كنّا بصدد شراء البيوت أو إعدادها، فلماذا لا نستمرُّ فيه ؟ صدّقني، يا بناتي، إنكنَّ حيث تطلبن المزيد ستُمْنَيْنَ بالخسارة. فإنْ كانت الطالبة تملك مالاً وليس عليها أيّ التزامات بأن تعطيه لآخرين، وهم لا يحتاجون إليه، فخَيْرٌ أن تقدّمه لكنَّ كحسنة؛ فإذا تصرَّفت بخلاف هذا فأقرّ بأنني أعتبره فتورًا في المحبة. لكن ضَعْنَ دائمًا نصبَ أعينكنَّ أن تتصرّفَ الطالبة بما تملك وفق ما ينصحها به ذوو العلم، فذلك خدمةٌ فضلى لله؛ فمن السوء البالغ أن نطمعَ بمال طالبةٍ إن لم يكن من أجل هذه الغاية. فنحن نكسب في ان تعمل ما يجب عليها تجاه الله بكمال أوفر أكثرَ بكثير ممّا قد تأتي به من مال؛ فنحن، كلّنا، لا هدف نسعى إليه، ولا يسمحنَّ الله بأن تسعى إلى هدفٍ آخر سوى أن يُخْدَم جلاله في كلّ شيء، ومن أجل كلِّ شيء.

لا خروج على إرادة الله

١٥. ورغم كَوْني بائسةً وحقيرة، فإني أقول ما اقول لكرامته ومجده، ولكي تغتبطن بالطريقة التي أنشئت فيها بيوتُه هذه. ففي المفاوضات بشأنها، وفي ايِّ أمرٍ آخر، ما كنتُ لأصنعَ، وما صنعتُ – في هذه التأسيسات –، شيئًا اعتبرته خارجًا على إرادة الربّ قيد شعرة، حتى ولو خطر لي أنّني لن أنجَح فيه إلاّ بالخروج ولو قليلاً على هذه القاعدة؛ وذلك طبقًا لنصائح معرّيَّ، وكانوا دائمًا، بعد اهتمامي بهذه الشؤون، من كبار ذوي العلم وعبادة الله، كما تعرفن؛ وما خطر ببالي قطّ، فيما أذكر، خلاف ذلك.

مشروعٌ يخصّ الله

١٦. ولعلّني أخطئ؛ فقد أكون فعلتُ أشياءَ لا أفهمها، وصنَعْتُ نقائصَ لا تُحصى. إن ربَّنا، وهو الديّان الحقّ، يعرف هذا، ويعرف أنّني أقول كلَّ ما أعرف عن نفسي، وأرى أيضًا جليًّا أن هذا لم يصدُر عنّي، بل عن إرادة الله في أن يتمَّ هذا العمل؛ فساعدني وآتاني هذه المنّة لأنّه مشروعٌ يخصّه. وأقصد من كلامي هذا، يا بناتي، أن تدركنَ كم أنتنّ مدينـاتٌ له، وان تعرفنَ أن لا شيءَ صُنِعَ إلى الآن ونال من كرامة أحد. تبارك مَن صنع كلَّ شيء، وأيقظ المحبة في مَن ساعدونا. ألا رضيَ جلاله أن يعضدَنا دائمًا ويمنحَنا نعمَه لئلا نكونَ عاقّاتٍ لهذه المنن الوافرة، آمين.

مصاعب وآلام عديدة

١٧. لقد رأيتنّ، يا بناتي، أنّنا قاسينا بعضَ المصاعب، ولو أنَّ أقلّها، في اعتقادي، هي التي سجَّلتُها، لأن تفصيلَها متعِبٌ جدًّا. فهناك الأسفار في طرقٍ تغمرها المياه والثلوج، ونضيّعها؛ وهناك، غالبًا، سوء حالي الصحيّة. فقد حدث لي — ولا أدري إذا ذكرت ذلك –، في أوَّلِ يومٍ خرجت من مالاغون باتجاه بياس أن نزلتْ بي حمّى صحَبتْها آلامٌ عديدة، فنظرت المسافة التي علينا أن نقطعها ونظرتُ إلى حالي، فتذكَّرتُ أبانا الياس وهو هارب من وجه أيزابيل (١ **ملوك** ١٩/٣) فهتفتُ مثله: "**كيف أستطيع، يا ربّ، احتمال هذا ؟ أنت، فأنظر**". والحقيقة، انّه عندما رآني جلاله في هذا الضعف، أزال عنّي الحمّى والألم حالاً، حتى اني ظننتُ، بادئ ذي بدء، ان دخول

كاهن يعبد الله ربما كان سببَ شفائي؛ وفي أيِّ حال، فقد فراقني الألم الخارجي والألم الداخلي حالاً. عندما كنت أنعم بالعافية، كنت أحتمل المشقّات الجسدية بفرح.

آلام فراق الأخوات

١٨. وما كان احتمال طِباع الكثيرين ممّن نحتاج إليهم في كلّ قرية بالأمر السهل. وأقول لكنَّ، ان تركي بناتي وأخواتي، اللواتي أحبُّهنَّ حبًّا عظيمًا، عند انتقالي من مكانٍ إلى آخر، ما كان الصليبَ الأسهلَ حملاً، خصوصًا لدى تفكيري في انني لن أراهنَّ ثانية، ورؤيتي أسفَهنَّ البالغَ ودموعهنَّ. فمع أنهنَّ متجرّداتٍ من أشياءَ أخرى، فإن الله لم يعطِهُنَّ هذا التجرُّد ليسبّبَ لي، ربّما، مزيدًا من الاضطراب؛ ذلك أنّني، أنا أيضًا، لستُ متجرّدةً عنهنَّ ولو انّني كنت أبذل طاقتي لأُخفيَ ذلك، بل كنت ألومهنَّ. وما كان لومي ليجديني نفعًا، لأنّ حبّهنَّ إيّايَ كبيرٌ ويُرى في أمورٍ كثيرةٍ انه حبٌّ حقيقي.

سرور الرئيس العام

١٩. زقد سمعتنّ أيضًا انه لم يكن لديَّ فقط الإذن من أبينا العهام الجزيل الاحترام [بتأسيس أديار]، بل إن هذا الإذنَ صار فيما بعدُ أمرًا. وليس هذا فقط، بل إنّه، بعد تأسيس كلِّ دير، كان يكتب إليَّ معبّرًا عن سروره العظيم بتلك التأسيسات. والحقيقة، ان أعظمَ ارتياحٍ كنت أشعر به في المشقّات إنّما كان رؤيتي السرور الذي أوفّره له، إذ يبدو لي أنّني بذلك أخدم ربَّنا، لأنّه، هو، رئيسي؛ وإضافة إلى ذلك فأنا أحبّه كثيرًا.

أمر بالإقامة الجبرية

امّا أنّ جلاله أراد أن يمنحني أخيرًا بعضَ الراحة، وإمّا أنَّ الشيطان أزعجه تأسيسُ هذه الكثرة من الأديار يُعْبَد فيها ربُّنا — وكان واضحًا أنَّ ذلك لا يعود إلى ارادة أبينا العام، لأنّه، بعد أن توسَّلتُ إليه أن لا يأمرَني بتأسيس بيوت أخرى، كتب إليَّ مُفصحًا عن رغبته في أنَّ أؤسِّس أديارًا بعددِ شعر رأسي –؛ فقبلَ مغادرتي أشبيلية، جيء اليَّ بأمرٍ صادرٍ عن مجلس المدبّرين في اجتماع عامٍ بُحثَ فيه، على ما يبدو، نموَّ الرهبانية الواسع، يوجب عليَّ، ليس فقط أن لا أؤسِّس بعدُ أديارًا جديدة، بل أن لا أغادرَ الدير الذي أختارُ الإقامةَ فيه، أيًّا كان السبيل؛ ما يوازي نوعًا من السجن[١١]، لأنّه ليس من راهبة إلاّ ويستطيع الرئيس الاقليمي أن يرسلَها من مكانٍ إلى آخر، أعني من دير إلى دير آخر لأمورٍ ضروريةٍ تؤول إلى خير الرهبانية. وأسوأُ ما في الأمر أن يكون أبونا العام مستاءً منّي، دونما سبب، وهذا ما كان يشقّ عليَّ، وأن يكون موقفه مستندًا إلى معلومات من أشخاص منحازين. وإضافةً إلى هذا، فقد أُطْلِعْتُ على أمرَيْن آخرَين كنايةً عن شهادتَيْن جدِّ خطيرتين ضدّي.

فرحٌ خارق

١١ تشير إلى المجمع العام الذي عقد في بياتشينزا Piacenza، في ايطاليا، برئاسة الأب روبيو (RUBEO) في أيار – حزيران ١٥٧٥، وقد أمر القديسة بأن تنزويَ في أحد أديرة كاستيليا وبألاّ تأسّسَ أديرة جديدة؛ لكن الأب غراثيان، بصفته زائرًا رسوليًّا، كانت له سلطة مستقلة عن سلطة الرئيس العام.

٢٠. وكي تَرَيْنَ رحمةَ ربّنا، وأنَّ جلاله لا يتخلّى عمن يشتهي أن يخدمه، أقول لكنَّ، يا أخواتي، إن ذلك التدبير ليس فقط لم يسبّب لي غمًّا، بل سبَّبَ فرحًا خارقًا يتجاوز إطاقتي، بحيث إنّي لا أدهش ممّا كان يصنعه الملك داود حين كان يسير أمام تابوت عهد الربّ؛ وَوَدِدْتُ آنذاك لو أفعل فِعْلَه نظرًا إلى فرحي الذي كنت أعرف كيف أخفيه. ولا أدري سبب ذلك، لأن تقوّلاتٍ أخرى ومضايقاتٍ خطيرةً جابهتني ولم تُحدث فيَّ تلك الحال. وعلى الأقل، كان واحدٌ من هذه الاتهامات خطيرًا جدًّا؛ أما عدم تأسيس الأديرة، فلولا انه يسبِّب امتعاضًا للأب العام الجزيل الاحترام، فإنّه لي راحةٌ كبرى، وأمرٌ غالبًا ما اشتهيته، فأختم حياتي في هدوء، ولو انَّ الذين التمسوا توفيره لي كانوا يجهلون ذلك، بل إنّهم، إلى جانب أهدافٍ صالحةٍ ربما قصدوها، كانوا يسبّبون لي أشدّ حزنٍ يمكن تصوّره.

الخالق مسرورٌ بي

٢١. ان المناهضاتِ الخطيرة والتقوّلات التي أثارتها مسيرة التأسيس، بعضها صادرًا عن حسن نيّة، والبعض الآخر لغايات أخرى، كانت تسبِّب لي السرور أحيانًا. ولا أذكر أني شعرت بفرحٍ يوازي ذلك أمام صعوبةٍ مهما ثقلت. وأعترف أن أيًّا من الأمور الثلاثة التي واجهتني مجتمعة كان، في زمنٍ آخر، مشقّةً ثقيلةً عليَّ. وأعتقد أن فرحي الأكبر يعود إلى اعتباري ان الخالق مسرورٌ بي لأنّ الخلائق تكافئني بهذه الصورة. فأنا مقتنعةٌ أنَّ من يعمل له من أجل مكافأة أرضية أو رغبةً في مديح البشر، لهو في ضلال كبير. فإذا تُرِك الكسبُ الزهيدُ جانبًا، يبدّلون رأيهم بين ليلةٍ وضحاها؛ فما أثنوا عليه مرّةً يسارعون إلى ذمّه.

تباركت، أنت، يا إلهي وربّي، أنت الصَّمدُ دائمًا أبدًا، آمين. من يَخدُمك حتى النهاية يعِشْ أبدًا في أزليتك.

طريقة كتابة التأسيسات

٢٢. شرعتُ في كتابة التأسيسات بأمر من الأب المعلم ريبالدا، من الرهبانية اليسوعية – كما قلت في مطلع الكتاب[١٢] –، وكان وقتئذٍ رئيسَ معهد سلمنكا ومعرّفي. وحين كنت في دير القديس يوسف المجيد في تلك المدينة، سنة ١٥٧٣، كتبتُ بعضَها، ثمّ انقطعتُ عنها بسبب مشاغلي العديدة، وعَدَلْتُ عن متابعتها لانقطاعي عن الاعتراف لدى هذا الأب بسبب تنقّلي في أماكن عدّة، وللجهود الكبيرة والمشقّات التي كلّفنيها ما كتبته؛ لكنّي أعتبرُ هذه الجهود بُذِلَتْ في سبيلٍ صالحٍ لأنّها كانت، مثلها دائمًا، تنفيذًا لأمر الطاعة. وعندما كنتُ مصمَّمةً على التوقّف عن الكتابة، أمرني الأب المفوّض الرسولي – وهو حاليًا المعلم الأب ايرونيموس غراثيان لأم الله – بأن أكمّل الكتاب. فقلت له إنّ الوقتَ المتاح لي قصير؛ وأضفتُ دراعيَ أخرى خطرت في بالي، أنا الحقيرة في أمر الطاعة، معطوفةً على غيرها تسبِّب لي تعبًا كبيرًا. ورغم كلّ هذا، فقد أمرني أن أنهيَه شيئًا فشيئًا بقدر استطاعتي.

خاتمة الكتاب الأولى

١٢ في التمهيد، عدد ٢.

٢٣. وهذا ما فعلته؛ وإنّي أَخضعُ في كل حال لما يقرّر ذوو البصيرة حدفَه في قولٍ سقيم. فليحذفوه، فلعلّ ما يبدو لي خيرَ قولٍ يكون شيّئًا.

لقد تمَّ [الكتاب] اليوم، عشية عيد القديس أوجين، في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٥٧٦ في دير القديس يوسف في طليطلة، حيث أقيم بأمر الأب المفوّض الرسولي المعلم الراهب ايرونيموس غراثيان لأم الله، وهو حاليًا رئيس الكرمليين الحفاة والكرمليات الحافيات التابعين للقانون القديم؛ وهو أيضًا زائر على الرهبان التابعين للقانون الملطَّف في الأندلس، لمجد ربّنا يسوع المسيح، وكرامته، هو الذي يملك وسيملك إلى الأبد. آمين.

لن يُقرأ قبل موتها

٢٤. واني أسأل الأخوات والأخوة الذين قد يطالعون [الكتاب] أن يتوسّلوا إلى ربِّنا من أجلي، حبًّا به، كي يرحمني ويعتقني من هذابات المطهر، ويتيحَ لي أن أتنعَّمَ معه، إذا استحققتُ أن أكونَ معه. فما دمتُ على قيد الحياة، لن تَرَيْن هذا الكتاب؛ فليسبِّبْ تعبي في وضعه بعضَ الكسب بعد موتي؛ ورغبتي الشديدة في أن أصيبَ، لدى تأليفي إيّاه، في قولِ شيءٍ يشجّعكنَّ، إذا حَسُنَ لدى [المسؤولين] أن تطالِعْنَه.

الفصل الثامن والعشرون

في تأسيس دير ڤيليانويڤا دي لا خارا[1].

توقف التأسيسات

١. بعد أن تمّ تأسيس دير أشبيلية، توقَّفت التأسيسات أكثر من أربع سنوات. وسبب ذلك أنَّ اضطهاداتٍ شديدةً انفجرت فجأةً ضدَّ الحفاة والحافيات؛ ورغم أنه حصلت لهم اضطهاداتٌ في السابق إلاّ انّها لم تبلغ أقصى مبلغ كهذه التي كادت تقضي على المشروع. فقد ظهرت واضحةً نقمةُ الشيطان على هذه الانطلاقة المقدّسة التي كان قد شرع فيها ربُّنا واتضح أنّها من عمل الربّ لأنّها سارت قُدُمًا. وقد قاسى الحفاةُ الكثير، خصوصًا رؤساؤهم، من شهاداتِ زورٍ ومضايقاتٍ قام بها جميعُ الآباء المنتعلين تقريبًا.

نفور الرئيس العام

٢. فقد رفع هؤلاء إلى أبينا العام الجزيل الاحترام تقارير، بحيث إنه، رغم قداسته وأنه كان قد أَذِنَ بتأسيس جميع الأديار — ما عدا دير القديس يوسف في آڤيلا، وهو الأول، الذي أنشئَ بإذنٍ من البابا –، ضغطوا عليه فبذل الكثير ليحول دون متابعة الحفاة مسيرتهن؛ إلاّ إنّه كان رفيقًا بأديار الراهبات. ولأنّني ما كنت أساعد في هذه المحلة، فقد نفّروه منّي، فكان ذلك أصعبَ مشقّةٍ عانيتُها في هذه التأسيسات، رغم أني قاسيتُ الكثير. وما كان معلّمو اعترافي ومرشديّ، وهم من كبار ذوي العلم، يوافقون على أن أتقاعسَ عن المساعدة على تقدّم عملٍ أرى فيه جليًّا خدمةَ ربِّنا ونموّ رهبانيتنا؛ وكنت، في المقابل، أري مخالفتي إرادة الرئيس موتًا. فإضافةً إلى التزامي لأنّه رئيسي، كنت أكنّ له حبًّا رقيقًا جدًّا واجبًا عليَّ بحقٍّ نحوه. والحقيقة أنّني ما كنت أستطيع إرضاءَه في هذا الأمر كما كنت أريد، لوجود زوّارٍ رسوليين أجدُني مُجْبَرَةً على طاعتهم.

مجيء قاصد رسولي جديد

٣. توفِّي قاصدٌ رسولي[2] قديس كان يناصرُ الفضيلةَ كثيرًا، وبالتالي بقدِّرُ الكرمليين الحفاة، فخلفه قاصدٌ آخر وكأن الله أرسله ليروّضنا في الألم. كانت تربطه بالبابا قرابةٌ بعيدة، وهو لا شكّ يتّقي الله، إلاّ أنّه بدأ يناصر بكلِّ قواه الرهبان المنتعلين. واستنادًا إلى التقارير التي قدّموها له عنّا، تشبَّثَ بأنّ من الأفضل سَدَّ الطريق في وجه ما شرعنا فيه. وعليه، بدأ بتنفيذ مخطّطه بصرامةٍ بالغة، فحَكم بالسجن أو بالنفي على مَن حَسبهم قد يقاومونه.

---

١ Villanueva de la Jara (قرية الحجارة الجديدة).

٢ القاصد الذي مات هو Nicolas ORMANETO نقولا أورمانيتو (١٥٧٧/٦/١٨) فخلفه Felipe SEJA فيليبي سيغا الذي تربطه قرابة بالبابا غريغوريوس الثالث عشر.

اكثر من قاسوا

٤. والذين تألموا أكثر من تألموا، الأب أنطونيو ليسوع، الذي أسَّس أول ديرٍ للحفاة، والأب إيرونيموس غراثيان الذي كان القاصدُ الرسولي السابق قد عيّنه زائرًا رسوليًا على الرهبان المنتعلين، فلاقى مكارة جمّة، وكذلك الأب ماريانو للقديس مبارك؛ وقد عرَّفت ذينك الأبوين في كلامي على التأسيسات السابقة. وعاقب آخرين من أبرز الرهبان، ولو بعقوبات أخفّ من تلك. أما هؤلاء الثلاثة فقد فرض عليهم أن لا يتعاطوا أيَّ شأنٍ تحت طائلة العقوبة الشديدة.

محنة جسيمة

٥. وكان واضحًا أنَّ هذا كلَّه صادرٌ عن الله، وأنَّ جلالَه سمحَ به لخير أعظم وكي تُقَدَّرَ فضيلةُ هؤلاء الآباء حقَّ قدرها، كما حَصَل في الواقع. فقد عيّن [القاصد] رئيسًا من المنتعلين زائرًا على أديرة الراهبات والرهبان [الحفاة]؛ فلو صحَّ ما ساوَرظنَّه، لكانت حصلت محنةٌ كبرى. بل حصلت في الواقع محنةٌ جسيمٌ جدًّا كما سيرويها يومًا مَن يُحسن عرضَها خيرًا منّي؛ أمّا أنا فأتناولها لمامًا كي تدركَ الراهبات القادمات مدى التزامهنَّ بالسير قدمًا في طريق الكمال؛ لأنهنَّ يجدن سهلاً ما كلَّف الراهبات الآن غاليًا؛ فإنّ بعضهنَّ قاسَيْن الكثيرَ الكثيرَ في هذه الظروف من شهاداتِ الزور، فعانيتُ من ذلك عذابًا أشدذً ممّا كنت أقاسيه شخصيًا، بل مقاساتي الشخصية كانت لي فرحًا كبيرًا. كنت إخالني سببَ هذا الاضطراب كلِّه، ولو يُلقى بي في البحر، كما القى يونان، فإن العاصفة ستَسْكُن.

تأثير الملك الحاسم

٦. سبحان الله الذي يَنصر الحقيقة. وقد نَصَرَها في هذه المسألة. فحين علم ملكُنا الكاثوليكي دون فيليب ما جرى وكان مطّلعًا على حياة الرهبان الحفاة وتقواهم، بادر إلى مساعدتنا، فلم يرضَ بأن يحكُمَ القاصد وحده ف دعوانا، بل عيّن له أربعةَ مستشارين، أشخاصًا مرموقين كلّهم، ثلاثة منهم رهبان[٣]، لينظروا في حقوقنا نظرةَ إنصاف، أحدهم الأب المعلم بدرو فرنانديث المشهور بقداسة سيرته، وسعة علمه وفهمه. كان سابقًا مفوضًا رسوليًا وزائرًا على المنتعلين في مقاطعة كاستيليا، ويَخضع له الحفاة أيضًا، ويعرف حقَّ المعرفة كيف يعيش هؤلاء وأولئك. وما كنّا نودّ جميعًا إلاّ أن تُعرَف هذه الحقيقة. وعليه، حين عَرفتُ أنَّ الملكَ عيَّنه، اعتبرتُ المسألة منتهية، كما حَصَلَ في الواقع برحمةٍ من الله. أل رضيَ جلاله بأن يكون ذلك لكرامته ومجده[٤].

ورغم أن كثيرين من أشراف المملكة وأساقفتها تسارعوا إلى اطلاع القاصد على الحقيقة، فلو لم يتدخَّل الله بواسطة الملك لكانت جهودُهم كلُّها ذهبت هدرًا.

---

٣ هؤلاء الأربعة كانوا: دون لويس ماريكي، Don Luis MANRIQUE مرشد الملك؛ Fray Lorenzo de VILLAVICENCIO، والأخ لورنثو دي ڤيليافيثينثيو الأغسطيني، والأبوين هيرناندو دي كاستيلو Hermando de CASTILLO وبيدرو فيرناندیث Pedro FERNANDEZ من الدومينيكان.

٤ في الأول من نيسان / ابريل ١٥٧٩، أُلغي ما كان للرؤساء الاقليميين المنتعلين من سلطة على الحفاة، وعُيِّنَ مكانهم الأب أنخل دي سالاثار (توماس).

طلب الصلوات

٧. إنّنا جميعًا، يا أخواتي، مُلْزَمات بأن نرفع الصلوات دائمًا إلى ربِّنا من أجله، ومن أجل الذين أيّدوا قضّيتنا وقضيةَ العذراء سيّدتنا. وعليه، فإنّي أسألكنّ ذلك بإلحاح.

سترين، يا أخواتي، كم كانت ضروريةً هذه التأسيسات. لقد شغلنا أنفسنا في التأمّل وفي التقشّفات من دون كلل لكي يدفعَ الله ما تأسَّس إلى تمامه إذا كان ذلك يؤول إلى خدمته.

طلب تأسيس جديد

٨. في مستهلّ هذه المصاعب الكبيرة – التي إذا عُرِضَتْ باختصار بدت لكنذَ طفيفةً، لكنَّها احتُمِلتْ طويلاً وكانت ثقيلةً جدًّا جدًّا – وإذ كنتُ في طليطلة بعد عودتي من تأسيس دير أشبيلية، سنة ١٥٧٦، حَمل اليَّ كاهنٌ من ڤيليانويڤا دي لا خارا رسائلَ من مجلس بليتها يسألني فيه أن أقبلَ في ديرٍ تسعَ نساء دخلن معًا، منذ بضع سنوات، منسكةً على إسم القديسة حنّة المجيدة في تلك القرية، وإلى جانبها بيتُ صغير، وكنَّ يعشن حياةَ خلوةٍ تامّة وقداسة تحمل القرية كلَّها على السعي لتحقيق رغبتهنّ في الترهّب. وكتب إليَّ أيضًا ملفانٌ لاهوتي، هو كاهنُ القرية ويدعى أغسطين دي إرڤيّاس[٥]، رجل ذو علم، وذو فضيلة راسخة كانت تدفعه ليبذل طاقته في مساعدة هذا المشروع.

رفضها المشروع

٩. أما أنا فرأيت أنَّ المشروع لا يناسب أن يُوافَقَ عليه إطلاقًا للأسباب الآتية:

أولاً، لأنّ عددهنَّ كبيرٌ جدًّا، فرأيت من الصعب جدًّا، نظرًا لنمط حياتهنَّ، أن يتمشَّيْنَ مع حياتنا.

ثانياً، لم يكن لديهنَّ موردُ عيش تقريبًا، وسكانُ القرية لا يتجاوز عددهم ألفَ نفس، وهو ما لا يكفي لتأمين عيشهنَّ من الحسنات؛ ورغم أن المجلس البلدي تطوّع لإعالتهنَّ، فما اعتبرتُ أنّ الإعالة تدوم.

ثالثًا، لم يكن لديهنّ بيت.

رابعًا، إنّهنّ بعيداتٍ عن أديارنا الأخرى.

خامسًا، ولئن قيل لي إنهنّ صالحات، فلأني ما رأيتهنَّ، لم يكن باستطاعتي أن أعرف ما إذا كنَّ يملكن الصفات التي نتطلّبها في أديارنا.

وعليه فقد قرّرت أن أرفض المشروع برمّته.

استشارة المعرّف

١٠. ولهذا الغرض، أردتُ أن أحدّث معرّفي أولاً، وهو الدكتور ڤيلاثكيث، الكاهن القانوني وأستاذ اللاهوت في طليطلة، رجلٌ واسعُ العلم وفاضلٍ، وهو حاليًا أسقف أوسما؛ فقد تعوّدتُ دائمًا أن لا أعملَ شيئًا منفردةً برأيي، بل ان أستشيرَ أمثاله. فحين أطّلع على الرسائل وفهم الموضوع، أجابني بأن لا أرفضَ بل أن أجيب

[٥] Agustin de ERVÍAS.

بالموافقة؛ لأن الله حين يجمعُ قلوبًا عديدة على أمر ما، يجب أن نفهمَ أنه يعتمدُها لخدمته. ففعلتُ كما يلي: لم أوافق على المشروع موافقةً تامّة، ولم أرفض. فألحّوا عليّ، وظلّوا يبعثون إليَّ أشخاصًا حتى هذه السنة ١٥٨٠ لعلّهم يقنعونني، وأنا أرى دائمًا أنتَّ من الحماقة الموافقة عليه. وما كنت أطوي جوابي على رفض قاطع.

مداخلات كثيرة

١١. وحدث أن جاء الأب أنطونيو ليسوع يقضي فترةً منفاه في دير سيّدة المعونة، وهو على ثلاث غلوات من قرية ڤيليانويڤا؛ فمضى إلى القرية ليلقي مواعظ، كما كان رئيس هذا الدير، وهو حاليًّا الأب غبريال لسيّدة الانتقال، رجلٌ فطن يعبد الله، يتردّد كثيرًا على القرية، وكلاهما صديقان للدكتور إرڤيّاس؛ فشرعا بتباحثان وأولئك الأخوات القديسات. فتاثرا بفضائلهنَّ واقتنعا بموقف أهل القرية وموقف الدكتور، فتبنّيا المسألة وأخذا يكتبان إليَّ بأسلوبٍ قوي ليقنعاني. وإذ كنت في دير القديس يوسف في مالاغون، على ست وعشرين غلوة من ڤيليانويڤا، قدم إليَّ الرئيس نفسه ليباحثني بالأمر عارضًا عليَّ ما يمكن عمله، وأن الدكتور إرڤيّاس، بعد تنفيذ المشروع، يقدّس ثلاثماية دوقية كرَبْعٍ من مرتّباته؛ فيجب أن يُطلَبَ الترخيص من روما.

حججٌ ومناقشات

١٢.بدا لي الحلّ غيرَ مضمون؛ فهذا الريع مضافًا إلى ما تملكه أولئك الفتيات كان كافيًا، لكنّه عرضةٌ للتبدّل بعد التأسيس. وعليه، بسطتُ أمام الأب الرئيس حُجَجًا عديدة لأبيّن له أن التنفيذ غيرُ مناسب، وهي حججٌ مُقنعة بنظري، وسألته أن يفحصَ الأمر فحصًا دقيقًا مع الأب أنطونيو، وأنا أسلّم إلى ضميرهما، وفي اعتقادي أن ما قلته لهما يكفي لإحباط المشروع.

تسابق المساعي

١٣. فبعد مغادرته المكان، فكّرت في تمسّكه بالمشروع تمسّكًا شديدًا، وفي أنّه سيحاول أن يقنعَ رئيسنا الحالي، وهو المعلم الأب أنخيل دي سالاثار، لينال موافقته؛ فعجّلت بالكتابة إليه راجيةً أن لا يعطيَ الترخيص، باسطةً له الأساب. فكتب إليَّ من بعد بأنّه لم يُرِد أن يعطيَ الترخيصَ إلاّ بناءً على موافقتي.

رسائل وضمانات

١٤. ومضى شهرٌ ونصف تقريبًا، أو ربّما أكثر قليلاً. فعندما ظننت أن المشروع تعطّل، أرسل إليَّ المجلس البلدي رسولاً يحمل كتبًا يؤكّد فيها إلتزامه بأن لا يفوتَ الراهباتِ شيءٌ ممَّا قد يحتَجْنَ إليه، والتزامَ الدكتور إرڤيّاس بما ذكر، ورسائلَ من هذين الأبوَيْن المحترمَين يكرّران فيها إلحاحهما الشديد. أمّا خوفي من قبول هذا العدد من الأخوات فكان كبيرًا، لأنّ الشكّ ساوريني في أن قد يوجد فريق من السابقات يناهضن القادمات حديثًا، كما يحدث عادة، ولأنّني ما رأيت ضمانةً لإعالتهنَّ؛ فما عرضوا تقديمه لم يكن مضمونًا؛ فوجدتُني في بلبال كبير. وفهمتُ فيما بعد أن الشيطان كان وراء ذلك. فرغم أن الربَّ أعطاني شجاعة، فإن الشيطان بثَّ فيَّ من الجبن آنئذٍ ما خِلْتُني معه وكأني عَدِمتُ كلَّ ثقتي بالله. إلاّ أن صلوات أولئك النفوس المباركة كانت في آخر المطاف أقوى.

توبيخ الربّ

١٥. وذات يوم، فيما أنا أعهد بالأمر إلى الله بعد التناول، كعادتي في غالب الأوقات، لأنّ تركي لهم بارقةَ أمل في أجوبتي إنّما يعود إلى خوفي من أن أعطّل تقدّم بعض النفوس — فرغبتي الدائمة هي أن أكون وسيلةً لتمجيد ربّنا وأن يزداد عددُ الذين يعبدونه –، وجّه إليَّ جلالُه توبيخًا قاسيًا قائلاً لي: بأيّ ثروات تمَّ صُنْعُ ما صُنِعَ حتى الآن ؟ فما عليَّ أن أتردَّد في قبول هذا البيت لأنّه سيؤول إلى خدمته خدمةً كبرى وإلى فائدةِ النفوس فائدةً جليلة.

قبولها التأسيس

١٦. ولأن كلمات الله هذه فعّالةٌ جدًّا، بحيث إنّ العقلَ ليس فقط يفهمها، بل تنيره ليدركَ الحقيقة، وتهيِّء الإرادةَ لتُقْدمَ على العمل، فهذا ما حصل لي. فما فرحت بقبول العرض فقط، بل حسبتُني أَذْنَبْتُ لتغافلي عن الأمر كثيرًا، ولتعلّقي الشديد بأسبابٍ بشرية، أنا الذي رأيتُ أنَّ ما فعله جلاله في سبيل هذه الرهبانية المقدّصة يفوق العقلَ كثيرًا.

حيرة في اختيار الراهبات

١٧. حين صمَّمت على القبول بهذا التأسيس، اعتبرتُ ضروريًا أن أصحبَ الراهبات اللواتي سيقمنَ في ذلك الدير لأسبابٍ عديدة تمثّلت لي، رغم أن جسمي كان يعاني عناءً شديدًا لأني وصلتُ إلى مالاغون مثقلةً بالمرض وما زلت. لكن بدا لي أنَّ في ذلك خدمةً لربنا؛ فكتبتُ إلى الرئيس كي يأمرَ بخير ما يبدو له أن يأمرني؛ فأرسَلَ الإذن بالتأسيس، وأمرني بأن أحضُرَ مصطبحبَةً من أَختارُ من الراهبات؛ فوضعني في موقفٍ حرج، إذ عليَّ أن أبقى مع اللواتي كن يقمن هناك. فرفعتُ الأمرَ بحرارةٍ إلى ربِّنا، وأخذتُ راهبتين من دير القديس يوسف في طليطلة، على أن تكون إحداهنَّ رئيسةً، وراهبتين من دير مالاغون، على أن تكون إحداهنَّ نائبةَ الرئيسة. ولما كنت قد أكثرت التوسّل إلى جلاله، تمّ الأمر على أحسن حال، فنعمتُ بارتياحٍ كبير، ذلك أن التأسيسات التي نباشرها نحن منفرداتٍ، تتوافق الراهبات فيها توافقًا حسنًا.

أعطيت صحّة تامّة

١٨. وجاء الأب أنطونيو ليسوع والأب غبريال لسيّدة الانتقال يطلباننا، فانطلقنا من مالاغون نهار السبت السابق للصوم، الواقع فيه الثالث من شباط / فبراير ١٥٨٠، وقد تزوّدنا كلّ ما نحتاج إليه. وتلطّف الله فرفّر لنا طقسًا جميلاً، وأعطاني صحَّةً تامَّة، فكأَنني ما كنت يومًا مريضة؛ فأدهشَتْني حالتي، وأخذت أتبصّر في أنَّ من المهمّ جدًّا أن لا ننظرَ إلى ضعفِ وسائلنا حين نعرف أن الأمر متعلّقٌ بخدمة الربّ، أيًّا تكن العوائق التي تعترضنا، لأنّه قادر على أن يجعل الضعفاء أقوياء، والمرضي أصحّاء. وعندما لا يفعل هذا، فخيرُ ما نفعله لنفسنا أن نتأَلَّم، وأن ننسى ذواتنا واضعين نصبَ أعيننا كرامتَه ومجده. فما قيمة الحياة والصحّة إن لم نخسَرْهما فدى ملكٍ وسيِّدٍ عظيم مثله ؟ صدِّقْنَني، يا أخواتي، إنْ تسلكْنَ هذا السبيل فلن يصيبكنّ سوءٌ أبدًا.

أمانة الله

١٩. وأَعترف بأن حقارتي وضعفي غالبًا ما أثارا في نفسي الخوفَ والتردّد. ولكن مُذْ أن أعطاني الربُّ ثوب الكرملية الحافية، بل سنواتٍ قبل ذلك، لا أذكر مناسبةً واحدةً لم يُؤتني منّةً، برحمةٍ منه فقط، لأنتصرَ على هذه التجارب وأندفعَ إلى عمل ما أعترُه خدمة كبرى له، مهما كان العملُ صعبًا. وأفهمُ أوضحَ فهمٍ أنّ ما كنت أصنعُه من تلقائي كان يسيرًا، إلاّ ان الله يا يطلب أكثر من عزمنا لكي يصنعه كلّه بنفسه. فليكن مباركًا وممجّدًا أبدًا. آمين.

استقبال رائع

٢٠. كان علينا أن نذهب إلى دير سيّدة المعونة الذي ذكرت أنه يَبعد ثلاث غلواتٍ عن ڤيليانويڤا، وأن نتوقَّفَ هناك لنعلن عن وصولنا؛ هذا ما كان مقرَّرًا، وكان من الطبيعي أن أطيعَ في كل شيء الآباءَ الذين يرافقونا. البيت موجود في صحراء، وفي عزلة عذبة كلّ العذوبة. فعندما اقتربنا من المكان، خرج الرهبان لملاقاة رئيسهم بنظامٍ رائع. كانوا حفاةً يلبسون رداء حقيرًا من صوفٍ خَشِن، فأثاروا فينا روحَ التقوى، ورقَّ لهم قلبي إذ حسبتُني في زمن آبائنا القديسين الزاهر؛ كانوا يُخالون في ذلك الحقل زهورًا بيضاء عطرة؛ وأعتبرُ أنَّ الله يراهم كذلك، لأني أعتقد أنّهم يخدمونه هناك خدمةً حقًّا. دخلوا الكنيسة وهم يرتّلون **نشيد الشكر**[٦] بأصواتٍ شجيّة، مدخل الكنيسة دون مستوى الأرض، فكأنّها مغارةُ أبينا الياس. والحقيقة، أنّه كان يغمرني فرحٌ باطني حتى لكنتُ ارتضيتُ من أجله سفرًا أطول رغم الحزن الشديد الذي انتابني على موت القديسة التي أسَّس الربّ بواسطتها هذا الدير، لأني لم أستحقّ أن أراها بالرغم من رغبتي الشديدة في معرفتها.

تقشّف كاتالينا

٢١. لا يبدو لي نافلاً الكلام على سيرتها هنا وعلى الوسائل التي أراد بها ربُّنا أن يُنشأَ هناك هذا الدير الذي وفّر لنفوس كثيرة في القرى المجاورة نفعًا جزيلاً كما علمْتُ، حتى، إذا عَرفنا تقشّفَ هذه القديسة، ترين، يا أخواتي، كم نحن بعيداتٌ عنها، فنزدَدْنَ اجتهادًا في خدمة ربِّنا؛ فليس ما يبرّر تقصيرَنا عنها ولو اننا لسنا من أصلٍ كريم ومن منبتِ نعمةٍ مثلها. ورغم أنَّ نبل المحتد ليس شيئًا مهمًا، إلاّ أني أشيرُ إليه لأنها عاشت حياةَ رفاهيةٍ تناسب وضعَها كونها من سلالة دوق كاردونا، فكانت تُدعى دونيا كاتالينا دي كاردونا[٧]. وبعد رسائل بعثتْ بها اليّ، صارت توقّع ولا تزيد: "الخاطئة".

اختصار حياتها

٢٢. أمّا حياتها قبل أن يسبغَ عليها الربُّ مِنَنَه الرفيعة فسيرونها مَن يكتبون سيرتَها فيذكرون، بنوعٍ أخصّ، الكثيرَ ممّا يجب أن يقالَ فيها. ولعلّ لما رواه لي بشأنها بعضُ أشخاص عاشروها لا يبلغكم خبرُه، فأثبته عنهم هنا، وهم أهلٌ للتصديق.

---

٦ نشيد الشكر، هو نشيد باللاتينية معروف بمطلعه الذي يشكل عنوانًا له، وهو Te Deum أي: "نسبّحك يا الله، نعترف بك يا رب..." (م).

٧ Doña Catalina de CORDONA.

توقها إلى العزلة

٢٣. عندما كانت هذه القديسة تعيش وأشخاصًا وسادةً من ذوي الشأن[٨]، كانت تهتمّ دائمًا بشؤون نفسها أشدّ الاهتمام، وتمارس التقشّف. نما شوقُها أيَّ نموٍّ إلى العزلة حيث تستطيع التمتّع بالله والانصراف إلى ممارسة التقشّف من دون أيّ عائق. فحدّثت معرّفيها بالأمر فلم يوافقوها عليه. ولا أعجب من اعتبارهم قصدَها حماقةً؛ فالعالم عاقلٌ عن الإدراك، وكان أن ينسى المنن الرفيقة التي أغدقها الله على القديسين والقديسات الذين عبدوه في البريّة. إلاّ أنَّ جلاله لا يقصّر عن تشجيع الرغبات الحقيقية كي تُوضَعَ موضعَ التنفيذ، فرتَّبَ أن تأتيَ وتعترفَ لدى أحد الآباء الفرنسيسيِّين ويدعى الأخ فرانثيسكو دي تورّيس[٩]، وأعرفه جيّدًا جدًّا وأعتبره قدِّيسًا، وهو يعيشُ منذ سنوات عديدة يمارس التقشّفَ والتأمّلِ بحرارةٍ قويّة، ويقاسي الاضطهادات. ولا شكّ أنّه يعرف جيّدًا النعمة التي يمنحها الله للذين يَجهدون لقبولها. وعليه، قال لها أن لا تتراجع عن مشروعها، بل أن تلبِّيَ النداء الذي يوجَّهه إليها جلاله. لا أدري إذا كانت هذه كلماته، لكن المعنى مفهوم، لأنّها وضعتها حالاً موضعَ التنفيذ.

احتجابها عن العالم

٢٤. كشفت نفسَها لناسكٍ من ألكالا وسألته أن يمضيَ معها من دون أن يُطلعَ أحدًا على الأمر. فوصلا إلى حيث يقوم هذا الدير، فوجدت كهفًا يكاد لا يسعها، فتركها هناك. ما أروع الحبَّ الذي كان يحرّكها ! فما كان يهمّها ما تأكل، ولا الأخطارُ التي قد تحدثُ لها، ولا الشتهيرُها إذا بحثوا عنها ولم يَجدوها. ما كان أشدّ شُكرَ هذه النفس القديسة المشبَعَة برغبة التنعّم بعريسها من دون أن يعيقَها أحدٌ عن ذلك، وما أرْوَعَ تصميمَها على رفض العالم تمامًا، فهربت من ملذّاته جميعًا !

فورات البداية

٢٥. فلنتَبَصَّر في هذا جيّدًا، يا أخواتي، ولننظر كيف أنها غلبَت كلَّ شيء معًا. فرغم أنكنّ لا تفعلن دون ما فعلت حين تدخلْنَ هذه الرهبانية المقدسة، وتقدّمْنَ إرادتكنَّ لله، وتنذُرْنَ احتباسًا دائمًا، لا أدري إذا كانت فوراتُ البداية هذه تخمد لدى البعض منكنَّ، فنعود إلى التعلّق ببعض أنانيّتنا. إلا رضيَ جلاله الإلهي أن لا يحدث هذا؛ بل ما دمنا نقتدي بهذه القديسة في إرادتها الهرب من العالم، فلنكُنْ مثلها بعيداتٍ باطنيًا عنه في كل شيء.

خشونة حياتها

٢٦. لقد سمعتُ الكثير عن خشونةِ حياتها البالغة، ويجب أن يُعرفَ منها الأهم. فخلال السنوات العديدة التي قضَتْها في تلك العزلة، ورغباتُها في الحياة الخشنة هي هي كبيرةٌ وليس من يحبِسُها عن ذلك، كانت تعاملُ جسدَها معاملةً فظّة. وسأروي ما سمعَهُ منها شخصيًّا بعضُهم وراهباتُ دير القديس يوسف في طليطلة، حين دخلت لتتعرّفَ إليهنَّ. فقد كانت تخاطبهنَّ بسذاجة كأنّهنَّ أخواتها؛ وكان هذا شأنها مع أشخاصٍ آخرين

٨ كاتالينا دي كاردونا (١٥١٩ – ١٥٧٧) كانت مربيّة دون خوان دي اوستريا (النمساوي)، ابن شارل الخامس، ومربيّة دون كارلوس، ابن فيليب الثاني. تركت حياة البلاط ولبست ثوب الكرمل سنة ١٥٧١ في دير پاسترانا.

٩ Francisco de RORRES.

لأن بساطتها كبيرة، وليس دونها كبرًا تواضُعها. وكمثل إنسانٍ يعرف انه لا يملك شيئًا من عنده، كانت بعيدةٌ جدًّا عن العُجْب، وتلتذّ بأن ترويَ المنَنَ التي يعطيها إيّاها الله لكي يُسَبَّحَ اسمُه ويُمَجَّد. وهذا المسلك خَطِرٌ على من لم يبلغوا هذه الحالة [من التجرُّد] لأنّه قد يبدو، أقلّ ما يبدو، افتخارًا. لكنَّ براءَتها وبساطتها المقدّسة كانتا تعصمانها منه، فأنا ما سمعت قطّ أحدًا نسبَ إليها هذا الذنب.

نوادر تقشّفها

٢٧. رَوَتْ أنها قضت ثمانيَ سنوات في ذلك الكهف، تأكل أيّامًا عديدة عشبَ الحقل وبعضَ الجذور. فعندما استهلكت الأرغفةَ الثلاثة التي تركها لها الذي رافقها، لم تحصل على غيرها إلى أن مرَّ من هناك راعٍ صغير، طفق يُمدّها فيما بعد بالخبز والطحين، فكانت تأكل مرَّةً كلَّ ثلاثة أيام بعض طُلماتٍ مخبوزة على على الجمر لا غير؛ وهذا صحيح، يشهد على صحتّه الرهبان الموجودون قريبًا منها وقد دَرَوا بها بعد أن صارت منهوكة القوى. وحين مضت تسعى لتأسيس الدير، كانوا يقدّمون لها أحيانًا سمكةَ سردين أو أشياءَ أخرى فيسيءُ ذلك إليها أكثر ممّا ينفعها. أما الخمر، في ما أعلم، فلم تشربه قطّ. كانت تجلد جسدَها بسلسلةٍ كبيرة، وغالبًا ما يدوم ذلك ساعتين أو ساعةً ونصف ساعة. أمّا المسح، فَخَشِنٌ كلَّ الخشونة. فقد روت لي امرأةٌ أنها، لدى عَوْدتها من زيارةِ حجٍّ باتت عندها ذات ليلةٍ وتظاهرت بأنّها تنام، فرأتها تنزع المسوح المشبّعة دمًا لتنظّفها. وأخطرُ من هذا ما كانت تهانيه من الشياطين، كما روت للراهبات اللواتي ذكرتُهنَّ[١٠]، يَتَمَثّلون لها حينًا كلابًا ضخمة يفقزون على كتفيها، أو حيَّاتٍ أحيانًا، أما هي، فما خافت منهم قط.

تقواها وثيابها

٢٨. بعد أن أسَّست الدير، ما انفكَّت تذهب إلى الكهف، وتمكث فيه وتنام، إلاّ حين تذهب للمشاركة في الفرض الإلهي. وقبل إنشاء الدير، كانت تذهب لسماع القداس في دير رهبان سيّدة النعمة، على بعد ربع فرسخ، وتبقى راكعة طواله أحيانًا. ثوبها من صوف رقيق وعباءَتها من بُرْدٍ مَخيط يوحي منظرُه بأنها رجل.

إقبال الناس عليها

على إثر السنوات التي قضتها في عزلةٍ تامّة، أراد الربّ أن يُشْهَر أمرُها، فشرعَ الناس يكرّمونها حتى عجزت عن تحاشيهم. كانت تخاطبُ كلَّ واحد بلطف ومحبّة. وكلما طال الوقت ازداد الناس إقبالاً عليها، ومن استطاع أن يخاطبها حَسِبَ نفسَه محظوظًا. أمّا هي فقد أتعبها الحال اضدّ تعبٍ حتى قالت إنّهم يقتلونها. وحدث في بعض الأيام أن كادت العرباتُ تملأ الحقل المجاور، فلما حضرَ الرهبان إلى المكان لم يجدوا وسيلةً سوى أن يرفعوها إلى موضعٍ عالٍ لتباركَ الحجاج؛ وهكذا تخلّصوا منهم.

بعد السنوات الثماني التي قضتها في الكهف، وقد عَظُمَ أمرُها بفضل الذين كانوا يقصدون المكان، نزل بها مرضٌ خطير ظنّت أنه سيقضي عليها؛ وقاست كلَّ ما قاست في ذلك الكهف.

---

١٠ أي لراهبات طليطلة. راجع العدد ٢٦.

رغبة في إنشاء دير للكرمليين

٢٩. بدأت حينذاك تتمنّى أن يُنشأَ هناك دير للرهبان؛ وظلّت تفكّر في الموضوع زمنًا وهي لا تعرف لأيَّةِ رهبانية يدب أن ينتمي. وإذ هي ذات مرّة تصلّي لمصلوب تحمله دائمًا معها، أراها ربُّنا عباءَةً بيضاء، فأدركت أنه يجب أن يكون ديرًا للكرمليين الحفاة، وما كان بلغَ مسمَعها قط انهم موجودون في العالم؛ فلم يكن قد أنشئَ إذ ذاك إلاّ ديران، أحدُهما في مانثيرا والآخر في پاسترانا. ثمَّ استعلمت عن الأمر فيما بعد، فعرفت بوجود دير في پاسترانا. كانت تربطها في زمنٍ مضى صداقةٌ متينةٌ بأميرة إيبولي، زوجة الأمر روي غوميث صاحب پاسترانا[١١]. فمضت إلى هناك لتدرس كيفية إنشاء هذا الدير الذي ترغب في تأسيسه أيَّ رغبة.

إتشاحها بثوب الكرمل

٣٠. هناك، في دير پاسترانا، في كنيسة القديس بطرس، لبست ثوب العذراء سيِّدتنا، من دون أن يكون في نيَّتها أن تصيرَ راهبةً أو أن تُبرزَ النذور؛ فهي ما مالت قطّ إلى أن تصيرَ راهبة؛ فالربُّ كان يقودها في طريق آخر؛ وكانت تخالُ أن الطاعة تعطِّلُ قصدَها أن تعيش حياةَ الخشونة والإنفراد. وقد لبست ثوب سيّدة الكرمل بحضور جميع الرهبان.

رؤيا ماريانو النبوية

٣١. كان حاضرًا الاحتفال الأب ماريانو، وقد ذكرتُه في هذه التأسيسات، فقال لي شخصيًا إنّه حَصَلَ له انجذابٌ أو انخطافٌ استهواه كلّيًا، ورأى، وهي على هذه الحال، كثيرين من الرهبان والراهبات الموتى: بعضهم معطوعو الرأس، والآخرون قُطعت أرجُلهم أو أذرُعهم، فكأنهم يقاسون الاستشهاد؛ وهذا معنى هذه الرؤيا. وإنه رجل لا يروي إلاّ ما يتحقّقه بعينه، وليس روحُه متعوّدًا على هذه الانخطافات، لأن الله لا يقوده في هذا الطريق. فصلّين، يا أخواتي، ليكون هذا حقيقيًا وكي نستحقَّ في أيامنا هذه أن نرى هذا الخيرَ العظيم، وأن نكونَ، نحن، في عداد الشهيدات.

ظهور علامات قداستها

٣٢. وفي پاسترانا، بدأت القديسة كاردونا تسعى للحصول على الوسائل لتأسيس ديرها. ولهذا الغرض، رجعت إلى العاصمة التي كانت قد غادرتها بتمام الرضى، وعانت اضطرابًا ملحوظًا إذ لاحقتها تقوّلاتٌ خطيرةٌ ومصاعب؛ فلدى خروجها من المنزل ما كانت تستطيع التملّص من الجماهير؛ وكان هذا حالها حيثما ذهبت. فالبعض يقصّون من ثوبها قطعة، وآخرون من ردائها. فذهبت إلى طليطلة حيث مكثت لدى راهباتنا. قد أَكَّدن لي جميعًا أن رائحةَ ذخيرةٍ قوّة جدًّا كانت تنبعث منها، حتى إن الثوبَ والزنَّار اللذين تركتهما فيما بعد — وقد أعطَيْنَها غيرهما ليحتفظنَ بهما —، كانت تفوح منهما رائحةٌ يمجّدن بفضلِها ربّنا. وكلّما اقتربنَ منها ازدادت الرائحةُ قوّةً، رغم أن نوعَ ثيابها بفعل الحرّ الشديد الحاصل، من شأنه أن يبعثَ رائحةً كريهة. وأعرف أنهنذَ لا يَقُلْنَ إلاّ الحقيقة كلَّ الحقيقة، وقد حفظنَ لها تقديرًا وافرًا.

---

١١ EBOLI; Ruy GÓMEZ; Pastrana.

تأسيس الدير وموتها

٣٣. أُعطِيَتْ في العاصمة وفي أماكن أخرى ما يلزمها لتنشئ ديرها، وحصلت على الترخيص فأسَّسته. أما الكنيسة فبُنِيَتْ مكانَ كهفها، وحفروا لها، على حدة، كهفًا آخر يضمُّ مدفنًا تقضي فيه أكثر وقتها ليلاً ونهارًا. لكن لم يدم لها طويلاً؛ فما عاشت سوى خمس سنوات ونصف تقريبًا بعد تأسيس الدير؛ ومع خشونة حياتها، بدا أنَّ ما عاشته كان فائقَ الطبيعة. ماتت سنة ١٥٧٧ فيما أظن. وأقيم لها مأتمٌ حافلٌ جدًّا واهتمَّ بذلك كبيرَ اهتمام نبيلٌ يُدعى الأخ خوان دي ليون كان يكنّ لها احترامًا كبيرًا. وهي مدفونةٌ مؤقتًا في لحدٍ في معبدٍ مكرّس لسيّدتنا، وكانت متعبِّدة لها للغاية، إلى أن يتمَّ بناء كنيسةٍ أكبر من الكنيسة القائمة فيودَع فيها جسدها المبارك كما يليق بها.

الدير مبعث ورع

٣٤. إن هذا الدير يحرّك في النفس الوَرَعَ بفضلها، فكأنها باقيةٌ فيه وفي تلك الناحية، خصوصًا عندما تُرى تلك العزلة، وذلك الكهف الذي عاشت فيه. وقبل أن تقرّر إنشاءَ الدير، شَهِدَ عندي كثيرون على انها كانت تُرى تعبةَ وحزينة من الجماهير التي تأتي لمشاهدتها، حيي إنّها أرادت أن تمضيَ إلى مكان لا يدري فيه بأمرها أحد. فاستدعت الناسكَ الذي كان قد وجَّهها إلى هناك لعلّه ينقلها إلى موضع آخر؛ لكنّه كان قد مات. وربّنا الذي كان مصمِّمًا على أن يُبنى هناك ديرُ سيّدتنا هذا لم يُتِحْ لها أن تذهبَ؛ ففي اعتقادي، كما قلت، أنه يكرَّم فيه تكريمًا كبيرًا. الرهبانُ لديهم ما يحتاجون إليه وافرًا، ويُرى أنّهم يهوون الحياة بعيدين عن الناس، خصوصًا الرئيس الذي انتزعه الله من مُتَعِ الحياة ليلبسَ هذا الثوب، فعوَّضَه بوافرٍ في الملذات الروحية.

مقارنة مستحيلة

٣٥. لقد صنع معنا محبّةً كبيرة. فقد قدّموا للكنيسة التي قرَّرنا تشييدها قسمًا من لوازم كنيستهم التي أغناها بالملابس البيعية كثيرون من وجهاء القوم يحبّون هذه القديسة. فارتحتُ كثيرًا جدًّا طيلة الوقت الذي مكثتُه هناك رغم حيرةٍ كبرى ما زالت تلازمني. فقد رأيتُ أن تلك التي عاشت حياة تقشّفٍ قاسية هذه القساوة كانت امرأة مثلي، بل أرهفَ منّي حسًّا يفضل طبيعتها، وليست خاطئةً كبرى مثلي؛ فالمقارنة بيننا مستحيلة؛ وقد تلقّيت من ربّنا مننًا أكبر وأوفَرَ عددًا، وأعظمها أنّني لست الآن في جهنّم بسبب خطاياي الفظيعة. وما كان يعزّيني سوى رغبتي في الاقتداء بها، إذا كان لها أن تشجعني، لأني صرفت حياتي كلَّها بالرغائب، أما الأفعال فلا أحقِّقها. كانت رحمةُ الله في عوني، فعلى الله اتّكلت دائمًا بواسطة ابنه القدوس والعذراء سيّدتنا التي ألبس ثوبها بفض ربّنا.

رؤيا المرأة القديسة

٣٦. بعد أن تناولتُ القربان ذات يوم في تلك الكنيسة المباركة، غرقتُ في اختلاءٍ عميق، فتعطّلت حواسي وأَخذت بي عيبوبةٌ تمثَّلت لي فيها هذه المرأة القديسة في رؤيا عقلية، وكأنها جسدٌ ممجّد، يحيط بها بعضُ الملائكة. قالت لي أن لا أيأسَ بل أن أسعى إلى السير قُدُمًا في هذه التأسيسات. ففهمتُ منها، ولو لم تُشِر إلى ذلك، أنّها تساعدني أمام الله. وقالت لي أيضًا شيئًا آخر لا داعي لكتابته. فغمرني الارتياح وامتلأتُ رغبةً في

العمل. وآمل من جودة ربّنا أن أستطيعَ القيام بخدمته بعض الخدمة بفضل المساعدة الطيبة التي توفّرها لي هذه الصلوات.

دعوة إلى التمثّل بها

فترين إذًا، يا أخواتي، كيف أن مشقّاتها زالت، وأن المجد الذي حصلت عليه لا يزول. فلنبذل جهدنا الآن، حبًّا بربنا، في الاقتداء بأختنا هذه، فإذا كرهنا أنفسَنا كما كرهت، هي، ذاتَها، نختمُ مسيرتَنا، فإنّها قصيرةٌ جدًّا، وكلُّ شيء إلى زوال.

استقبال وتطواف

٣٧. وصلنا إلى ڤيليانويڤا دي لا خارا في الأحد الأول من الصوم، عشية عيد إقامة كرسي القديس بطرس[١٢]، يوم عيد القديس بارباثياني، سنة ١٥٨٠. وفي هذا اليوم بالذات، صُمِدَ القربانُ الأقدس في كنيسة القديسة حنّة المجيدة في أثناء القداس الكبير. وخرج للقائنا المجلسُ البلدي بكامل أعضائه وآخرون بينهم الدكتور إرڤياس، وانتهينا إلى كنيسة القرية البعيدة جدًّا عن كنيسة القديسة حنّة. وكان فرحُ الشعب كلّه كبيرًا جدًّا في استقبال رهبانية سيّدتنا العذراء الكليّة القداسة، فأثار سرورهم هذا ارتياحًا عظيمًا في نفسي. كانت أصواتُ الأجراس تُسمَع في البعيد. وعند دخولنا الكنيسة، بدأوا بترتيل **نشيد الشكر**، يتناوبُ على أدائه دورًا دورًا الجوق وعازف الأرغن. وكان القربان الأقدس مصمودًا على مِحَفّة وتمثال سيّدتنا على مِحَفّة أخرى يحيط بهما الصلبان البيارق، والطائفون بهما يسيرون بجلال. كنّا نلبس وشاحنا الأبيض، وحجابُنا مُسْتَلٌ أمام وجهنا، نسير في الوسط إلى جنب القربان الأقدس وبقربنا رهباننا الحفاة وقد جاؤوا من الدير كُيُرًا؛ وكان هناك الفرنسيسكان، ففي القرية دير لرهبانية القديس فرنسيس وراهبٌ دومنيكي وُجِدَ في القرية صدفةً؛ ومع أنه وحيد، فقد سرَّني أن ارى ذلك الثوب هناك. كانت المسافة بعيدةً، فنُصِبَت مذابحُ عديدة. وكان الطائفون يتوقّفون حينًا بعد حين فيُنشدون مقاطعَ يتغنّون فيها برهبانيتنا فتحرّك فينا مشاعرَ التقوى إذ ترى الجميعَ يمجّدون الله العظيم الحاضرَ بيننا، وأنه، حبًّا به، أُعِرْنا اهتمامًا نحن الحافيات السبع المسكينات المشاركات في التطواف. رغم كل هذه الاعتبارات، أصابني خجلٌ بالغ؛ فقد رأَيتُني أسيرُ بينهنّ وأفكّر في أنه لو عوملْتُ كما أستحقّ، لكان الجميعُ انتفضوا عليّ.

معاناة الراهبات

٣٨. لقد وصفتُ لكنّ وصفًا مطوّلاً التكريم الذي حَصَلَ لثوب العذراء كي تسبِّحْنَ ربّنا، وتتوسّلنَ إليه كي يجعلَ هذه المؤسَّسة في خدمته؛ فأنا، حين تلاحقني الاضطهادات والمصاعب، يكون سروري أكبر، وأروي الأمور لكنّ برغبة أوفر. والحقيقة أنَّ هؤلاء الأخوات الموجودات هناك قاسَيْنَ مصاعبَ طوال ستِّ سنوات تقريبًا، أو أقله أكثر من خمس سنوات ونصف، منذ أن دخلْنَ بيت القديسة حنّة المجيدة هذا؛ يضاف إلى ذلك الفقرُ المدْقع والعناءُ في حصولهنَّ على معاشهنّ، لأنهنَّ ما أَرَدْنَ قطّ أن يسألن حسنةً، – لئلا يقال إنّهنّ جئنَ إلى هناك لِيُقدَّمَ لهنَّ المعاشِ، – والتقشّفُ القاسي الذي مارسنَه كالإكثار من الصوم، والإقلال من الأكل، والأسرَّةِ غير المريحة، وضيقِ البيت، كلّ هذا كان بالغَ المشقّة عليهنّ في احتباسهنّ الدائم.

---

١٢ في ٢١ شباط / فبراير ١٥٨٠.

تقشّف وفقر

٣٩. قلن لي إنّ أكبرَ همٍّ عانَيْنَ منه ليلاً ونهارًا كان شوقهنَّ العظيم إلى أن يرتدين الثوب، حتى خِلْنَ أنهنَّ لن يرينه أبدًا؛ وعليه كنَّ يسأَلْنَ الله دائمًا في صلاتهنَّ، وبدموعٍ غزيرة، ان يعطيعنّ هذه المنّة. وعندما يَرينَ أنَّ هناك صعوبةً ما جديدةً، يأخذ بهنّ حزنٌ بالغ ويزِدْنَ من التقشّف. كنّ يرفّرن ممّا يكسبن على حساب طعامهنَّ ليدفَعْنَ أجرَ الرسلَ الذين يبعثْنَهُم إليَّ، ويعبّرن، على قدر ما يسمح لهنَّ الفقر، عن عاطفةِ العرفان للّذين يستطيعون مساعدتهنّ في شيء. وإنّي لأدرك جيّدًا، بعد أن عاشرتهنَّ ورأيتُ سموَّ قداستهنَّ، أنَّ صلواتهنَّ ودموعهنَّ كانت وراء قبولهنَّ في الرهبانية. وعليه، أعتبرُ وجودَ نفوسٍ كهذه فيها كنزًا أوفر غنى من ريعٍ وافر، وآمل أن هذا البيت سيحقِّق تقدمًا كبيرًا.

انتظار صبور

٤٠. عندما دخلنا البيت، كنَّ جميعًا ينتظرْنَنا عند الباب الداخلي مرتديةً كلُّ واحدةٍ بدلتَها الخاصّة؛ فقد حافظن على لباسهنَّ السابق الكثير الحشمة ولم يرغبن قطّ في ارتداء زيّ العابدات بانتظار ارتدائهنَّ ثوبَنا الرهباني؛ ولباسهنَّ ذاك، فَلِقلَّة انسجامه، كان دليلاً على إهمالهنَّ ذواتهنّ، كما كان نحولهنَّ جميعًا برهانًا على المبالغة في حياة التقشّف.

نمطِ عيش الفتيات

٤١. استقبَلْنَنا بدموعِ سرورٍ غزيرةٍ بَدَتْ غيْرَ مصطنعة بل تبرهنُ على رسوخ فضيلتهنّ، وفرحهنّ، وتواضعهنّ، وطاعتهنّ الرئيسة؛ وتراهنّ يتفانينَ في توفير المسرّات للواتي أتَيْنَ يقُمنَ بأعمال التأسيس. أمّا خوفهنّ فأن يَرَيْنُهنَّ مُرغَماتٍ على العودة نظرًا إلى فقرهنَّ وضيق المكان. ما أَمرتْ قطّ واحدةٌ منهنّ الأخريات، بل كانت كلُّ واحدة منهنّ تعمل بروح الأخوّة أقصى ما تستطيع. كانت اثنتان منهنّ، أكبرهنّ سنًّا، تتعاطيان الشؤونَ مع الغرباء عند الحاجة؛ أمّا الأخريات فما كنَّ يحادثن أحدًا ولا يُرِدْنَ محادثَته. ما وضعن مفتاحًا في الباب قطّ، بل ضبَّة[١٣]؛ وما كانت إحداهنَّ تتجرّأ على الاقتراب من الباب، بل إن أكبرهنَّ سنًّا تجيب الداعي. ينمنَ ساعاتٍ قليلةَ جدًّا ليوفّرن الطعامَ ولئلا يفوتهنّ التأمّل الذي يخصّصن له ساعاتٍ طويلة، وفي أيام الأعياد النهارَ كلَّه. يسترشدن بمؤلفات الأب لويس دي غرانادا[١٤] والأب بدرو دي ألقنطرا[١٥].

طريقتهنّ في الصلاة

٤٢. كنّ يقضين أكثر الأوقات في تلاوة الفرض الإلهي[١٦] على قلّة معرفتهنّ القراءَة ما عدا واحدة تتقنها. وكتبُ الفرض مختلفٌ بعضُها عن البعض الآخر، منها قديمةٌ تضمّ الفرضَ الروماني كان قدَّمها لهنَّ كهنة لم

---

١٣ الضبَّة: لسان من حديد يوضع في الباب لطرقه واستدعاء سكّان المنزل. والكلمة العربية تحوَّلت إلى الاسبانية Aldaba (م).

١٤ الأب لويس دي غرانادا، (١٥٠٤ – ١٥٨٨) راهب دومنيكي واعظ شهير ومعلّم روحي بارز. له مؤلفات عديدة تجمع بين العمق الزهدي وجمال الأسلوب. من أشهرها: **كتاب الصلاة والتأمّل** وبنوع خاص: **مرشد الخاطئين** (م).

١٥ كتبت عنه في **كتاب السيرة**، وله مؤلَّف في الصلاة والتأمّل مشابه لكتاب لويس دي غرانادا، أو هو اقتباس عنه (ش. ر.).

١٦ أي الشحيمة التي تتضمن الفرض الإلهي بحسب الطقس اللاتيني (م).

يعودوا بحاجة إليها، وتَدَبَّرْنَ الباقي كيفما اتَّفق لهنَّ. ولأنهنّ لا يعرفْنَ القراءَة، كنَّ يقضين ساعاتٍ طويلةً، ويصلّين في مكانٍ لا يُستطاع سماعهنَّ من الخارج. والله ينظر نيَّتهنَّ والمشقَّةَ التي يبذُلْنَها؛ فغالبًا ما كنَّ يُخطئنَ. ولما بدأ الأب أنطونيو ليسوع يرشدهنَّ، حدّد لهنَّ تلاوة فرض سيّدتنا فقط. كان لديهنَّ فرنٌ يصنَعْنَ فيه الخبز، ويعملن كلَّ ما يعملن بتوافقٍ تامّ، كأنَّ أحدًا يُصدرُ أمرًا فينفّذْنَه.

تقدير فضائلهنَّ

٤٣. كنت أسبِّح ربَّنا على ما هنَّ عليه، وكلَّما خالطتهنَّ ازددتُ سرورًا لأني قدمتُ إليهنَّ. وأظنني لن كُبِتَ عليَّ أن أقاسيَ مشقَّاتٍ كثيرةً لما تقاعستُ عن تشجيع هذه النفوس. لقد قالت لي اللواتي صحبْنَني ثم بقين معهنَّ إنّ الأمر لم يَخْلُ من بعض الصعوبات في الأيام الأولى، لكن بمقدار ما ازدَدْنَ معرفةً بهنَّ وتقديرًا لفضيلتهنَّ، بلغ فرحهنَّ مبلغًا بالعيش معهنَّ، وأحبَبْنَهنَّ حبًّا جمًّا. إن القداسة والفضيلة تفعلان أمورًا عظيمة. وهذا كان شأنهنَّ في الحقيقة. فالأخت التي لا تشعر بهذه الرغبة لا تحسبنّ نفسَها حافيةً حقيقية؛ فغاية رغباتنا يجب أن لا تكونَ الراحةَ بل احتمالُ الآلام كي نقتديَ بعض الاقتداء بعريسنا الحقيقي. ألا رضي جلاله بأن يعطينا النعمة لذلك، آمين.

قصّة المحبسة

٤٤. أما إنشاء محبسةِ القديسة حنّة، فحَصَلَ على هذا النحو. كان يقطن في قرية ڤيليانويڤا دي لاخارا المذكورة كاهن أصله من ثامور[١٧] كان منتميًا في السابق إلى رهبانية سيّدة الكرمل، متعبّدٌ للقديسة حنّة المجيدة، يدعى دييغو من وادي الحجارة[١٨]، فبنى قرب منزله هذه المحبسة يقيم فيها القداس. وبدافع تقواه الراسخة مضى إلى روما وعاد ببراءَةٍ تُنعم على هذه الكنيسة أو المحبسة بغفراناتٍ وافرة. كان رجلاً فاضلاً يحبّ الخلوة. عندما وافته المنيّة، طلبَ في وصيته أن يتحوّل هذا البيتُ وما يملكه إلى دير لراهبات سيّدة الكرمل؛ وإذا لم يتحقّقْ ذلك، فأن يتولّى المكان كاهنٌ يقيم بعضَ القداسات كلَّ أسبوع، وعندما يصير ديرًا لا يعود إلزاميًّا إقامة القداس.

تحوّل المحبسة إلى دير

٤٥. وظلَّ يقوم بخدمة المكان كاهنٌ أكثر من عشرين عامًا؛ لكن الموضع المالي كان في أسوأ حال، بحيث إنّه حين دخلت أولئك الفتيات إلى البيت لم يجدن غير البناء. فالكاهن كان يقطن في منزلٍ آخر يخصّ المعبد، وسيغادره الآن تاركًا لهنَّ كلَّ شيء، وهو قليلٌ قليل. غير أن رحمةَ الله عظيمةٌ جدًّا فلن يُحْجِمَ عن مساعدة بيت جدَّته المجيدة. إلا رضيَ جلاله بأن يُخدَمَ دائمًا في هذا البيت، وأن تسبّحه جميعُ المخلوقات إلى أبد الآبدين، آمين.

---

١٧ Zamora.

١٨ Villanueva de la Jara، أي قرية الحجارة الجديدة وGuadalajara هي وادي الحجارة (م).

الفصل التاسع والعشرون

في تأسيس دير القديس يوسف لسيّدة الشارع في پالنثيا، وذلك سنة ١٥٨٠ يوم عيد الملك داود.

مرضٌ خطير

١. لدى عودتي من تأسيس دير ڤيليانويڤا دي لاخارا، أرسلني الرئيس إلى ڤاليادوليد[١] بناء على طلب أسقف پالنثيا، السيد ألڤارو دي مندوثا، الذي كان قد أذِنَ وشجَّع أوّلَ ديرٍ أقيم في آڤيلا، وهو دير القديس يوسف، وقدَّم دائمًا عونه لكلِّ ما يعود إلى هذه الرهبانية. ولما كان ترك كرسي آڤيلا الأسقفية وانتقل إلى پالنثيا، حرّك ربُّنا رغبتَه في أن يُنشَأ في هذه المدينة ديرٌ آخر لهذه الرهبانية المباركة. عندما وصلتُ إلى ڤاليادوليد أصابني مرضٌ خطير حتى ظُنَّ أنّني صائرة إلى الموت. فَقَدْتُ أدنى رغبةٍ في أيِّ شيء، وخلتُني أبعدَ ما أكون عن أن أستطيع إتيانَ أمرٍ ما، حتى ان رئيسة ديرنا هناك، على رغبتها الكبرى في تأسيس ذلك الدير وإلحاحها عليَّ في ذلك، عجزت عن إقناعي؛ فما كنت أرى الوسائل، لأن الدير ليس له ريع، وقيل لي إن إعالة الراهبات مستحيلة، لأن المدينة فقيرةٌ جدًّا.

معارضتها المشروع

٢. كانت محاولات إنشاء هذا الدير ودير بروغُس جاريةً منذ سنة، وما كنت آنذاك متشدّدة في معارضة المشروع، إلاّ أني، حينئذٍ، وجدت الموانع كثيرة رغم أني ما قدمت إلى ڤاليادوليد إلاّ لهذا الغرض. ولا أدري إذا كان مردّ معارضتي إلى المرض الذي أصابني والهزال الذي نتج عنه أو ان الشيطان كان عازمًا على إعاقة الخير الذي حصل لاحقًا. والحقيقة أنّه يُرغِّبني ويُرهّبني، فأشكو غالبًا إلى ربِّنا أن النفسَ المسكينة تشارك الجسد مَرَضَه مشاركةً بالغةً، فكأن عليها أن تخضعَ حتمًا لنواميسه بحسب الحاجات والأشياء التي يصوّرها لها.

خضوع النفس للجسد

٣. وما يبدو لي إحدى أشدّ المحن والمصائب في الحياة، هو ان لا يتوافر روحٌ كبيرٌ يُخضِع الجسد. فلئن كان احتمالُ الألم ومقاساةُ الأوجاع الشديدة محنةً، فأنا لا أعتبرها شيئًا إذا كانت النفسُ متيقِّظة، لأنها عندئذٍ تسبّح الله وتعتبر ذلك صادرًا عنه. إلاّ أن المعاناة من جهّة، والانقطاع عن العمل من جهّة أخرى، أمرٌ مريعٌ، لاسيّما لنفسٍ لازمتها رغباتٌ كبرى في أن لا تستريح داخليًا أو خارجيًا، بل في أن تُشغلَ ذاتَها في خدمة إلهها العظيم، ولا علاج لها في هذه الحال إلاّ الصبر، وأن تعتبرفَ ببؤسيها وتستسلمَ إلى أرادة الله كي يستخدمها في ما يريد وكيفما يريد. لقد كانت هذه حالي آنذاك رغم أني كنت في طور النقاهة؛ إلاّ أنَّ ضعفي بلغَ حدًّا أفقدَني الثقة التي اعتاد الله أن يبثّها فيَّ لمباشرة هذه التأسيسات. كلُّ شيءٍ صار لديَّ مستحيلاً، ولو اني وفّقْتُ حينئذٍ إلى

---

١ Valladolid أي بلد الوليد على مسافة ١٩٥ كلم شمال شرق مدريد. كانت في زمنٍ ما مقرَّ البلاط وبالتالي عاصمة اسبانيا (م).

شخصٍ يشجّعني، لكان أسدى إليَّ نفعًا جزيلاً؛ غير أن البعضَ كانوا يزيدون على خوفي خوفًا، والأمل الذي يبثّه فيَّ آخرون ما كان كافيًا ليزيلَ سقوطَ همّتي.

استرشاد معلّمين

٤. وصَدَف أن مرَّ في المدينة أحدُ الآباء اليسوعيين، وهو خادم الله الكبير المعلم ريپالدا[٢]، الذي استرشدتُه فترةً من الزمن، فعرضتُ له حالي وسألته رأيه مبديةً استعدادي لأن أضَعَه في منزلة إرادة الله. فبدأ يزيدني شجاعة وقال إنّ جُبني يعود إلى أنّي طعنتُ في السنّ. غير أنّي ما رأيتُ رأيه؛ فأنا الآن عجوز أكثر من قبلُ ولا أعرف الجُبن. وهو أيضًا كان يعرف ذلك من دون شكّ، إلاّ أن قوله هذا كان لتوبيخي، وكي لا أحسبَ أنّها إرادة الله. وكان مطروحًا آنئذٍ تأسيسُ دَيْرَيْن في آن، أحدهما في پالنثيا والآخر في بورغس، وما كنت أملك شيئًا للقيام بهذا أو بذاك. غير أن القضية لا تكمن هنا، فقد تعوَّدتُ أن أشرع في العمل بما دون ذلك. وأوصاني أن لا أتقاعسَ في أيِّ حال. وكان الرئيس الاقليمي لليسوعيين، الأب بلطاسار ألڤاريث، قد أبدى لي الرأيَ نفسه قبل ذلك بقليل في طليطلة، إلاّ أنّي كنتُ حينذاك في صحَّةٍ جيّدة.

تردّد وفتور

٥. ما كفاني ذلك لأقرِّر الإقدامَ رغم أنّه حملني على التفكير. وما انتهيت إلى تصميم العزم نهائيًا، لأنّ الشيطان أو المرض، كما ذكرت، كانا يقيّداني. غير أني شعرت براحةٍ كبرى. وكانت رئيسةُ دير ڤاليادوليد تحثُّني ما استطاعت لرغبتها العظيمة في أن يتمَّ تأسيس دير في پالنثيا؛ غير أنّها كانت تراني كثيرة الفتور، فيراودها الخوف أيضًا.

ولتأتِ الآنَ الحميّةُ الحقيقية؛ فلا الناس يكفّون ولا خدّام الله، وهذا يبرهن مرّةً جديدة على أنّي لست، أنا، من يصنعُ شيئًا في هذه التأسيسات، بل ذلك القادرُ على كل شيء.

توبيخ الربّ

٦. ذات يوم، بعد تناولي القربان، وفيما هذه الشكوك تتجاذبني، وأنا متردّدةٌ في القيام بأيِّ تأسيس، توسّلت إلى ربّنا أن ينيرني لأصنعَ إرادته في كلّ شيء، ففتوري لم يبلغْ حدًّا يعطّل فيَّ هذه الرغبة قيد شعرة. فقال لي ربُّنا بلهجة توبيخ: **ماذا تخافين ؟ متّى قصَّرتُ معك ؟ انني الآن كما كنت ؟ لا تَقْعَدي عن تحقيق هذين التأسيسين.**

اللّهمّ ما أَعظمط ! ما أغربَ كلامَك عن كلام الناس ! فصمَّمْتُ على المشروع، ووطّنْتُ النفسَ عليه حتى لكانت ذهبت معارضَةُ البشر كلّهم سدىً، وشرعتُ حالاً أضعه موضعَ التنفيذ، وبدأ ربُّنا يوفّر لي الوسائل.

---

[٢] RIPALDA.

انطلاق التأسيس

٧. اصطحبتُ راهبتين لشراء البيت. فقولهم لي إنّ العيشَ من الحسنات في پالنثيا غيرُ مستطاع، لم يكن يعني لي شيئًا، إذ كنت أعرف أنه يستحيل إذذاك تخصيصُ الدير بريع؛ وبما أنَّ الله اراد أن يُنْشَأ، فإن جلاله يتدبّر الأمر. وعليه، ومع أني ما استعدتُ صحّتي كاملةً، عزمتُ على الذهاب رغم سوء حال الطقس. فانطلقت من ڤاليادوليد يومَ تذكار أطفال بيت لحم[٣] من السنة التي ذكرتها لأن أحد النبلاء من پالنثيا قد أعارنا بيتًا كان قد استأجره حتى عيد القديس يوحنا ولم يعد يسكنه.

التماس المساعدة

٨. كتبتُ إلى أحد الكهنة القانونيين في تلك المدينة رغم أني لا أعرفه؛ غير أنَّ صديقًا أكّد لي أنّه خادم الله، فَرَسَخ في ذهني أنّه سيساعدنا كثيرًا، لأن الربَّ نفسه،كما رأينا في التأسيسات الأخرى، يتَّخذ في كل مشروع شخصًا يساعد على تحقيقه، لأن جلاله يرى القليل الذي أستطيع صنعه. فأرسلتُ أتوسّلُ إليه أن يُخليَ البيت بأسرع ما يمكن لأن أحدَهم كان يشغله، وان لا يُفصِحَ لشاغله عن الغاية من الإخلاء؛ فرغم أن بعض الوجهاء قد افصحوا عن حسن إرادة، ورغم أن رغبة الأسقف كبيرة، فقد كنت أرى كتمانَ الأمر آمَن.

ترتيب الأمر بسهولة

٩. وقد رتّب الأمرَ القانوني رينوسو[٤] – وهو اسم من كتبت إليه — كأحسن ما يكون، فلم يحقّق إخلاءَ البيت فحسب، بل وجدنا أسرّةً ووسائلَ راحةٍ وفيرة. وكنَّا بحاجةٍ إليها لأنَّ البرد قارس، واليومُ السابق كان شاقًّا والضبابُ كثيفًا حتى يكاد أحدٌ لا يرى الآخر. والحقيقة أننا لم نسترح إلاّ يسيرًا قبل أن نُعِدّ مكانًا للاحتفال بالقدّاس في الغد. وقد تمَّ ترتيبُ المكان قبل أن يدريَ بوصولنا أحد — وجدت هذه الطريقة أكثرَ ما تلائم هذه التأسيسات، فإنّه حين يبدأ عرضُ الآراء، يشوّش الشيطانُ كلَّ شيء؛ فرغم أنّه لا يكسبُ شيئًا، فإنه يثير البلبال –. وفي الغداة باكرًا، مع طلوع الفجر تقريبًا، احتفلَ بالقداس كاهن كان يصحبنا يدعى پورّاس[٥]، يخدم الله خدمة نصوحًا؛ وكاهنٌ آخرٌ صديقٌ لراهبات ڤاليادوليد يدعى أغسطين دي ڤيكتوريا[٦]، كان قد أقرضني مالاً لإعداد البيت، وقدّم لنا هباتٍ شتّى في أثناء السفر.

أخت مساعدة

١٠. كنَّا خمسَ راهبات، إحداهنَّ أنا، ورفيقةٌ تلازمني منذ أيام، أختٌ مساعدةٌ، تعبد الله حقًّا، رصينة، تستطيع مساعدتي أكثر ممَّا تستطيع الناذات. نمنا قليلاً تلك الليلة رغم ان السفر كان شاقًّا، كما قلت، بسب الأمطار.

---

٣ ٢٨ كانون الأول / ديسمبر ١٥٨٠، وعيد القديس يوحنا في ٢٤ حزيران / يونيو.

٤ REINOSO.

٥ PORRAS.

٦ Augustín de VICTORIA.

سخاء الأسقف واهتمامه

١١. طاب لي كثيرًا أن يتمَّ التأسيس ذلك اليوم لأننا نتلو فيه فرض الملك داود الذي أكنّ له عبادة خاصّة. وفي ذلك الصباح أرسلتُ من يُطلع الأسقف الجزيل الاحترام لأنّه لم يكن على علم بقدومي. فجاءَ إلينا حالاً بتلك المحبة العظمى التي أظهرها دائمًا تجاهنا. وَعَدَنا بأن يقدّم لنا كلَّ ما يَلزمنا من الخبز، وأمرَ القيِّمَ أن يوفّر لنا اشياء كثيرة. ونظرًا إلى الكثير الذي تدير به رهبانيتنا له، فإن من يطالع هذه التأسيسات ملزمٌ بأن يَكِلَ أمرَه إلى ربِّنا، أكان في حياته أم بعد مماته؛ وإني لأسأله ذلك بمحبّة. وأظهرَ الشعبُ سرورًا كبيرًا شاملاً فبدا ظاهرةً خاصّة، إذ لم يُفصح أحدٌ عن تحفّظ. وقد ساعد على ذلك معرفتهم أنَّ الأسقف يدير الأَمرَ لأنهم يحبّونه حبًّا جمًّا. ثم إنّ القومَ جميعًا هم من خَير جِبِلَّيةٍ وأكرمِ طينةٍ عرفتُها. وعليه، فإنّني أزداد فرحًا كلَّ يوم لأنّني أسَّستُ ديرًا في پالنثيا.

أصدقاء كثر

١٢. لما لم يكن البيت ملكًا لنا، شرعتُ حالاً في السعي لشراءِ بيتٍ آخر. ولو أنَّ الأول كان برسم البيع، إلاّ إنَّ موقعَه سيّئٌ جدًّا. وبفضل المساعدة التي قدّمتها الراهبات اللواتي سيدخلنَ، كان باستطاعتنا، كما يبدو، الدخولَ في مباحثات. ورغم أن ما حِمْلَته كان قليلاً، فهو كثيرٌ في تلك الناحية، ولو أنَّ كلَّ شيء لم يكن ذا قيمَةٍ لو لم يرفّر الله لنا الأصدقاء الذين وفَّرهم. فالقانوني الطيّب رينوسو جاءَ بصديقٍ له، هو القانوني ساليناس، إنسانٌ ودودٌ وفهَّامة، فاهتمَّ كلاهما بشأننا كأنه شأنهما الخاص بل وأكثر، في اعتقادي، وعُنيا دائمًا بأمر ذلك البيت.

بيت سيّدة الشارع

١٣. في المدينة بيتٌ بشبهُ صومعةً تُكَرَّم فيه سيِّدتُنا تكريمًا كبيرًا يدعى بيت سيّدة الشارع، يكنُّ لها سكانُ المنطقة كلِّها، وسكانُ المدينة، عبادةً حقّة ويقدون إليها جماعات. رأى سيادته كما رأى الجميع أننا نكون في حال جيّدة بقرب تلك الكنيسة. لم يكن مُلحَقًا بالكنيسة بيتُ، بل كان هنا بيتان متلاصقان فلو اشتريناهما لكفيانا مع الكنيسة. والأمر منوطٌ بمجلس الكنيسة وببعض أعضاء الأخوية التابعة لها. وعليه، بدأنا مفارضاتنا. أمّا المجلس فقد تكرَّم بها علينا. وأمّا أعضاء الأخوية، فبعد صعوباتٍ شاقّة للتفاهم معهم، وافقوا، هم، أيضًا؛ فسكّان ذلك المكان جماعةٌ فضلاء ما رأيت لهم في حياتي نظيرًا.

معارضة جديدة

١٤. لما رأى أصحابُ البيتين أننا نرغب في شرائهما، بدأوا يرفعون ثمَنَهما، وبحقّ. ومضيتُ لمشاهدتهما، فظهرا لي في حالٍ سيِّئة بحيث ما كنت لأرغبَ فيهما بأيِّ ثمن. وهذا كان رأي رفيقاتي أيضًا. ثم بدا واضحًا أن الشيطان ألقى بثقله في الموضوع لأنّه كان يشقّ عليه أن نستقرّ هناك. أمّا الكاهنان القانونيان اللذان اهتمّا للأمر، فقد وجدا أن البيتين بعيدان عن الكنيسة الكبرى، وهما في الواقع كذلك، إلاّ انهما يقعان في المنطقة الأكثر سكانًا في المدينة. وأخيرًا، اتفقنا جميعًا على أن ذلك البيتَ غيرُ ملائم، فيجب البحث عن بيتٍ آخر. وهذا ما باشر عمله ذانك الكاهنان القانونيان باهتمام وفطنة من دون أن يتهاونا في أيِّ أمرٍ يريانه مناسبًا، ما جعلني أسبّح ربَّنا

تسبيحًا. وانتهيا إلى الاكتفاء ببيتٍ واحد يخصّ المدعو تامايو[٧]. كان قسمٌ منه مجهَّزًا بما يناسبنا وعلى مقربة من منزل أحد الوجهاء الكبار، ويدعى سويرو دي ڤيغا[٨]، الذي أسدى إلينا مساعدةً كبيرة، وكان يرغب رغبة حارّة، مثله مثل كثيرين من سكان الحيّ، في أن نقيمَ هناك.

زيارة المكان المقترح

١٥. لم يكن ذلك البيت كافيًا، فأرادوا إعطاءَنا معه بيتًا آخر؛ لكن ضمَّهما ما كان ليوفّر سكنًا مُريحًا. واستنادًا إلى المواصفات التي أبلغونيها عنه، رغبتُ في شرائها، إلاّ ان ذينك السيِّدين أرادا أن أراه أولاً. يشقّ عليَّ كثيرًا أن أخرجَ إلى المدينة، إلا أنَّ ثقتي بهما كبيرةٌ جدًّا، فلا بدَّ من الاستجابة لطلبهما. فمضيت، أخيرًا، لمشاهدة ذلك البيت، والبيتين الواقعين قرب مزار سيدتنا، ولو لم يكن في نيتي شراؤهما، بل كي لا يظنَّ صاحبُ البيت الآخر ان لا غنى لنا عن شراء منزله. فظهرا لي ولرفيقاتي في حالٍ من السوء، كما قلت، بحيث إنّنا نُراعُ الآن كيف أنهما لم يروقانا بتاتًا. ومضينا من ثمَّ إلى البيت الآخر وقد عقدنا النيّة على ألا يكون هو بيتنا دون غيره. ورغم اننا صادفنا فيه نقائصَ جمَّة، فقد تجاوزناها رغم أنّه كان من الصعب جدًّا معالجتها. فلكي نقيمَ كنيسة، ولو متواضعة، كان يجبُ تعطيلُ كلِّ ما هو صالح للسكن.

شراء البيت

١٦. انه لأمرٌ عجيب أن تعزمَ مسبقًا على تحقيق شيء. وفي الحقيقة، علَّمتني الحياة أن لا أثقَ كثيرًا بذاتي، رغم أني لم أكن وحدي ضحيةَ الانخداع آنذاك. وانتهى بنا الأمر إلى أن نأخذَ هذا البيت دون غيره، وأن ندفعَ الثمنَ الذي طلبه صاحبه، وهو باهظ، وأن نكتب إليه بهذا الشأن إذ لم يكن في المدينة، بل في جوارها.

تأسّف لاحق

١٧. قد يبدو غباوةً تبسّطي في الحديث عن شراء البيت، إلى أن يُرى الهدف الذي كان الشيطان يتوخّاه، وهو أن يحولَ دون حصولنا على بيت سيّدتنا. وفي كلِّ مرّة أتذكَّر ذلك، ينتابني الخوف.

حديث الربّ

١٨. كنا جميعًا عازماتٍ على أن لا نشتريَ غير ذلك البيت، كما قلت؛ وذات يوم، في أثناءَ القدَّاس، ساورني اضطرابٌ كبير، فرحت أسأل نفسي إذا كنتُ أحسنُ التصرّف؛ وبلغ منّي التشوُّشُ حَدًّا كان أن لا يدعَني أرتاح طوال القدّاس. وتقدَّمت إلى اقتبال القربان الأقدس، فسمعتُ حالاً، بعد التناول، سماعًا واضحًا هذه الكلمات التي جعلتني أجزم بأن لا أشتريَ البيت الذي نوَيْتُ شراءَه بل بيتَ سيّدتنا: **هذا البيتُ يناسبك.**

فبدا لي الأمرُ صعبًا في مسألةٍ عولجت معالجةً وافية، ويرغب فيها أيَّ رغبة مَن خصّوها باهتمام بالغ.

---

٧ TAMAYO.

٨ Suero de VEGA، وهو ابن خوان دي ڤيغا، نائب الملك في نافاريا وصقليّة، ورئيس المجلس الملكي. وقد صار أحد أولاده فيما بعد كرمليًّا حافيًا باسم خوان لأمّ الله (توماس).

أجابني الربّ: **إنّهم لا يدركون كم أني أُهان هناك، وما تنوين فعله سيكون العلاج الشافي.**

خطر ببالي أن قد يكون هذا الكلام خدعةً. ولو لم أصِل إلى حدِّ القناعة، فإني كنتُ أعرف معرفةً حقَّة، بفضل مفعوله فيَّ، انه من روح الله. ثم قال لي: **أنا هو.**

حيرة واطمئنان

١٩. لبثتُ مطمئنةً، وزالَ اضطرابي السابق، ولو اني ما كنت عرفت كيف ألغي ما تمَّ الاتفاق عليه، وأعالج انتقادي الشديد لذلك البيت، وأواجه أخواتي، وقد بالغتُ أمامهنَّ في تبيان معايبه، وأعلنت أنّي لا أودّ أن نستقرَّ فيه، مهما كلَّف الأمر، قبل أن نَطَّلع على حاله؛ ولم يكن موقفهنَّ ما أخشاه، لأني أعرف أنهنَّ يوافقن على ما أفعله، بل كان يُهمّني موقفُ الآخرين الذين يريدون ذلك البيت؛ فإن تغييرَ موقفي بهذه السرعة يحملهنَّ على الحكم عليَّ، فيما يبدو، بأنّي مغرورةٌ، ومتقلّبة المزاج، وهذا ما أمقُتُه. على أن هذه الأفكار لم يكن من شأنها أن تُثنيَني، قليلاً أو كثيراً، عن امتلاك بيت سيّدتنا؛ بل كنت نسيت أنّه غيرُ صالح؛ ومقابل أن تحول الراهبات دون أيَّة خطيئة عرضية، فإن كلَّ شيء آخر أمرٌ عابر؛ وفي طيّ أنَّ أيةَ واحدةٍ منهنَّ لو عرفت ما عرفتُ، لعمِلَتْ ما عملْتُ.

قرار بإطلاع المعرّف

٢٠. واعتمدتُ الوسيلة التالية: كنت أعترفُ لدى الكاهن القانوني رينوسو، وهو أحد الاثنين اللذين يساعدانني، وما كنت قد أطلعته سابقًا على ظواهر الروح هذه إذ لم تقضِ الضرورة بذلك. وبما أني تعوّدت دائمًا أن أصنع في هذه الأمور ما ينصحُني به المعرّف لأسيرَ في طريق أكثر أمْنًا، قرّرت أن أطلعه على ما سمعت، على أن يُكتمَه كَسِرّ، رغمَ الأسفِ الشديد الذي سيَعروني لو اضطررت إلى التراجع عن تنفيذ ما فهمته. ولكنت، في الواقع، فعلت ما أقول، ثقةً منّي بربِّنا، نظرًا إلى ما رأيتُ غالبًا كيف أنَّ جلاله يغيّر موقفَ المعرّف ورأيَه المخالف ليعمل ما يريده **هو**.

علامات تبدّل

٢١. قلت له أوّلاً إنّ ربّنا تعوّد أنْ يعلّمني غالبًا بهذه الطريقة، وان أمورًا عديدة أَظهرت إلى ذلك الوقت أن الروحَ الذي يحدّثني هو روحه؛ ورويتُ له ما حدث. وأضفت أنني سأعمل بما يراه ولو سبَّب لي رأيُه غمًّا. إنّه رجلٌ ذكيٌّ، وقدّيس، وذو رأي صائب في كلِّ أمر ولو انه ما زال فتيًّا. ورغم إدراكه أن الأمر قد يثير بلبلةً، لم يقرّر ان يُهْمَلَ ما كنت سمعتُه. وسألته أن ننتظرَ عودة الرسول [إلى صاحب البيت]، فوافقني على الرأي؛ وكنت واثقةً بأنَّ الله سيُدبِّر الأمر. وهكذا كان. فبعد أن وافقْنا على كلِّ ما كان قد طلبه، عاد يطلبُ ثانية، ثلاثمائة دوقية إضافية، ما بدا غيرَ معقول لأنّ الثمن المعروض كان غاليًا جدًّا. فرأينا في هذا يدَ الله، لأن صاحب البيت كان يهمّه أن يبيعنا البيت. أما وقد رفع السعر بعد أن تمَّ الاتفاق على سعر آخر، فما كان ليحرِزَ تقدمًا.

تغيّر رأي الأشخاص

٢٢. تحسَّن الوضع تحسّنًا كبيرًا وليس تمامًا بحيث رأينا أن قد لا نُتمُّ الصفقةَ معه أبدًا. فقد كان واضحًا انه لا يصحّ التخلي عن بيتٍ يبدو مناسبًا لأن يكون ديرًا من أجل ثلاثمائة دوقيّة. قلت لمعرّفي ان لا يقلق على سمعتي، لأنه يرى أن تتمَّ الصفقة، بل أن يقول لرفيقة إنّني عازمةٌ على شراء بيت سيّدتنا، غلا ثمنُه أن رَخُصَ، خَرِبًا كان أو في حالة جيّدة. إنه ينعم بفكر ثاقب، ورغم انه لم يُبَلَّغْ شيئًا، فقد تصوَّر ما يجري حين رأي هذا التغيّر السريع. وعليه فقد كفَّ عن الضغط عليَّ.

سرور الجميع

٢٣. لقد رأينا جميعنا فيما بعد كم كنّا أخطأنا لو أنني اشتريت البيتَ الآخر؛ فنحن الآن نعجب من تفوّق فضل هذا على ذاك، ولو تركنا جانبًا أهمَّ حسنةٍ ظاهرةٍ للعيان وهي ان ربُّنا وأمّه المجيدة يُكَرَّمان فيه، وتُجتنَب أسبابُ السوء. فما كان إلاّ صومعةً، وتقامُ فيها غالبًا سهراتٌ ويمكن أن تحدُثَ فيها أمورٌ كثيرةٌ يشقُّ على الشيطان زوالُها؛ أمّا نحن فنفرح لأن باستطاعتنا أن نخدُمَ أمَّنا، وسيِّدتنا، وشفيعَتنا. وقد أخطأنا جدًّا لأننا لم نصنع ذلك قبلاً ذلك أنّنا لم نتفحَّص الموضوع بعناية. ويُرى واضحًا أن الشيطان يُعمي البصيرة في أمور كثيرة؛ فهذا البيت يتضمَّنُ الكثيرَ من أسبابِ الراحة لا تتوافر في مكانٍ آخر؛ سُرّت المدينة كلُّها سرورًا كبيرًا، حتى ان الذين كانوا يريدوننا أن نذهب إلى البيت الآخر كانوا راضين فيما بعد.

أنا العمياء

٢٤. تباركَ أبدَ الدهر مَن أرسلَ إليَّ نورًا في هذا الأمر؛ وكُلَّما أحسنتُ في أَمرٍ ما، فهو يعطيني ها النور؛ ويزيد من روعي كلَّ يومٍ ضعفُ طاقتي في كل أمر. ولا يُظَنّ أني أقول ما أقول تواضعًا، بل إنّني أزدادُ وعيًا لحالي كل يوم، فكأن ربَّنا يريدني أن أعرفَ، وأن يعرفَ الجميع، أنَّ جلاله وحده يحقِّق هذه الأعمال، وأنّه، مثلما أعادَ البصر للأعمى بالطين، يريدني، أنا العمياء كلَّ العمى، أنْ أصنع شيئًا وكأنني أرى بوضوح. وفي الحقيقة، كانت هناك أشياء، كما قلت، تُفصِحُ عن عمىً بالغ، وفي كلِّ مرّة تَخطرُ ببالي أودّ لو أُسبِّحَ ربَّنا ثانية على ذلك؛ ولست اراني أهلاً حتى لأستحقَّه، ولا أدري كيف يحتملن. تباركَتْ رحمتُه، آمين.

فضل المساعدين

٢٥. أسرع ذانك القديسان صديقا العذراء للإتفاق على شراء البيتين؛ وفي اعتقادي أنّهما حَصَلا عليهما بسعرٍ بخس. لقد تحمّلا جهدًا شاقًا؛ فإنَّ الله يريد للذين يساعدوننا في هذه التأسيسات أن يستحقّوا مكسبًا؛ أمّا أنا فلا أعملَ شيئًا، كما قلتُ مرارًا، ولا أودّ الانقطاع عن ترداده، لأن هذه هي الحقيقة. إنّ اشتغالهما الدائب في اعداد البيت، ودَفْعَهما مبالغَ من المال لشرائه، لأني لم أكي أملك مالاً، إضافةً إلى الكفالة التي كانت عاملاً حاسماً. فقد تضايقتُ سابقًا من أماكن أخرى لأنني لم أجدْ كفيلاً ولو لقيمةٍ أدنى من المطلوبة في پالنثيا؛ وأرى أنهما على حقّ في التردّد؛ فأنا لا أملك فلسصا ولا يبقى عليهم إلاّ الثّقة بربِّنا. غير أن جلاله صنع معي دائمًا منّة أعتبرُها فضلاً ولا أعظم، وهي أن الذين ساعدوني لم يفقدوا شيئًا ولم نتخلَّف عن تسديدهم [المال] تسديدًا كاملاً.

توقيع القاضي

٢٦. لم يكتفِ أصحابُ البيت بالكفلَين، فطلبوا القاضي الكنسي المدعو پرودنثيو[٩]، ولستُ واثقةً من اسمه؛ لقد حدَّدوا اسمه لي الآن، وكنت أجهله لأنّنا كنا نكتفي، بأن ندعوه القاضي. إنّه يكنّ لنا مودّةً بالغة، فكنّا وما زلنا ندين له بالكثير. فسألهم ماذا يطلبون؛ فأجابوه إنّهم يبحثون عنه ليوقّع لهم تلك الكفالة. فضحك وقال: "أمن أجل كفالة بهذه القيمة تطلبونني بدون تكليف؟" ثم وقّع الكفالة من دون أن ينزلَ عن ظهر بغلته، وهو عمل يجدر الثناء عليه في أيام كهذه الأيام.

ثناء جزيل

٢٧. لا أَودّ أن أكفّ عن الثناء جزيل الثناء، على المحبة التي لقيتها في پالنثيا، محبّة خاصّة وعامَّة. وفي الحقيقة بدا لي الأمر خليقًا بحياة الكنيسة في العهود الأولى؛ وعلى الأقل، ليس شائعًا في عالم اليوم ان يرى القوم اننا لا نملك ريعًا ويلتزموا تأمينَ غذائنا، فلا يعيقون المشروع بل يعتبرون ان الله يؤتيهم به منّةً عظمى. ولو تبصّرنا مليًّا، لرأيناهم على حقّ؛ فحتى لو اقتصر الأمر على إيجاد كنيسة أخرى يُعرَضُ فيها القربان الأقدس، لتحقَّق عملٌ عظيم.

تحسّن العبادة في معبد السيّدة

٢٨. ليكن مباركًا إلى الأبد، آمين ! فقد شرعوا يدركون ان [الله] رضي بأن يُنشأ الديرُ هناك، لأنّه قد حصلت سابقًا أمورٌ غيرُ مباسبة لا تحصل اليوم. لقد كان كثيرون يسهرون في تلك الصومعة المنعزلة، وما كان الجميع يسهرون بدافع العبادة. لقد تمَّ علاجُ هذه الحالة. وصورةُ سيّدتنا كانت معروضةً بشكلٍ غير لائق أبدًا، فصنع لها الأسقف السيّد ألڤارو دي مندوثا[١٠] معبدًا، والآن يتمّ تدريجيًا صنعُ ما يجب لإكرام هذه العذراء المجيدة وابنها وتمجيدها. فليكن مباركًا إلى الأبد. آمين! آمين!

احتفال مهيب

٢٩. بعد أن تمّ إعداد البيت لإقامة الراهبات، أراد الأسقف أن يحتفلَ بوصولهنّ بأبّهة. ففي يوم من أيام أسبوع القربان الأقدس، قَدِمَ، هو من ڤاليادوليد، فانضمَّ إلى مجلس الكاتدرائية، واجتمع الرهبان وأهل المدينة كلّهم تقريبًا؛ وكان عزفُ الموسيقى لا ينقطع. انطلقنا جميعنا بتطوافٍ من البيت الذي كنّا نسكنه، لابساتٍ معاطفنا البيض والحُجُبُ مُسْدَلةٌ على وجوهنا، إلى كنيسة رعيةٍ قريبة من بيت سيّدتنا، تتقدَّمنا صورتُها؛ ومن هناك أخذنا القرانَ الأقدس الذي صُمِدَ في كنيستنا باحتفالٍ مهيبٍ ونظامٍ رائع، فحرَّك مشاعر التقوى. وشاركَت في الاحتفال راهباتٌ أخريات يحملن شموعًا، كنَّ قد جئن لتأسيس ديرٍ في صوريا. وفي ظنّي ان الربَّ سُبِّحَ تسبيحًا مميَّزًا في ذلك المكان وذلك النهار.

---

٩ Prudenzio D'AMENTIA.

١٠ Alvaro de MENDOZA.

إنشاء إقليم للحفاة

٣٠. لما كنتُ في پالنثيا رتّب الله فتمّ انفصال الحفاة عن المنتعلين وإنشاؤهم إقليمًا لهم مستقلاً، وهو كلُّ ما كنّا نتمنّاه لسلامنا وطمأنينتنا. وقد جيء من روما، بناءً على طلب ملكنا الكاثوليكي دون فيليب، برسالةٍ بابوية وافية لهذه الغاية، وساعدنا جلالتُه مساعدةً كبرى على إنجاز هذا المشروع، مثلما كان قد ساعدنا في البدء به. وانعقد مجمع في ألكالا برئاسة كاهن محترم يدعى الأخ خوان دي لاس كويڤاس[١١]، وكان آنئذٍ رئيسًا على دير تالاڤيرا. إنّه من رهبانية مار عبد الأحد، اختارته روما وعيّنه صاحبُ الجلالة، وهو انسانٌ كاملُ القداسة، بالغُ الفطنة، كما كان يقتضي لمهمّة كهذه. لقد غطّى الملكُ التكاليف جميعَها؛ وبناءً على أمره ساعدتهم الجامعة. انعقد المجمع في مدرسة القديس كيرلّس خاصّتنا نحن الحفاة، وجرت الأمور في سلام وتوافقٍ تامّين. واحتير رئيسًا اقيلميًا الأب المعلّم ايرونيموس غراثيان لأم الله.

لذة وسرور كبيران

٣١. بما أن هؤلاء الآباء سيروون ذات يوم ما جرى وكيف جرى، فليس عليَّ أن أتناوله هنا. لكنّي أشرت إليه لأنّني عندما كنت أقوم بتأسيس هذا الدير في پالنثيا، أنجز ربُّنا أمرًا بهذا القدر من الأهمية إكرامًا لوالدته المجيدة وتعظيمًا لها. فهو أمرٌ خاصّ برهبانيتها، وهي سيّدتنا وشفيعتنا. غمرتني لذةٌ ونعمتُ بسرور من أكبر ما أستطيع أن أنعمَ به من لذّات وسرورٍ في هذه الحياة، لأن المشقّات، والاضطهادات، والهموم التي احتملتها طوال خمس وعشرين سنة قد يطول الحديث بشأنها، ور بّنا وحده يمكنه أن يعرفها. فمن يَرى أن قد تمَّ المشروع ولا يَعرف المشقّات التي احتُمِلَتْ، لا يستطيع أن يقدّر المتعة التي غمرت فؤادي، ورغبتي في أن يُسبِّح العا لمُ كلُّه ربَّنا، ,أن تسأله رعايةَ ملكنا هذا القديس دون فيليب الذي استخدمه الله وسيلةً لحسن الخاتمة هذه؛ فإن الشيطان كان قد استخدم من الحيَل ما عرَّض المشروع للسقوط لولا تدخّله.

فلنبدأ دائمًا

٣٢. لقد بتنا الآن جميعًا في سلام، منتعلين وحفاة؛ فلا أحد يعوقنا في خدمة ربّنا. أمّا وقد استجاب تمامًا صلواتكم، يا أخوتي وأخواتي، فهيّا بنا إلى خدمة جلاله. وليَنظر من كانوا شهودَ عيان لهذه الأحداث المنَنَ التي أعطاناها، والمشقّات والاضطرابات التي اعتَقَنا منها. وأما الذين يأتون فيما بعد فسيجدون كلَّ شيء سهلاً،فلا يُهملوا، حبًّا بربنا، أدنى مناسبةٍ ليَنموا في الكمال. ولا يُفسحوا في المجال لأن يُقالَ عنهم ما يقال عن بعض الرهبانيات التي يُثْنى على نشأتها فقط. ها نحن نبدأ الآن، فليُعْنَوا بأن يبدأوا دائمًا ويسيروامن حَسَن إلى أحسن. وتذكروا أن الشيطان يُحدِثُ بأمور صغيرة جدًّا ثقوبًا تَنْفُذ من ثمَّ منها الأمور العظيمة. لا يخطرَنَّ في بالكم أن تقولوا: "هذا لا تأثير له؛ وعلينا أن لا نغالي". آه، يا بناتي؛ إن كلَّ ما لا يساعدنا على التقدّم هو مهمّ!

---

١١ Juan de las CUEVAS, Talavera.

ذريّة الأنبياء

٣٣. أسألكم حبًّا بربّنا، أن تتذكّروا أنَّ كلَّ شيء يؤول إلى الزوال سريعًا، وأن تُقَدِّروا المنّةَ التي صنعها ربّنا معنا بالمجيء بنا إلى هذه الرهبانية، والعقوبة الكبرى التي يلقاها من يبثّ أيَّ تراخ؛ ضعوا بالأحرى دائمًا نصبَ عيونكم الذريّة التي نتحدّر منها، ذريّة أولئك الأنبياء القديسين. ما أكثر قديسينا في السماء الذين لبسوا الثوب الذي نلبسه ! فلنَفخَرْ فخرًا مقدّسًا، بفضل الله، بأن نكونَ مثلهم. إن المعركة زمانُها قصير، يا بناتي؛ أمّا الغاية فأبدية. فلنُهمل الأشياء التي ليست بذاتها شيئًا، ما خلا تلك التي تقرّبنا من هذه الغاية التي لا نهاية لها، لنحبّه، ونخدمه أكثر فأكثر لأنّه حيٌّ إلى أبد الدهر. آمين ! آمين !

فلنرفعنَّ الشكرَ لله.

الفصل الثلاثون

في تأسيس دير الثالوث الأقدس في مدينة صوريا. سنة ١٥٨١، والاحتفال بأول قدّاس فيه يوم عيد أبينا القديس اليشع.

اتصالها بأسقف صديق

١. عندما كنت في پالنثيا منشغلةً بتأسيس الدير الذي ذكرته، جاءَني رسولٌ بكتابٍ من أسقف أوسما ويدعى ڤيلاثكيث[١]، وهو الذي سعيت إلى الاتصال به عندما كان كاهنًا قانونيًا ولاهوتيًا في كاتدرائية طليطلة، وكنت إذ ذاك أعاني من بعض المخاوف، لمعرفتي أنّه ذو علم واجح ويعبد الله حقًّا. ولذا ألححتُ عليه أن يهتمَّ بأمر نفسي ويكونَ معزّيي. ورغم مشاغله الوفيرة، فلأنَّني سألته ما سألته حبًّا بربِّنا، ورأى هو حاجتي، فقد استجابني بكلِّ طيبة خاطر، فدهشت؛ وقد سمع اعترافي واتصل بي خلال المدَّة التي قضيتها في طليطلة، وكانت طويلةً. لقد عالجتُ معه أمرَ نفسي بكلِّ بساطة، كما هي عادتي، فأفادني نفعًا جزيلاً، فتبدَّدت منذئذٍ بعضُ مخاوفي. في الحقيقة، حصل أمرٌ ليس هنا مجال الكلام عليه. لقد وفَّر لي في الواقع فائدةً كبرى، لأنّه كان يُطمئنُني استنادًا إلى الكتاب المقدّس؛ وهذا خير ما يلائمني حين أكون على يقين، كيقيني بشأنه، بأنه يجمع في ذاته معرفةَ الكتاب المقدَّس معرفةً جيِّدة وحُسْنَ السِّيرة.

طلب تأسيس دير

٢. لقد كتب إليَّ هذه الرسالة من صوريا حيث كان يقيم، يقول فيها إنَّ سيّدة كانت تعترف لديه باحثَته بشأن تأسيس دير لراهباتنا، وإنَّ الأمرَ، في رأيه حَسَنٌ، وإنّه سيُقنعني لأمضيَ لتأسيسه، فيسألني أن لا أخيِّبَ ظنَّه، بل أن أُعلمَه إذا بدا لي الأمرُ مناسبًا ليبعث مَن يصحبني لديه. فسُررتُ أيَّ سرور. فإضافةً إلى أنَّ التأسيسَ أمرٌ حسن، كنت أرغب في أن أَطلعَه على بعضٍ من شؤون نفسي، وان أراه؛ فقد كنت أكنُّ له حبًّا كبيرًا نظرًا إلى الفائدة الجلَّى التي وفّرها لي.

قصّة السيّدة المؤسِّسة

٣. هذه السيِّدة المؤسِّسة تدعى دونيا بياتريس دي پيامونتي وناڤارّا[٢]، وهي متحدّرةٌ من ملوك ناڤارّا، ابنه السيد فرنسيس دي پيامونتي، الخالص النسب والرفيع الشأن. دام زواجُها بضعَ سنوات وترمَّلت من دون عقب. ورثت ممتلكاتٍ واسعة؛ ومنذ زمن بعيد راودتها فكرةُ إنشاءِ ديرٍ للراهبات. وعندما باحثت الأسقف في الأمر فحدّثها عن رهبانية سيّدة الكرمل للحافيات، اقتنعت تمامَ الاقتناع، فاستعجلته كي يوضَعَ المشروعُ موضع التنفيذ.

---

١ VELÁZQUEZ.

٢ Doña Beatríz de BEAMONTE Y NAVARRA.

تصميم الدير

٤. إنّها سيّدةٌ ليّنةُ الطبع، سخيَّةٌ، متقشّفة؛ أعني أنّها تعبد الله عبادةً حقّة. كانت تملك في صوريا منزلاً صالحًا، حصينًا، يقع في موضعٍ جيِّد، قالت إنّها تقدذمه لنا مع كلِّ ما يلزم لإنشاء دير، فوهبتنا إيّاه مع خمسمائة دوقية بنسبة ٢٥ في الألف. وعرض الأسقفُ أن يقدّم كنيسةً صالحةً جدًّا، تخصّ رعيَّةً قريبةً، فجاءت موافقةً لأننا وصلناها بالمنزل برواق. وظهر حسنُ تدبير [الأسقف] لأن الكنيسة فقيرة، وفي المكان توجد كنائسُ عديدة، فنُقلت الرعيةُ إلى مكان آخر. لقد أطلعني على هذه التفاصيل في كتابة إليّ، فبحثتُ الأمرَ مع الرئيس الاقليمي الذي قصد المكان حينذاك؛ فرأَى، كما رأي جميع الأصدقاء، أن أبعثَ بكتابٍ مع رسولٍ خاصّ ليأتوا في طلبي، لأن دير پالنثيا كان قد تمَّ تأسيسُه، وأنا مغتبطةٌ لذلك أتمَّ اغتباط للأسباب التي ذكرتها.

ذكر الأب نقولا دوريا

٥. استدعيت حالاً الراهبات اللواتي كان عليَّ أن استصحبَهنَّ إلى ذلك المكان، وكنَّ سبعة، لأنّ تلك السيّدة تفضّل الكثرة على القلَّة، وراهبة للخدمة، ورفيقتي وأنا. فجاءَنا شخصٌ خصّيصًا في عربة لينقلنا، وكنت أَعلمتُه أنَّ عليَّ أن أصطحبَ اثنين من الآباء الحفاة. فاصطحبت الأب نقولا ليسوع- مريم، وهو رجلٌ وافر الكمال والفطنة، أصلته من جنوى. لبسَ الثوبَ الرهباني، في طنّي، بعد أن تجاوز الأربعين — وهذا عمره الآن، على الأقل، وقد لبس الثوب منذن فترة قصيرة –، غير أنّه بلغَ درجة عالية من الكمال في فترة قصيرة جدًّا، فكأنَّ ربَّنا اختاره حقًّا عونًا للرهبانيّة في هذه المحن المضينة، وقد فعل الكثير، لأنّ الذين كان باستطاعتهم أن يساعدونا كانوا في المنفى أو في السجن. أمّا هو، فلمَّا لم تكن له وظيفة، وهو جديدٌ في الرهبانية، كما قلت، فلم يضايقوه؛ أو أن الله دبَّر أن تُحْفَظَ لي تلك المساعدة.

فطنة الأب نقولا

٦. إنّه كثير اللباقة؛ فقد نزل في دير المنتعلين في مدريد بحجَّة ملاحقة شؤون أخرى، فبَرَعَ في إخفاء قصده، فلم يدركوا قطّ أنه يهتمّ بنا، فتركوه وشأنه. غالبًا ما كنّا نتراسل لأنّي كنت في دير القديس يوسف في آقيلا، ونتباحثُ في ما ينبغي أن نعمله، فترتاح نفسه. هكذا يُرى البؤس الذي كانت رهبانيتنا تعاني منه. فلقلَّة الرجال الأكفياء كانوا يكنُّون لي اعتبارًا أيَّ اعتبار. طوال هذه الفترة، اختبرت كمالَه وفطنتَه؛ وعليه، فإنه واحدٌ من الذين أحبُّهم كثيرًا بالربّ وأَكنُّ لهم تقديرًا رفيعًا في رهبانيتنا. فقد صَحِبَنا من ثمَّ وبرفقته أخ مساعد.

ثناء على الأسقف

٧. لم نصادفَ مشقَّةً كبرى في هذه الرحلة لأن رسولَ الأسقف عُنِيَ بالاهتمام بنا خيرَ عناية، وساعدَنا على أن نحلَّ في نُزُلٍ مريحة؛ والشعبُ يحبّ الأسقف أيَّ محبَّة؛ فحين دخلنا الأبرشيَّة، كان يكفي القول ان هذا الأمر يعنيه، حتى نلقى خيرَ معاملة. وقد ساعد الطقسُ في ذلك؛ فمراحلُ السفر لم تكن طويلةً؛ وعليه لم نصادِف مشقَّةً في هذه الرحلة بل سرورًا؛ وعندما كنت أسمع الثناءَ الوافر على قداسة الأسقف، كان يغمرني سرورٌ عظيم.

الوصول إلى صوريا

وصلنا إلى بورغو [دي أوسما][٣] يوم الاربعاء السابق يوم ثمانية القربان الأقدس. تناولنا هناك القربان يوم الخميس وكان يوم ثمانية العيد، ثمّ تغدّينا؛ ولأننا ما كنا نستطيع الوصول إلى صوريا في اليوم نفسه، بتنا ليلتنا تلك في كنيسةٍ إذ لم يكن هناك موضع آخر ننزل فيه، فما كدَّرَنا شيء. في اليوم التالي سمعنا القدّاس، ثم انطلقنا، فوصلنا إلى صوريا عند الساعة الخامسة عصرًا. كان الأسقف القديس يطلُّ من نافذةٍ من منزله حين مررنا أمامه، فمنحَنا بركتَه التي بعثت فيَّ ارتياحًا وافرًا، لأن بركةَ أسقفٍ وقديسٍ تُعْتَبَر شيئًا ثمينًا.

كثرة الناس

٨. كانت تلك السيّدة المؤسِّسة تنتظرنا على باب منزلها حيث سيُنشأ الدير. وكنا نتحَّينُ الساعة التي نستطيع فيها الدخول لكثرة الجمهور. لم يكن المر جديدًا علينا؛ فحيثما ذهبنا، ولأن الناس متشوّقون إلى كلَّ جديد، ويتجمَّع منهم حشدٌ وافر فنصادف كشقَّةً كبرى إن لم يكن الحجاب مُسْدلاً على وجوهنا؛ وبفضل الحجاب يصير الأمر محتملاً.

كانت تلك السيّدة قد أعدَّت على أحسن وجه قاعةً رحبةً ليُحتَفَل بالقداس، إذ كان يجب أن ينشأَ ممرٌّ يوصِلُ إلى الكنيسة التي قدَّمها لنا الأسقف، وقد احتقل بالقداس في اليوم التالي، وهو عيد أبينا القديس اليشاع.

تفاني الأسقف

٩. لقد أعدَّت تلك السيّدة، على أكمل وجه، كلَّ ما نحتاج إليه، وتركت لنا تلك الغرفة، فلزمناها في خلوةٍ إلى أن تمَّ إنشاءُ الممرّ، وقد كال العمل فيه حتى عيد التجلّي. في ذلك اليوم أقيم القداس الأول باحتفال بالغ، وبحضور جمهور غفير. ألقى العظة أحدُ الآباء اليسوعيين لأن الأسقف كان قد غادر إلى بورغو دي أوسما؛ فهو لا يدعُ يومًا أو ساعة تمرّ من دون عملٍ رغم سوء صحَّته، وقد فقد البصر في إحدى عينيه. أخذتني هذه الحسرة هناك، وانتابني أسف شديد لأن يُفْقَدَ بصرٌ كان يُستَخدم إلى أقصى ما مستطاع في خدمة ربّنا. إنّها احكامُه. ولعلَّه سمحَ بذلك ليتيحَ لخادمه مزيدًا من الكسب، لأنه ما انفكّ يعمل مثله في السابق، وليختبر توافقَه مع إرادته. وكان يقول لي إن ذلك لا يُحزنه أكثر ممّا لو أصابَ الأمر جارًا له، وإنّه يفكّر أحيانًا في أن لا يشقّ عليه إذا فقد البصرَ في عينه الأخرى، لأنّه، في هذه الحال، ينعزل في صومعته يعبد فيها الله من دون أيَّ التزام آخر. هذه كانت دعوته دائمًا قبل أن يصير أسقفًا، وقد حدَّثني برغبته هذه أحيانًا، بل بلغ من عزمه أو اوشك أن يتركَ كلَّ شيء ويمضي.

تقشّف الاسقف وقداسته

١٠. ما كنت لأطيق ذلك؛ فقد كنت أراه جزيل النفع لكنيسة الله؛ وعليه كنت أتمنى أن يصيرَ إلى ما هو عليه الآن، رغم أنه يوم تعيينه أسقفًا، أرسل يبلّغني الأمر حالاً، فانتابني اضطرابٌ كبير، إذ خلته أُلقيَ عليه ثقلٌ جسيم، فما هدأتُ ولا تمالكتُ نفسي، فمضيت إلى الخورس أسلّم أمره إلى الربّ؛ فطمأنني جلاله في الحال بقوله إن ذلك سيؤول إلى خدمته خدمةً جلَّى، وهو ما نراه في الواقع. ورغم مرض عينه وأمراض أخرى مؤلمة، واشغاله العادية، فإنّه يصوم أربعة أيام في الأسبوع، ويمارس تقشُّفاتٍ أخرى. أما طعامه فهو أبعدُ من أن يكون شهيًّا. حين

[٣] كان الوصول في يوم الاربعاء في ٣١ ايار / مايو سنة ١٥٨١.

يقوم بزياراته فإنّه يفعل ذلك مشيًا فلا يستطيع خَدَمُه مجاراته، فكانوا يتذمّرون من الأمر أمامي. وعلى هؤلاء الخدم أن يكونوا فضلاء، أو أن لا يكونوا في منزله. قليلاً ما يكلّف الوكلاء تصريفَ الشؤون الخطيرة، بل وجميع الشؤون، لأنه يعالجها بنفسه. أمضى هنالك سنتين، في أوَّلِ عهده، تلاحقهُ شهاداتُ الزور الأشدّ ايلامًا، فتثير الذعرَ في نفسي، لأنه حين يقيم العدل، فهو شريفٌ ومستقيم. طفقت هذه الاضطهادات تزول، رغم أن أصحابها أوصلوا الأمر إلى البلاط حيث حاولوا إيقاعَ الأذى به. وبما أن الخيرَ الذي يصنعه يشهر أمره في الأبرشيَّة كلّها، فقد فَشَلَ خصومه؛ أما هو، فاحتملَ كلّ شيء برصانة، فأخزاهم بفعله الخيرَ مع من كان يعرف أنهم يسيئون إليه. ومهما تراكمت عليه المشاغل، فلا يتخلّف عن إيجادِ وقتٍ للتأمّل.

إسهام الأسقف في التأسيس

١١. أراني مسترسلة في الثناء على هذا القديس، وما ذكرت عنه إلاّ القليل. ولكن ليُعْرَفَ من كان الأصلَ في تأسيس دير الثالوث الأقدس في صوريا، وكي تنشرحَ اللواتي سيقُمن فيه، لا أرى استرسال عبثًا؛ أمّا اللواتي يُقِمْنَ حاليًا في هذا الدير، فيعرفنَ كلَّ هذا معرفةً تامَّة. ورغم أن الأسقف لم يوفّر ريعًا، فقد قدّم الكنيسة، وهو، كما قلت، من حرّك همَّة تلك السيّدة بشأن المشروع؛ وهي سيّدة لا ينقصها شيءٌ من الروح المسيحية الحقّ، ومن الفضيلة والتقشّف.

مساعدة الوكيل ريبيرا

١٢. بعد أن انتهينا من الانتقال إلى الكنيسة وإعداد ما يلزمنا للحصن، كان لا بدّ من العودة إلى دير القديس يوسف في آڤيلا؛ فمضيتُ حالاً، والحرُّ على أَشُدِّه، والطريق على أسوأ ما يكون لسلوك العربات. صحبني وكيل من پالنثيا يدعى ريبيرا، كان قد ساعدني أقصى مساعدةً في بناء الممرّ الذي يصل بيتنا بالكنيسة وفي جميع الأمور، لأن الأب نقولا ليسوع – مريم كان منصرفًا إلى صنع صكوك التأسيس، وكانت الحاجةُ إليه كبيرةً في مكان آخر. وريبيرا هذا كانت له بعضُ المصالح في صوريا عندما مضينا إليها، فجاء معنا. ومنذئذٍ حرَّك الله إرادته بقوَّة كي يُحسِنَ إلينا، فيمكننا أن نوصيَ به جلاله مع المحسنين إلى الرهبانيَّة.

ضيقات الطريق

١٣. رفضتُ أن يَصحبنا، أنا رفيقتي، شخصٌ آخر؛ فشدَّة عنايته تكفيني، وبقدر ما تقلّ الضجَّة في الأسفار، أجدني أحسنَ حالاً. ودفعت في الإياب ثمن الذهاب الموفَّق. فلئن كان السائق الذي أقلَّنا في عربته يعرف الطريق إلى سيغوڤيا، فما كان يعرف طريقَ العربات؛ وعليه كان هذا الفتى يقودنا في مواضع نضطر غالبًا إلى الترجُّل فيها، ويكاد يضطرّ إلى أن يحمل العربة في أمكنة كثيرة الوعورة. عندما كنّا نصطحب مرشدين، كانوا يقودوننا ما دام الطريق سهلاً ويتركوننا وشأننا قبل أن يصير شيِّئًا مدّعين أنَّ لديهم ما يشغلهم. قبل أن نصلَ إلى نزلٍ لا يقينَ لدينا بوجوده، كنا نعاني شدّةَ حرارة الشمس، وكثيرًا ما نتعرَّض إلى أن تنقلبَ بنا العربة. كنت أقاسي همّ الوكيل الذي يصحَبنا؛ فرغم أنّه قيل لنا إنّنا نسلك الطريق الصحيح، كان علينا أن نعود على أعقابنا إلى حيث انطلقنا. إلاّ انه كان ذا فضيلةٍ راسخة فأظنني ما رأيته قطّ مستاءً، وهذا ما أثار تعجّبي مرارًا، وحملني على تمجيد ربّنا. فحيثما رسخت جذورُ الفضيلة تفشل أسبابُ السقوط. اني لأحمده لأنّه تفضّل فأنقذنا من ذلك الطريق.

استراحة في سيغوڤيا

١٤. وصلنا إلى دير القديس يوسف في سيغوڤيا عشيَّة عيد القديس برتلماوس[٤]؛ وكانت راهباتنا قلقات بسبب تأخّرنا هذا التأخر الذي طال كثيرًا لسوء حال الطريق. هناك رفَّهن عنَّا؛ فالله لا يرسل إليَّ مشقّةً إلاَّ ويكافئني عليها حالاً. واسترحتُ ثمانية أيام، بل أكثر. غير أنَّ التأسيس [في صوريا] تمّ من دون مشقّة إطلاقًا فلا مجال للاكتراث بصعوباتِ الطريق لأنّها ليست شيئًا. قدمتُ مسرورة لأني أعتبر المنطقةَ ملائمة، كما آمل من رحمته، كي يؤول تأسيسُ هذا الدير إلى خدمته كما يرى الآن. فليكن دائمًا مباركًا وممجَّدًا إلى أبد الآبدين، آمين. الشكر لله.

٤ الواقع في ٢٤ آب / أغسطس ١٥٨١.

الفصل الحادي والثلاثون

في تأسيس دير القديس يوسف المجيد للقديسة حنّة في مدينة بورغس. وقد احتُفل فيه بالقداس الأول في ١٩ نيسان/ابريل، في الأحد التالي أحد القيامة سنة ١٥٨٢.

دعوة إلى التأسيس

١. منذ أكثر من ست سنوات، كان بعض الآباء اليسوعيين المسنّين، وهم أتقياء جدًّا، وذوو علمٍ وحياةٍ روحية، ويقولون لي إن تأسيسَ بيتٍ لهذه الرهبانية المقدَّسة في بروغس يؤدِّي خدمة جلّى لربِّنا، ويقدّمون لي حججًا فتدفعني لأن أشتهيَ ذلك. إلاّ أنَّ المشاغلَ الكثيرة في الرهبانيَّة وفي تأسيسات أخرى حالت دون اهتمامي بالأمر.

مساعدة اسقف

٢. وفي سنة ١٥٨٠، وأنا في ڤاليادوليد، مرَّ في المدينة، بطريقه إلى بروغس، رئيسُ أساقفتها المعيّن، وكان سابقًا أسقفًا على كناريا، فتوسّلتُ إلى أسقف پالنثيا، السيد ألڤارو دي مندوثا — الذي ذكرتُ أنه يساعدُ رهبانيتنا كثيرًا لأنّه أوّلُ من وافق على إنشاء دير القديس يوسف آڤيلا، عندما كان أسقفًا هناك، وأجزلَ علينا نعماءه فيما بعد، وهو يعتبر شؤونَ هذه الرهبانية كشؤونه الخاصَّة، خصوصًا تلك التي أتوسّل إليه في شأنها — أن يتوسَّطض لديه، فأجابني أنّه سيطلبُ الإذنَ منه بكلِّ طيبة خاطر. فهو يرى أنَّ هذه البيوت تؤدّي خدمةً كبرى لربِّنا، لذلك ينشرحُ أيَّ إنشراح كلّما أنشئ واحدٌ منها.

موافقة الأسقف الجديد

٣. لم يشأ رئيسُ الأساقفة أن يدخل ڤاليادوليد، بل نزل في دير القديس ايرونيموس، حيث أقام أسقف پالنثيا على شرفه حفلة كبرى، ومضى ليتغدّى معه ويُسلِّمَ إليه درع التثبيت أو ليقومَ باحتفالٍ ما لتنصيبه أسقفًا. هناك طلب [السيد ألڤارو دي مندوثا] منه الإذن لي كي أُنشئَ الدير. فأجابه أنه يعطيه بكلِّ طيبة خاطر، بل إنّه كان قد رغب واشتهى أن يُقامَ أحد هذه الأديار في كناريا، لأنّه يعرف أيَّ خدمةٍ تُقدَّمُ فيها لربِّنا، لأنَّ في مسقط رأسه واحدًا منها، وهو يعرفني معرفةً جيّدة[1]؛ وعليه، سألني الأسقف أن لا أقلقَ بشأن الإذن، لأنه أظهر انشراحًا تامًّا للأمر؛ وبما أنَّ المجمعَ[2] لا يرتّب أن يُعطىَ الإذنُ خطيًّا، بل تكفي موافقةُ الأسقف، فيمكن اعتباره حاصلاً.

تقاعس وتوبيخ

---

١ كريستوبال ڤيلا، رئيس أساقفة بورغس هذا، هو ابن السيد بلاسكو نونييث ڤيلا، من آڤيلا، وبالتالي ابن أخي عرّاب القديسة تريزا.

٢ إشارة إلى المجمع التريدانتيني والترتيبات الخاصَّة بالاصلاح الرهباني، في الجلسة الخامسة والعشرين، الفصل الثالث.

٤. في كلامي سابقًا على تأسيس دير پالنثيا، ذكرتُ الصعوبة الكبرى التي لقيتُها آنذاك بسبب مرضي الخطير الذي ظُنَّ معه أني لن أبقى على قيد الحياة؛ وما كنت قد نَقَهتُ من ذاك المرض[٣]، رغم أن هذه الأسباب لا ثقل كبيرًا لها في حسابي حين يكون الأمر متعلّقًا بخدمة الله؛ وعليه، لست أفهم سببًا لتقاعسي وقتذاك. فلو انَّ السبب قلَّةُ الامكانيات، فإنّ إمكانياتي في تاسيسات أخرى كانت دون ما هي عليه الآن. لكن بعد أن رأيتُ ما حصل فيما بعد، فيبدو لي أنَّ الشيطان كان وراء هذه الحال. وهذا ما حصل عادة. ففي كلِّ مرَّةٍ تَنشأُ صعوبةٌ في تاسيس ما، فإنَّ ربَّنا الذي يعرف مدى بؤسي، يساعدني قولاً وعملاً. وقد لاحظتُ أحيانًا في بعض تأسيساتٍ لا تقوم بوجهها صعوبات، أنَّ جلاله لا ينبِّهني إلى شيء. وهذا ما حصلَ في هذه الحالة. فلأنه يعرف ما كان سيجري، أخذ يشجّعني منذ البدء. فليكن مسبَّحًا لهذا كلَّه. هذا ما حدث هنا، كما ذكرت عند تأسيس الدير في پالنثيا، وكنت أعالج التأسيسَين معًا حين قال لي لائمًا لماذا أخاف ومتّى تخلّفَ عن مساعدتي: **ما زلتُ إياي، فلا تتردّدي، إذًا، في تحقيق هذين التأسيسَين**. لقد ذكرتُ سابقاً كم شجّعتني هذه الكلمات، فليس ما يدعو إلى التكرار هنا؛ فانزاح عنّي حالاً الكسل كلّه. من هنا يتّضح أنَّ السببَ لم يكن المرض ولا الشيخوخة. وعليه، بدأتُ أعالج التأسيسَين، كما ذكرت.

إعلام الأسقف

٥. بدا من الأفضل البدء في پالنثيا لأنها الأقرب، ولأن المناخ قاسٍ، والطقس في بورغس شديد البرودة؛ وإرضاءً لأسقف پالنثيا، فقد تمّ العمل كما ذكرت. وإذ كنتُ هناك، وظهرتْ إمكانية التأسيس في صوريا، بدا من الأفضل الذهاب إليها أولاً لأنَّ كلّ شيء كان جاهزًا.

رأى اسقف پالنثيا، كما توسَّلت إليه، أن اللياقة تقضي بأن يطلعَ رئيس الأساقفة على ما يجري؛ فأرسل إليه، بعد ذهابي إلى صوريا، فهذه الغاية دون غيرها، كاهنًا قانونيًا يدعى خوان ألونسو. وكتب إليَّ مُفصحًا لي بمحبَّة كبيرة عن رغبته الشديدة في مَجيئي، وتفاهَمَ في هذا الموضوع مع القانوني؛ وكتب إلى سيادته واضعًا الأمر بين يديه مضيفًا أنه يفعل ما يفعل لأنّه يعرف بورغس، ولأن موافقته ضروريَّة.

مباحثة سلطات المدينة

٦. تقرَّر أخيرًا أن أمضيَ إلى هناك على أن يُبْحَثَ الأمر أولاً مع سلطات المدينة، فإذا رفضت أن تعطيَ الرخصة، فإنّها لن تكبّل يديه فتحول دون أن يعطيني هو إيّاها؛ فهو كان في آڤيلا عندما تأسَّس الديرُ الأوَّل ويذكر الهيجان والمناهضة اللذين حصلا؛ وعليه كان يودّ أن يتجنَّبَ حصولَ الشيء نفسه هنا؛ فليس من المناسب أن يُنشَأَ ديرٌ إن لم يتأمّن له ريعٌ وموافقةُ المدينة. فالأمر لا يلائمني، ولهذا فهو يلفت إليه انتباهي.

طلب التأخير

٧. واعتبرَ الأسقف، بحقّ، أن الصفقة قد تمَّت حين أرسل بطلبه اليَّ أن أمضي إلى هنالك. غير أنّي شعرتُ ببعض الفتور لدى رئيس الأساقفة، فكتبت إليه أشكرُ المنَّة التي منحني إيّاها؛ إلاّ أنّي أضَفْتُ أنَّ تأسيسَ

٣ تشير إلى مرضها في طليطلة والنكسة التي أصابتها في ڤاليادوليد.

[الدير] بخلاف إرادة المدينة يكون أسوأ ممّا لو تمَّ من دون إطلاعها على الأمر، فأزجّ سيادته في نزاع معها –. وأخالني أصبتُ في ظنّي ان مساعدته ستكون ضئيلة جدًّا إذا صادفتُ معارضة –، بل قد لقيتُ الأمر صعبًا لِتَعارُض الآراء عادةً في شؤون كهذه. فكتبتُ إلى أسقف پالنثيا متوسِّلةً أن يتركَ الموضوع معلَّقًا لفترةٍ ما دام لهم يبقَ من الصيف إلاّ القليل، ولأنّ كثرة أمراضي تحول دون ذهابي إلى منطقة شديدة الرودة كتلك. لم اضمِّن كلامي شكًّا في موقف رئيس الأساقفة، لمعرفتي امتعاضَ [الأسقف] من إثارته العوائق بعد حسن النيّة الذي أظهره، ولئلا أثيرَ أيَّ خلافٍ بين صديقين. وعليه، فقد مضيت من صوريا إلى آڤيلا، مضطرَّة إلى العودة على عَجَل؛ وأتَّضح أن ذهابي إلى دير القديس يوسف في آڤيلا كان ضروريًّا جدًّا لبعض الشؤون[٤].

قصّة الأرملة كاتالينا

٨. كانت تسكن مدينة بورغس أرملةٌ قديسة تدعى كاتالينا دي تولوسا، أصلها من ڤيثكايا[٥]، لو تحدَّثتُ عن فضائلها لاضطررت إلى إطالة الكلام على تقشّفها، وتأمُّلِها، وإحساناتها الكثيرة ومحبَّتها؛ وهي إلى ذلك تمتاز بالفهم والشجاعة. أدخلت اثنتين من بناتها دير سيّدة الحبل بلا دنس لرهبانيتنا في ڤاليادوليد منذ أربع سنوات، كما أعتقد، وأدخلت اثنتين أخريين في پالنثيا، وقد انتظرتُ إلى أن أنشئ الدير، فأخذتهما إليه قبل أن أعادر المدينة[٦].

استئجار البيت وإعداده

٩. هؤلاء الأربع اللواتي ربّتهنَّ أمٌّ كهذه الأم، لا يبدين إلاّ ملائكة. لقد زوَّدَتْهُنَّ مهرًا وافرًا، ووفَّرت لهنَّ كلَّ شيء على أكمل وجه لأنّها، هي، كاملةُ الفضل، وكلُّ ما تعمله، تعمله بسخاء، وتستطيع عملَه لأنّها غنيَّة. عندما ذهبتُ إلى پالنثيا، كنا نعلم علمَ اليقين الحصولَ على الإذن من رئيس الأساقفة بحيث لم تخطر ببالنا أيَّ صعوبة. وعليه، سألتها أن تبحث لي عن بيت تستأجره لتستلمه وتضع فيه مصبَّغةً ودولابًا[٧] على نفقتي، من دون أن يخطرَ ببالي أن تنفق من مالها شيئًا، بل يكون المال المنفَق قرضًا لي. وكانت تتمنَّى بقوَّة أن يتمَّ التأسيس؛ فأسِفَتْ أسفًا كبيرًا لأن يتوقّف المشروع حيث توقّف. وعليه، بعد ذهابي إلى آڤيلا، كما ذكرت، غير مكترثة بالموضوع آنذاك، لم تتوانَ عن السعي، بل، ثقةً منها بأنّه من المفيد الحصول على الترخيص من المدينة، بدأت مساعيها من دون أن تُطلعني على الأمر.

مفاوضات وموافقة

---

٤ والسبب معالجة بعض التجاوزات. وعند استقالة الرئيسة ماري للمسيح من الرئاسة، انتخبت في مكانها القديسة تريزا رئيسة على دير القديس يوسف في آڤيلا.

٥ Catalina de TOLOSA, Vizcaya.

٦ يجدر التنويه في هذا المجال بأن السيّدة كاتالينا كانت أرملة؛ دخلت ابنتان لها دير الكرمليات في ڤاليادوليد، وابنتان أخريان في دير پالنثيا، كما دخلت صغرى بناتها في دير بورغس. وهي نفسها أخذت ثوب الكرمل في دير پالنثيا (١٥٨٧) حيث توفّيت (١٦٠٨). كما ان ابنَيْها يوحنا فم الذهب وسبستيان ليسوع صارا كرمليَّيْن.

٧ الدولاب: طبق خشبي مستدير يستعمل في أبواب أديرة الراهبات المحصّنات لتوصيل الأشياء من الزوّار إلى الراهبات أو العكس.

١٠. وكان لها جارتان، أمٌّ وابنتها، من عائلةٍ كريمة تعبدان الله عبادةً حقَّة، وترغبان رغبةً كبرى في أن يتحقَّق التأسيس. أمّا الأمّ فهي السيّدة ماريا مانريكي[٨]، ولها ابن، مفوّض أمنٍ، ويدعى دون ألونسو دي سانتو دومنغو مانريكي[٩]؛ وأمّا الإبنة فتدعى دونيا كاتالينا. فسألتْه كلتاهما أن يطلبَ الترخيص من البلديَّة؛ فاستفسرَ كاتالينا دي تولوسا عن إمكانياتنا الماديّة، لأنّ الترخيص لا يعطى ما لم تتوافر الامكانيات اللازمة. فأجابته أنها تلتزم تقديمَ بيتٍ لنا إذا لم يكن لدينا بيت، وتوفيرَ الطعام؛ وهكذا فعلت؛ وعليه، قدَّمت طلبًا موقّعًا باسمها. ولاحق دون ألونسو الموضوع ببراعة، فحصل على موافقة جميع المفوَّضين، وعلى موافقة رئيس الأساقفة، وحمل إليها الترخيص خطيًّا. أما هي، فما ان شَرَعَت في المفاوضات حتى كتبت إليَّ حالاً تُطلعني على ما يجري. فاعتبرتُ الأَمرَ نكتةً لأنّني أعرف مدى رفضهم الأديرة الفقيرة؛ ولأنني كنت أجهل ما التزمت به، وما خطر ببالي أنها تلتزم به، فرأيت أن ما زال علينا الكثير ممّا يجب عمله.

تردُّدها في الذهاب إلى بورغس

١١. وسط هذه الأجواء، وإذ كنت ذات يوم من الأسبوع الواقع فيه عيد القديس مَرْتين[١٠] أسلِّمُ الأمرَ إلى ربِّنا، فكّرت في أنَّ تأسيس الدير يمكن أن يتمذَ إذا أُعطيت الرخصة لذلك. وبدا لي غيرَ معقول ذهابي إلى بروغس، لأنّي أعاني من أمراض يناقضها البردُ جدًّا، والطقس في بورغس شديدُ البرودة؛ كما بدا لي تهوّرًا أن أقومَ برحلةٍ طويلة كهذه مباشرةً بعد قيامي بسفرٍ شاقّ، كما ذكرت، لدى عودتي من صوريا؛ وان الأب الرئيس الاقليمي لم يسمح لي بذلك. واعتبرتُ أنَّ رئيسة پالنثيا[١١] تقوم مقامي بشكل ملائم، لأن جميع الصعوبات قد ذُلِّلَت ولم يبقَ أيُّ أمرٍ معلَّقًا.

الربّ يحثّها على الذهاب

وفيما كانت هذه الأفكار تجول في خاطري وأنا عازمةٌ تمامَ العزم على عدم السفر، قال لي الربّ هذه الكلمات التي فهمتُ منها أنَّ الرخصة قد أُعطيت: **لا تكترثي للبرد، فأنا الحرارةُ الحقيقيَّة. إنّ الشيطان يبذل قواه كلَّها ليمنع هذا التأسيس؛ فجنِّديها، أنتِ، باسمي كي يتمَّ، ولا تتردّدي في الذهاب شخصيًّا، فإنّ ذهابك تحصل منه فائدة كبرى.**

عزمها على الذهاب

١٢. بعد سماعي هذا الكلام، غيّرت رأيي؛ فرغم أن طبعي ينفرُ أحيانًا من أمورٍ شاقَّة، إلاّ أنَّ عزمي على احتمال حبًّا بهذا الإله العظيم لا يتراخى. وعليه، سألته أن لا يقيمَ وزنًا لمشاعر ضعفي هذه بل أن يأمرني بما يؤول إلى خدمته، فلا أتقاعس عن تنفيذه بفضل مساعدته.

---

٨ Doña Maria MANRIQUE.

٩ Don Alonso de Santo Domingo MANRIQUE.

١٠ في منتصف تشرين الثاني / نوفمبر.

١١ إينس ليسوع.

لطافة الطقس

كان الثلج يتساقط، والبردُ قارسًا. وأكثر ما أخافني سوى صحّتي، فلو كانت جيّدةً، لما حسبتُ، فيما أظنّ، لشيءٍ حساباً. لقد خانتني صحّتي بصورة مستمرَّة في أثناس هذا التأسيس. وصار البردُ خفيفًا جدًّا. أو أقلّه هذا كان شعوري، بحيث إنّي، في الحقيقة، تصوَّرت أنّي شعرت بالبرد في طليطلة شعوري به في بورغس؛ لقد صدق الربُّ في ما قاله بهذا الشأن.

ظهور مخاطر

١٣. جاؤوني بالرخصة بعد أيام قليلة مصحوبةً برسائل من كاتالينا دي تولوسا ومن صديقتها دونيا كاتالينا[١٢] تسألانني الاسراع في القدوم إليهما مخافة أن يحصل عائقٌ مفاجئ، لأن **الڤكتوريين**[١٣] جاؤوا في هذه الأثناء وفي نيّتهم أن يؤسّسوا ديرًا، وكذلك الكرمليّون المنتعلون يسعون إلى ذلك منذ وقت طويل؛ ثم جاء الباسيليون. كلُّ هذا يشكِّل عائقًا خطيرًا؛ والتقاؤنا عدَّة أفرقاء في الوقت نفسه يحمل على التفكير في الأمر، وعلى أن نمجّد ربّنا على المحبَّة الكبرى التي أظهرتها هذه المدينة إذ أعطتهم الرخصة بسخاءٍ تامّ، رغم أنّها ليست في حالة الإزدهار الذي عرفته سابقًا. لطالما سمعتُ ثناءً على محبَّة هذه المدينة [بورغس]، إلاّ أني ما تصوَّرتُها تبلغ هذا الحدّ. فالبعض من أهلها يساعد هذه الرهبانيات، والآخرون يساعدون تلك. إلاّ ان رئيس الأساقفة كان ينظر إلى السيِّئات التي قد تحصل، فيعارض كلَّ تأسيس لاعتقاده أن ذلك يؤذي رهبانيات الفقر القائمة فيستحيل عليها العيش. ولعلَّ تلك الرهبانيات كانت تلجأ إليه، أو أنَّ الشيطان كان يخترع هذه الأفكار ليزيل الخير العميم الذي يصنعه الله حيث يجلب أديارًا عديدة، لأنّه قادر على أن يوفّر العيشَ لأديارٍ كثيرة كما يوفّره لأديارٍ قليلة.

إلحاح في الذهاب

١٤. وفيما الأوضاع على هذه الحال، كانت هاتان المرأتان القديستان تُلِحّان عليَّ كي أعجِّل في المجيء؛ ولكنت ذهبتُ حالاً لو عاد الأمر إليَّ، ولم يكن هناك شؤون عليَّ أن أعالجها. فقد كنت أدرك كم أنّني ملتزمة أن لا أضيِّع فرصة كهذه بتقاعسي، فيما هما تجهدان في توفيرها.

لقد كانت الكلماتُ التي سمعتها توحي بمعارضةٍ كبيرة، لا أعرف مَن يمكن أن يقوم بها، ولا من أين تنشأ؛ لأن كاتالينا دي تولوسا كانت قد كتبت إليَّ مؤكّدة أنّها تضعُ البيت الذي تسكنه بتصرّفي لاستلامه، وانّ المدينة موافقة، وكذلك المطران. فكنت عاجزةً عن أن أفهمَ هذه المعارضة التي قد يثيرها الشيطان، لأنّي ما كنت أشكُّ في أن الكلمات التي سمعتها هي من الله.

موافقة الرئيس الاقليمي

---

١٢ أي كاتالينا مانريكي.

١٣ الڤكتوريين هم رهبان القديس فرنسيس دي پاولا الأصاغر.

١٥. الخلاصة، ان جلاله يمنح الرؤساء أنوارًا خاصَّة؛ فلمَّا كتبت إلى الأب الرئيس الاقليمي[١٤] في شأن ذهابي تنفيذًا لما كنت قد سمعت، لم يمانع، بل سألني هل حصلتُ على ترخيص خطّيٍّ من المطران. فكتبُ إلى بورغس بهذا الشأن. فجاءَني الجواب بأنّهم أطلعوه على المباحثات مع المدينة، فوافق، فهذا الواقع، مضافًا إلى كلِّ ما كان قد قاله في الموضوع، يبدو أنه لا يُبقي مجالاً لأيّ شكّ.

رحلة خطرة

١٦. وأراد الأب الرئيس الاقليمي أن يرافقنا للقيام بهذا التأسيس. فمن جهّة لم يكن لديه عندئذٍ ما يُشغله بعد أن وعظ الرياضة استعدادًا لزمن المجيء، وكان عليه أن يزورَصوريا التي ما عاد إليها بعدَ تأسيس الدير فيها، والتعريجُ عليها ليس بثقيل؛ ومن ناحيةٍ أخرى كي يسهر على صحَّتي في أثناء السفر، لأن البرد قارس جدًّا وأنا شيخةٌ ومريضة[١٥]، ويبدو أنَّ حياتي تهمّهم جميعًا بعض الهمّ. وفي الحقيقة، كان ذلك تدبيرًا من الله، لأنّ المياة غمرت الطرق فكان وجوده ورفاقة ضروريًا جدًّا لمعرفة الدروب، وللمساعدة على جرّ العربات وسحبها من المواحل، خصوصًا بين پالنثيا وبورغس. فقد كان خروجنا، والطقس على ما هو، مغامرةً كبرى. والحقيقة، ان ربَّنا قال لي إنَّ باستطاعتنا الذهاب، وان لا أخاف لأنّه يكون معنا. ومع أني لم أبلِّغ الرئيسَ الاقليمي هذه الكلمات عندئذٍ، إلاّ انها كانت تشجّعني وسط المصاعب الشديدة والمخاطر التي أحاطت بنا، خصوصًا في مَعْبَرٍ على مقربةٍ من بورغس يدعونه **العبَّارات**؛ فقد تدفَّقت السيول غزيرةً وقتًا طويلاً بحيث غمرت هذه العبَّارات فاختفت معالمها، فلم تعد تُرى ولا يُعرف من أين يصحّ العبور؛ كلَّ ما هناك غمرُ ماء، والموضِعُ على جانبَي العبّارة عميقٌ جدًّا. والخلاصة، كان اجتياز المكان مغامرةً خطيرةً، خصوصًا بالعربات؛ فإذا انحرفت قليلاً صار كلُّ شيءٍ إلى الهلاك. والواقع أن احدى العربات وجدت في خطر[١٦].

موافقة الرئيس الاقليمي

١٧. أخذنا من نُزُلٍ في ذالك الموضع دليلاً يعرف المِعْبَر، وهو في الحقيقة معبرٌ خَطِرٌ جدًّا. أما النُزُل، فما كان بالامكان قضاء أيام فيه. وبسب أحوال الطرق السيئة، كانت العربات تغوص عادةً في الأوحال فتقضي الضرورة فكّ بغالٍ من عربةٍ للمساعدة في سحبِ أخرى من الوحل. أمّا الآباء الذين كانوا في صحبتنا، فقد عانوا الكثير لانّ سائقي العربات الذي تعاقدنا معهم كانوا شبانًا وتعوزهم الفطنة. لكن مرافقة الأب الرئيس الاقليمي لنا كان يخفِّف من ثقل الحال كثيرًا لاهتمامه بكل شيء؛ ولأنّه هادئُ الطبع فلا يقلقه أمر، بل يهوّن ما هو خطير وكأنّه قليلُ الشأن، إلاّ العبّارات التي أثارت فينا الذعر. وعندما رأيت أنّنا ندخل في محيطٍ من الماء لا طريق فيه ولا سفينة، ما استطعت التحرّر من الخوف رغمَ كلِّ ما قاله لي ربُّنا لتشجيعي؛ فكيف يكون حالُ رفيقاتي ؟ كنا ثماني راهبات: اثنتان ستعودان معي، والخمس الأخريات سيبقين في بورغس، أربع يلتزمن صلاة الفرض، وأخت مساعدة. أظنني لم أذكر اسم الأب الرئيس الاقليمي؛ إنه الأخ إيرونيموس غراثيان لأم الله ، الذي أشرت إليه فيما سبق مرارًا. كنت أعاني من مرضٍ موجِع في حلقي أصابني في طريقي إلى ڤاليادوليد، وما كانت الحمَّى تفارقني.

---

١٤ هو الأب إيرونيموس غراثيان لأم الله (رقم ١٧).

١٥ لا تزال في السادسة والستين من العمر.

١٦ كانت هذه في الواقع عربة القديسة.

وأشدُّ ألمٍ أشعر به يحدث لي لدى الكل. وهذا ما حرمني لذّة الاستمتاع بأحداث هذه الرحلة. وهذا المرض يلازمني الآن، في أواخر حزيران / يونيو؛ ومع أنّه بعيدٌ جدًّا عن شدّته السابقة، إلاّ انه مؤلمٌ شديد الألم. كانت الراهبات جميعًا مسرورات، فبعد أن زال الخطر، كان الحديث عليه مسلّيًا. ان الاحتمال بدافع الطّاعة لدى من تعوَّد عليها كهؤلاء الراهبات، لأمرٌ جدير بالتقدير.

مباشرة التأسيس

١٨. بعد هذه الرحلة السيئة، وصلنا إلى بورغس إثر اجتيازنا مجمَّعات مياهٍ وافرة قبل دخولنا المدينة. ورغب إلينا الأب الرئيس أن نزور أولاً بأول المصلوب المقدَّس[١٧] لنستودعَه مشروعنا وننتظرَ هبوطَ الليل، لأنّنا وصلنا باكرًا يوم جمعة غداة ذكرى ارتداد القديس بولس في ٢٦ كانون الثاني / يناير. كان [الأب الرئيس] عازمًا على مباشرة التأسيس لدى وصولنا؛ وكنت أحمل رسائل عديدة من الكاهن القانوني ساليناس — الذي ذكرته لدى الكلام على تأسيس دير پالنثيا؛ وتأسيس دير بورغس لن تكون كلفته عليه دون تلك، فهو من بورغس ومن عائلة مرموقة — يطلب فيها بإلحاح من أقاربه وأصدقائه المساعدة في هذا المشروع.

سرور بمجيئها

١٩. وهذا ما فعلوه. فقد جاءَني في الغد وفدٌ منهم، وأكّدوا لي أنّهم ليسوا بنادمين على ما قالوه، بل، إنّهم مسرورين لمجيئي، وسألوني أن أنظر في ما يمكنهم أن يساعدوني به. وإذا كان من أمرٍ أثار خِشيَتَنا، فقد كان موقف المدينة، إلاّ ان الأمور جميعَها جرت سهلة أمامنا. وقبل أن يدريَ أحدٌ بوصولنا فكّرنا في أن نُطلعَ المطران ليصيرَ الاحتفال بالقدّاس الأوَّل حالاً، كما اعتدت أن أفعلَ في كلِّ مكانٍ تقريبًا؛ إلاّ أنَّ هطولَ المطر غزيرًا لدى بلوغنا منزل السيّدة كاتالينا دي تولوسا حال دون ذلك.

إصابتها بألم شديد

٢٠. استرحنا تلك الليلة على أحسن حال بفضل اهتمام هذه المرأة القديسة بنا؛ ورغم ذلك فقد كلّفني الأمر ألمًا؛ لقد كانت هناك نارٌ قويَّة في مدخنة رحت أتجفَّف عليها، فأصابني ألمٌ شديد لم أستطع معه أن أرفع رأسي في الغد، فكنت أخاطب من جاؤوا يزورونني، وأنا مستلقية، من وراء شباكٍ وضعنا عليه ستارًا؛ وثَقُلَ ذلك عليَّ شديدَ الثقل لأنه كان من واجبي التفاوض في أمور عدَّة.

غضب المطران ومعارضته

٢١. في اليوم التالي، مضى الأب الرئيس الاقليمي باكرًا ليطلبَ بركة سيادته، وما كنا نظنُّ أنَّ علينا أن نفعلَ أكثر من ذلك، فوجده مضطربًا، غاضبًا لأنّني قدمتُ من دون إذنٍ منه، فكأنّه لم يأمرْني، هو، بالمجيء، وكأنَّ أحدًا لم يباحثه في الموضوع؛ وعليه، فقد حدَّث الرئيس الاقليمي عنِّي بغضبٍ شديد. وعندما سلَّم بأنه كان قد أمرني بالمجيء، قال إنّه كان عليَّ أن أجيء وحدي للتفاوض؛ أما أن آتيَ بصحبة هذا العدد من الراهبات... فهو يسأل الله أن يبعدَ عنَّا الغمَّ الذي أصابه من جرّاء ذلك. وكان من العبث تذكيره بأنَّ الأمر تمَّ التفاوض فيه مع

١٧ هو تمثال مشهور للمصلوب كان يكرّم في السابق في كنيسة رهبان مار اغسطينوس، وهو الآن في أحد معابد الكاتدرائية.

المدينة كما طلبَ هو، فلم يبقَ هناك ما نتفاوض بشأنه، بل أن نباشرَ التأسيس، وان أسقف پالنثيا — الذي سألته إذا كان مجيئي مناسبًا من دون أن أطلع سيادته سلفًا[١٨] –، أجابني أن لا داعيَ لذلك لأن المطران نفسَه أفضحَ عن رغبته في التأسيس. هذا ما جرى؛ والله أراد أن يتمَّ تأسيس هذا البيت، وهو ما قاله المطران فيما بعد؛ لأنّنا لو أعلمناه مسبقًا بقدومنا لكان طلبَ إلينا عدمَ المجيء. وودّع الرئيس الاقليمي بقوله إذا لم يتوافر لنا ريعٌ ولم يكن لنا بيتٌ خاص فلن يعطينا الإذنَ بحال، ويكون من الخير لنا أن نعود من حيث جئنا؛ ويا ما أسهل الأسفار وأجمل الطقس آنذاك !

مكافأة ومشقات

٢٢. آه يا ربي ! ما أصحَّ ما تكافئ حالاً من يؤدّي لك خدمةً ما بمشقّة جسيمة ! وما أثمَنها مكافأةً هذه المشقَّة تنفحُ بها من يحبُّونك حبًّا حقًّا لو أتيحَ لنا أن نعرف قيمتها ! ولما كنّا نتمنَّى هذا الربح عندئذٍ لأنه يبدو وكأنّه يعطّل كلَّ شيء؛ فالمطران كان يضيف قائلاً: إنّ أصلَ الريع وثمنَ البيت يجب أن لا يكونا ممّا تأتي به الراهبات[١٩] من مَهْر. فإذا لم نفكّر في أمر كهذا في زمنٍ كالذي نعيش فيه، فلذلك يعني أن لا خيرَ يُرجى. لكن هذه ليست قناعتي؛ فقد طالما كنتُ على يقين من أنَّ كلَّ شيء يؤول إلى خيرٍ ما يكون، وأن الأَشْراك ينصبها الشيطان للحؤول دون تنفيذ المشروع، وأن الله سيحقِّق عمله. وعاد الرئيس الاقليمي فَرِحًا جدًّا بهذا الخير لأنّه لم يضطرب عند ذاك. واستدرك الله الأمر كي لا يغتاظَ منّي لأنني لم أطلب الإذنَ الخطّي كما كان يريد.

شروط المطران الجديدة

٢٣. وجاء لمقابلتي بعض أصدقاء الكاهن القانوني سليناس الذين كان قد كتب إليهم، كما ذكرت، وكذلك بعض أقاربه،فرأوا أن يُطْلَبَ الإذن من المطران ليتمَّ الاحتفال بالقدّاس في البيت تحاشيًا للتجوّل في الشوارع. فالوحل يملأ الطرقات، وهذا ما يضايق الحفاة، وفي البيت غرفةٌ لائقة كان اليسوعيون قد استخدموها كمعبدٍ طوال عشر سنوات حين جاؤوا إلى بورغس؛ وعليه، ما رأينا مانعًا من تسلُّم ذلك البيت إلى أن نجد بيتًا آخر. واستحال علينا الحصول على الإذن من المطران للاحتفال بالقدّاس رغم أن اثنين من الكهنة القانونيين توسّلا إليه في ذلك. كلُّ ما استطعنا الحصول عليه أنه سمع لينا، بعد توفير الريع، أن يتمَّ التأسيس هناك إلى أن نشتريَ بيتًا، على أن نقدِّم كفلاءَ يضمنون الشراء وخروجَنا من البيت الذي نشغله. وجدنا الكفلاء حالاً؛ فقد تقدَّم للكفالة أصدقاء الكاهن القانوني سالیناس؛ كما ان كاتالينا دي تولوسا تطوَّعت لتقديم الريع كي يتمّ التأسيس.

سخاء السيّدة كاتالينا

٢٤. مرّت ثلاثة أسابيع والأسئلة هي هي:أين، ومتى، وكيف، ونحن لا نسمع القدّاس إلاّ أيام الأعياد باكرًا جدًّا، وأنا أعاني من الحمّى ومن ثقل المرض. غير أن كاتالينا دي تولوسا التي امتازت بسخائها وبحسن استعدادها، صنعت كلَّ شيء على أحسن وجه، فقدّمت لنا الطعام طوال شهر وكأنّها أُمٌّ لكلٍّ واحدةٍ منّا، وذلك

١٨ عبارة توضيح أضافها الأب إيرونيموس إلى نص الطبعة الأولى.

١٩ المقصود الداخلات حديثًا.

في غرفة مخصوصةٍ بنا. أما الأب الرئيس الاقليمي وصَحبه فقد حلُّوا في بيت صديقه ورفيقه في الدراسة الدكتور مانسو، الكاهن القانوني وواعظ الكاتدرائية؛ [وأبدى الرئيس] بَرَمًا شديدًا حين رأى أنّ إقامته هناك تطول من دون أن يعرف كيف يغادرنا.

عراقيل أخرى

٢٥. بعد أن تمَّ الاتفاق على الكفلاء وتأمّن الريع، طلب المطران أن يحال الموضوع على المقرّر، فيصير تصريفه حالاً؛ إلاّ أنّ الشيطان ما كان ينفكّ عن ملاحقته. فبعد أن نُظِرَ في الأمر مليًّا، وظننّا أن لا داعي بعد إلى التأجيل، ومضى شهرٌ تقريبًا على موافقة المطران على ما كنا نقوم به، أرسل إليَّ المقرّر مذكّرةً يقول فيها إنّ الإذن لن يُعطى لنا إلى أن نمتلكَ بيتًا خاصًّا بنا؛ فالمطران لا يريدنا أن نؤسِّس في البيت الذي نقيم فيه، لأنّه رطبٌ والشارعُ كثير الضوضاء، ولستُ أدري أيَّ مشاكل متعلّقة بضمانة الريع وأشياء أخرى، وكأن المشروع يبدأ حينذاك، ولا مجال لمناقشة الموضوع، والبيت يجب أن يكون موافقًا لذوق المطران.

تشجيع الربّ

٢٦. كبيرةً كانت دهشةُ الرئيس الاقليمي، ودهشتُنا جميعًا، عندما رأى ما انتهى إليه الأمر. فشراء موضعٍ لإقامة دير يتطلَّب كثيرًا من الوقت، ورؤيته إيَّانا نخرجُ لسماع القدّاس كان يسبِّب له حيرةً، رغم أن الكنيسة لم تكن بعيدة، وكنا نسمع القدّاس من معبد لا يشاهدنا فيه أحد. لكن هذا الواقع كان يسبِّب لحضرته ولنا غمًّا كبيرًا. وفي ظنّي أن قد راودته آنذاك الفكرة في أن نعود من حيث أتينا. وما كنت أستطيع احتمال ذلك حين أتذكَّر أنَّ الربّ طلب إليَّ أن أسعى إلى التأسيس من قِبَله، وكنت على ثقةٍ تامَّة بالنجاح فلا يحزنني شيء تقريبًا. ما غمني إلاَّ حزن الرئيس الاقليمي، وعزَّ عليَّ جدًّا أن يكون قد رافقنا كأنَّه لا يعرف أيَّ نفع سيوفّره لنا أصدقاؤه، كما سأروي ذلك فيما بعد. وإذ كنت فريسةَ الغمّ، ورفيقاتي يعانين غمًّا أشدَّ — إلاَّ انه ما همَّني إلاّ حزن الرئيس الاقليمي –، ولم أكن أقوم بالتأمُّل، إذا بربّنا يقوم لي هذه الكلمات: **يا تريزا ! أصمدي الآن !** فزادتني هذه الكلماتُ شجاعةً لأسألَ الرئيس الاقليمي — وجلاله أعطاه ولا شكّ شجاعةً مقابلة — ان يذهبَ ويتركَنا وشأننا، لأن زمنَ الصوم اقترب وعليه أن يمضيَ لإلقاء المواعظ.

الإقامة في مستشفى

٢٧. وأعطى، هو، وأصدقاؤه الأمرَ بأن توضَعض بتصرّفنا بعضُ غرفٍ في مستشفى الحبل بلا دنس حيث القربان مصمودٌ دائمًا ويقام القدّاس يوميًا، فاطمأنَّ بعض الاطمئنان. إلاّ ان ذلك لم يتحقَّق من دون مشقَّة. فإحدى القاعات الحسنة كانت قد استأجرتها أرملةٌ من المدينة رفضت أن تعيرَنا إيّاها — مع انها لم تشغلها طوال نصف سنة –، بل ساءَها أن تُعطى بعض الغرف في أعلى المبنى؛ وزاد الطينَ بلَّةً ان احداها متّصلةً بغرفتها؛ وما اكتفت بأن تحتفظ بالمفتاح لإقفالها من الخارج، بل سمَّرت الباب من الداخل. إضافةً إلى هذا، فإن أعضاءَ الأخوية ظنُّوا أننا سنسيطر على المستشفى، وهو أمرٌ غير معقول إطلاقًا؛ لكنَّ الله كان يريد أن نزدادَ كسبًا. فاستدعونا، أنا والرئيس الاقليمي، فتعهّدنا أمام الكاتب العدل أن نغادر المكان ما إن يطلبوا إلينا ذلك.

إحسان سيّدين

٢٨. هذا ما أثار قلقي أكثر من أيِّ أمر، لأنّي كنت أخشى الأرملة؛ فهي غنيَّة وأقاربُها كُثُر؛ فما إن تَعِنُّ لها الرغبة في إخراجنا حتى نضطرّ إلى مغدرة المكان. أمّا الرئيس الاقليمي، وهو الثاقب البصيرة، فقد أراد أن نوافِقَ على كلِّ ما يطلبون كي ندخلَ المكان عاجلاً. ما أعطونا إلاّ غرفتين ومطبخًا. إلاّ ان المسؤول عن المستشفى ويدعى هرناندو دي ماتانثا[٢٠]، وهو رجلٌ يعبد الله حقًّا، أعطانا غرفتين أخريين وأَجزَل الاحسانَ لنا كما يجزله نحو الجميع، ويبذل الكثير في سبيل الفقراء. وكذلك السيد فرنثيسكو دي كويڤاس[٢١]، مدير مكتب البريد في المدينة، وهو مسؤولٌ مرموق في المستشفى، كان جزيل الاهتمام بنا. فقد ساعدنا في كلّ ظرف احتجنا فيه إلى مساعدة.

اعتراف بالجميل

٢٩. لقد ذكرت المحسنين إلينا في أوّل عهدنا لأنَّ من واجب الراهبات الحاليات واللواتي سيأتين لاحقًا أن يّذكرنَهم في صلواتهنّ. والصلاة واجبٌ خصوصًا من أجل المؤسِّسين. ورغم أن لم يكن في نيَّتي أولاً أن تكون كاتالينا دي تولوسا من هؤلاء [المؤسِّسين]، بل لم يخطر الأمر ببالي، فإنّها تستحقّ أن تُعتبرَ مؤسِّسة، لصلاح سيرتها مع ربّنا؛ فقد رتَّبت الأمور بحيث لا يستطاع نكرانُ هذه الصفة عليها. فعدا أنّها دفعت ثمن البيت، وهذا أمرٌ كنَّا نعجز عنه، لا يمكن أن نصفَ كلّ ما كلّفتها تقلّبات المطران؛ فتفكيرها في أن التأسيس قد لا يتم كان يسبِّب لها الحزنَ الأكبر؛ ومع هذا فما توانت قطّ عن الإحسان إلينا.

شجاعة كاتالينا

٣٠. لقد كان هذا المستشفى بعيدًا جدًّا عن منزلها، وكانت تتلطّف فتزورنا يوميًا تقريبًا وترسل إلينا كلَّ ما نحتاج إليه، رغم أنَّ الآخرين ما انفكّوا قطّ يُسمعونها إهاناتٍ تكفي لأن تجعلها تعزف عن كلِّ شيء لولا أنّها تتحلّى بالشجاعة التي تتحلّى بها. كان يثور في نفسي غمٌّ شديد حين أراها تحتمل ما تحتمل. ورغم أنّها كانت تُخفي ما تعانيه، فلم تكن تستطيع اخفاءَه أحيانًا أخرى، خصوصًا عندما كان الأمر يتناول ضميرَها؛ فضميرُها على درجةٍ من الاستقامة عاليةٍ جدًّا بحيث إنّي لم أسمعها تتفوَّه بكلمةٍ واحدة يمكن أن تهينَ الله، رغم أن البعض قد وفَّروا الأسباب لذلك. كانوا يقولون لها ان مصيرَها جهنَّم، فكيف يمكنها أن تفعل ما تفعل ولها أولاد. أمّا هي، فكانت تعمل كلَّ شيء بمشورة ذوي العلم؛ فحتى لو أرادت مخالفةَ المشورة، ما كنت، أنا، لأرضى بأن تفعل شيئًا لم تُخوَّلْ فعله، ولو كلّف الأمرُ الاقلاعَ عن إنشاءِ ألف دير، فكم بالأحرى إنشاء دير واحد. غير أنه لما كانت مفاوضاتنا سريَّةً، فما كنت أُعجب من غليان أفكارهم. أمّا هي، فكانت تردّ بفطنة — وهي ذاتُ فطنة رفيعة — وتتصرَّف بحيث يبدو واضحًا أن الله يعلّمها الوسائلَ لتسرّ البعض، وتحتملَ البعض الآخر، ويؤتيها شجاعةً لتصبرَ على كلِّ شيء. يا ما أعظمَ قوَّةَ خدَّام الله في الأمور الجِسام، وتفوّقها على قوَّة سراة القوم إن لم يكونوا من خدَّامه ! وهي لم يكن ينقصُها شرفُ الأصل لأنّها من ذوي الحسب الرفيع.

حزن الرئيس وشكّه

---

٢٠ Hernando de MATANZA.
٢١ Francisco de CUEVAS.

٣١. وأعود إلى الحديث السابق فأقول: ان الرئيس الاقليمي لما أمَّن لنا مكانًا نسمع فيه القدّاس ونحن في الحصن، اطمأنَّ بالاً ليذهب إلى ڤاليادوليد حيث كان عليه أن يقوم بالوعظ، لكنَّه كان حزينًا جدًّا لأنّه لم يلاحظ لدى المطران ما يؤمّله بالحصول على الإذن. ورغم تأكيدي له أنَّ كلَّ شيء سيتحقَّق، فما كان يصدّقني. والحقيقة، ان أسبابًا قويَّة، لا فائدة من ذكرها، كانت تبرّر شكّه. وإذا كان أمله، هو، ضغيفًا، فإن أصدقاءَنا كانوا أضعف أملاً منه ويثبّطون همَّته.

أمر بشراء البيت

شعرت بكثيرٍ من الارتياح عندما ذهب، لأن غمّي الأكبر، كما قلت، كان ناتجًا عن غمّه. أُمِرنا أن نبحث عن بيتٍ يكون ملكًا لنا، وهو ما كان صعبًا جدًّا، لأنّنا، حتى ذاك الوقت، لم نجد بيتًا واحدًا نستطيع شِراءَه. وكُلِّفَ الأصدقاء بزيادة الاهتمام بنا، خصوصًا صديقا الرئيس الاقليمي؛ فاتفق الجميع على عدم البوح بكلمةٍ أمام المطران قبل إيجاد البيت. وكان المطران لا ينفكّ يصرّح بأنّه يرغب أكثر من أيِّ شخصٍ آخر في أن يتمَّ هذا التأسيس؛ وأنا أصدّق قوله، لأنّه مسيحيٌّ أصيل ولا ينطق إلاّ بالحقّ. أما في أفعاله فلا يبندو كذلك، لأنّه كان يطلب أشياء تبدو مستحيلةً قياسًا على قدرتنا. هذه هي الخطّة التي كان يتَّبعها الشيطان كي يمنعَ التأسيس. لكن، آه، يا ربّي، ما أعظم قدرتك ! فالوسائل التي كان يخترعها ليعيقَ التأسيس، استخدمتَها، أنت، ليكون الصنيعَ أفضل. فلتكن مباركًا إلى الأبد.

البحث عن بيت ملائم

٣٢. منذ دخولنا المستشفى، عشية عيد القديس متّى، وحتى عشية عيد القديس يوسف[٢٢]، طفقنا نبحث في شأن بيوت عدّة. لكن مساوئ البيوت المعروضة للبيع كانت من الكثرة بحيث إنّ شراء أيٍّ منها لم يكن مناسبًا. وأُخْبِرْتُ أن أحدَ النبلاء يعرض منزله للبيع منذ أيّام؛ ورغم ان ورهبانياتٍ عدّة كانت تبحث عن بيت، فقد رتَّب الله أن لا يبدو ذلك مناسبًا لأيٍّ منها؛ أمّا اليوم، فتراهم جميعًا متعجّبين، وترى بعضَهم نادمين. كان قد حدَّثني عن ذلك البيت شخصان؛ لكنّ الذين كانوا يحطّون من قيمته كثيرون، فأهملت أمره كأنه لا يناسبنا.

خدمة أحد الأصدقاء

٣٣. كنت ذات يوم في حديث مع الأستاذ أغيار[٢٣]، صديق رئيسنا كما قلت، وكان يسعى دؤوبًا ليجدَ لنا بيتًا؛ وفيما هو يخبرني أنه شاهد بعَ المنازل، وانه لا يوجد بيتٌ في المدينة كلِّها ويبدو مستحيلاً أن يوجد، بحسب ما قيل لي، تذكَّرت البيت الذي أسقطناه من حسابنا وفكَّرت: مهما كان سيّئًا حاله فلنسدَّ به حاجتنا الآن، ويمكننا أن نبيعه فيما بعد. وسألت الأستاذ أغيار أن يؤدّي لي خدمةً فنذهب لمشاهدته.

اختيار البيت

---

٢٢ من ٢/٢٣ حتى ٣/١٨ سنة ١٥٨٢.

٢٣ AGUIAR.

٣٤. راقته الفكرة؛ ولم يكن يعرف البيت. ومع ان الطقس كان عاصفًا ذلك اليوم وشديد البرودة، فقد أراد الذهاب حالاً لمشاهدته. أمّا المستأجر الذي لا يودّ البتة أن يُباع، فرفض السماحَ له برؤيته؛ غير أن الموقع وما استطاع مشاهدتَه من البيت أعجباه كثيرًا، فقرَّرنا السعيَ لشرائه. لم يكن صاحب البيت في المدينة، لكنّه كان قد فوّضَ لبيعه كاهنًا ورِعًا حرَّك العليُّ رغبته لبيعَنا إيّاه ويتفاوضَ معنا ببساطةٍ تامَّة.

تشاور في شأن السعر

٣٥. تمَّ الاتفاق على أن أمضيَ لأُشاهدَ البيت. فأعجبني إلى أقصى حدّ بحيث لو طلبوا ثمنًا يوازي ضعفَيْ ما أُقدّره، لبدا لي رخيصًا؛ والثمن المطلوب قليل. فمنذ سنتين عُرِضَ على صاحبه المبلغُ نفسُه فرفض بيعه. وفي الغد، قصَد المكانَ الكاهنُ والأستاذ، الذي ما إن رأى أن المطلوب زهيد، أراد أن يتمّ العقد حالاً. وكنت قد أطلعت بعض الأصدقاء على الأمر، فقالوا لي إنّني أدفع خمسمائة دوقيَّة زيادةً عمَّا يساوي. أمّا الأستاذ، فرآه رخيصًا لو دفعت الثمنَ المطلوب، وهذا كان رأيي؛ ونصحني بأن لا أتردّد؛ وبدا لي الثمنُ زهيدًا؛ أمّا والمال مال الرهبانية فساوريني الشكّ. حصل هذا الاجتماع عشيَّة عيد القديس يوسف المجيد، قبل القدّاس. وسألت [الكاهن والأستاذ] أن نعود إلى الاجتماع بعد القدّاس لاتخاذ القرار.

إتمام عقد البيع

٣٦. الأستاذ راجحُ الفهم، فكان يرى بوضوح أنّه إذا ابتدأ الخبر ينتشر فسيكلّفنا [البيت] ثمنًا أرفع جدًّا أو أن نعدلَ عن شرائه. وعليه، فقد أحتاط للأمر وحصل على تَعَهُّدٍ من الكاهن أن يعودَ إلى المكان بعد القدّاس. أمّا نحن [الأخوات] فسلَّمنا الأمر إلى الله الذي قال لي: **أتتردّدين بسبب المال ؟** موضحًا بهذا الكلام أن البيت يلائمنا. وكانت الأخوات طلبنَ كثيرًا من القديس يوسف أن يكون لهنَّ بيتٌ بمناسبة عيده؛ ورغم عدم تفكيرنا في الحصول عليه بهذه السرعة فقد استجاب طلبهنَّ. وألحَّ الجميع عليَّ بأن أعقد الاتفاق. وهذا ما حصل: فقد وجدَ الأستاذ على الباب كاتبًا عدلاً كأنَّ الربّ أرسله، فجاء به وقال لي أنْ من المستحَبِّ عقد الاتفاق؛ وجاء بشاهدٍ، فأغلقَ بابَ القاعة كي لا يُشْهَرَ الأمر — فهذا ما كان يخشاه –، وعُقِد اتفاقُ البيع عقدًا ثابتًا عشيَّة عيد القديس يوسف المجيد، كما قلت، بفضل اهتمام هذا الصديق وتدبيره.

مضايقات أخيرة

٣٧. ما خطر ببال أحد أن يباعَ [البيت] بهذا الثمن الرخيص. فعندما بدأ الخبر بالانتشار، شرع يظهر مشترون يقولون إن الكاهن الذي دبَّر الاتفاق، أَحرق الثمن، فطلبوا إلغاء البيع بحجَّة الغشّ الظاهر. فعانى الكاهن المسكين ضيقًا شديدًا. وأعلموا حالاً أصحابَ البيت، وهو رجلٌ وجيه، كما قلت، وزوجته الكريمة، لكنَّهما فَرَحا أيَّ فرح لأن يُنْشَأَ في بيتهما دير، ولهذا صدّقا على الاتفاق لو انَّهما لا يستطيعان أن يغيّرا شيئًا. وفي اليوم التالي تمّ التسجيل، ودُفِعَ ثلثُ الثمن كما طلب الكاهن؛ ومع ان بعضَ بنود الاتفاق كانت مجحفة بحقّنا، فقد ارتضيناها إكرامًا له.

ندم المشترين السابقين

٣٨. قد يخال من النافل أن أتبّسط في رواية شراء هذا البيت؛ أما الحقيقة، فالذين نظروا الأمور بتفاصيلها اعتبروا الأمر أعجوبةً، أكان من ناحية الثمن البخس، أم لأن جميع الرهبان الذين كانوا قد شاهدوه عميت أبصارهم فما اشتروه، وكأنه ليس موجودًا في بورغس؛ والذين يشاهدونه اليوم يصابون بالدهشة، ويُلقون التَّبِعة عليهم ويصفونهم بأنّهم حُمْقٌ. كان قد ساهد هذا المنزل منذ قليل جماعةٌ من الراهبات يبحثن عن بيت، بل جماعتان احداهنَّ أُنشئت منذ عهد قريب، والأخرى من خارج المدينة وقد احترق ديرهن، وشخصٌ غنيٌّ يسعى لينشئَ ديرًا فأهملوا أمره؛ أما الآن فجميعهم نادمون أشدّ الندم.

اعتراف بجميل الاستاذ

٣٩. وانتشر القيلُ والقال في المدينة أيَّ انتشار، فأدركنا بوضوح كم كان على حقّ ذلك الأستاذ الصالح بأن يعالجَ الأمر سرًّا وبالفطنة التي اعتمدها، بحيث نستطيع أن نقول بحقّ، إنّه، هو، بعدَ الله، مَنْ أعطانا هذا البيت. إنّ العقلَ المحكَمَ له دوره الكبيرة في كلِّ شأن. ولأنّ عَقْله راجحٌ جدًّا، ولأنَّ الله أعطاه العزم، فقد حقّق هذا العمل بواسطته. ثم قضى أكثر من شهر يساعدنا مهتمًّا بتنظيم كلِّ شيءٍ بأدنى كلفة. كأني بربِّنا قد احتفظ لنفسه بهذا البيت؛ وكأنَّ كلّ شي كان مُعَدًّا سلفًا. في الحقيقة، ما إن شاهدتُه، وكأن كلّ شيء صُنِعَ لنا، حسبتُني في حلمٍ إذ رأيت العمل قد تمَّ بسرعة قصوى. لقد كافأنا ربّنا مكافأةً صالحة، مقابل ما قاسيناه، بالمجيء بنا إلى هذا المكان الممتِع؛ فالحديقة، والمنظر، والماء ليست شيئًا آخر. فليكن مباركًا إلى الأبد، آمين.

سرور المطران وعراقيله

٤٠. لم يلبث رئيس الأساقفة أن عَلِمَ بما جرى، فارتاح جدًّا لتوفّقنا في سعينا، واعتبر، بحقّ، أن عناده كان السبب. فكتبت له أعتّر عن فرحي لسروره، واعدةً بأن أسرع في إعداد ما يلزم لعلّه يُتمّ فضله عليَّ. وعجّلت في الانتقال إلى البيت لأنّني نبّهْتُ إلى أنّنا لا نستطيع دخوله ما لم يتمّ وضع لا أدري أيّ صكوك. وعليه فرغم أنَّ المستأجر لم يكن قد غادر البيت، ورغم أنَّ إخراجَه كلَّفنا بعضَ العناء، فقد حَللنا في إحدى الغرف. فقيل لي فيما بعد أنَّ فعلَنا أغضبَ [المطران] جدًّا. فهدَّأتُه بقدر استطاعتي؛ ولأنّه صالح، فغضبه يسكن سريعاً. وغَضِبَ كذلك حين عرف أنّنا وضعنا مصبَّعةً ودولابًا لأنّه اعتبر أنّني أريد أن أتفرَّد بتصرفاتي. فكتبت له ان ليس هذا أقصده، بل إنّها العادة الجارية في أديرة الراهبات المحصّنات، لكنّني ما تجرّأت على أن أضَعَ صليبًا حتى لا يبدو بيتنا ديرًا؛ وهذه هي الحقيقة. ورغم الإرادة الطيّبة التي كان يُفصح عنها، فلم تنفع أيُّ حيلةٍ في أن يعطينا الترخيص.

إصرار المطران على عدم إعطاء الترخيص

٤١. وجاء ليشاهدَ البيت، فسرَّه كثيرًا وأظهر لنا لطفًا بالغًا لم يبلغ حدَّ إعطائنا الرخصة، ولو انه زاد من أملنا في الحصول عليها، ذلك أنّه يجب أن يتمَّ وضعُ بعض الاتفاقات مع كاتالينا دي تولوسا. وكان البعض يخشَون شديد الخشية أن لا يعطيَ الترخيص؛ إلاّ ان الدكتور مانسو الذي أشرت إليه، وهو صديق الرئيس الاقليمي الآخر كما أنَّه أيضًا صديقُ المطران، كان ينتظر الوقت المناسب ليذكّره بالموضوع ويلحّ عليه فيه، فقد كان يشقّ عليه كثيرًا أن يرانا نعيش في تلك الحال. فرغم وجود معبد في هذا البيت كان يقام فيه القدّاس

لأصحابه فقط، لم يشأ المطران أن يقام القدّاس لنا، فكنّا نخرج أيّام الآحاد والأعياد لسماعه في كنيسةٍ قريبةٍ منّا، لحسن حظّنا، لكن مضى شهر تقريبًا منذ انتقالنا إليه إلى أن تمّ التأسيس. وجميع اللاهوتيين أكّدوا وجود مبرّر كافٍ للاستمرار في الاحتفال بالقدّاس هناك. ورئيس الأساقفة نفسه، وهو لاهوتي كبير، كان يرى هذا الرأي؛ وعليه، يبدو أنَّ السبب الوحيد [لمعارضته] ان ربَّنا يريدنا أن نحتملَ هذه المحنة؛ وكنت، أنا، أكثرُ من يصبر عليها؛ لكن هناك راهبة ما إن تخرج إلى الشارع حتى تأخذها الرعدة من الحزن.

صبر مدهش

٤٢. لم تكن عمليَّة التسجيل سهلةً، فحينًا يكتفون بالكفلاء، وحينًا آخر يطلبون المال، ويطلعون حينًا آخر بصعوباتٍ جديدةٍ كثيرة. والمسؤولية لا تقع على المطران، بل على وكيلٍ حاربنا أشدّ محاربة؛ ولولا أنذَ الله فتحَ أمامه بابَ سفرٍ آنذاك فحلّ مكانه آخر، لما كنا انتهينا قطّ في رأيي، من المعاملات. آه، إنّ ما احتملَتْه كاتالينا دي تولوسا في هذا الموضوع يصعبُ وصفه. كانت تتحمّل كلَّ شيء بصبرٍ يثير دهشتي، ولا تتعب من توفير حاجاتنا. قدّمت كلَّ الأغراض اللازمة لتجهيز البيت، كالأسرَّة وأشياء أخرى عديدة — فمنزلها كان مجَّهزًا تجهيزًا كاملاً — وكل ما نحتاج إليه؛ فكأنَّها لا تريد أن ينقصنا شيء ولو نقص في بيتها. نساء أخريات ممَّن أسَّسْنَ أديرة لنا قدَّمنَ أموالاً أوفر ممّا قدّمت، لكنّ واحدةً منهنَّ لم تحتمل عشْرَ المشقَّة التي احتملتها، هي، في هذا التأسيس. ولو لم يكن لها أولاد، لأعطيت كلَّ ما تستطيع إعطاءَه. كانت ترغب أيَّ رغبةٍ في أن ترى العمل قد تمَّ، فتحسب كلّ شيء في هذا السبيل قليلاً.

لا واسطة تنفع

٤٣. عندما رأيت البطءَ الكبيرَ الحاصل، كتبتُ إلى أسقف پالنثيا أتوسَّل إليه أن يكتب مرَّة ثانية إلى المطران، ولو كان على نفور شديد منه، لأنّ كلَّ مناهضةٍ لنا كان يحسبها إهانةً شخصيّةً له؛ وما أدهشنا دائمًا ان المطران ما اعتبر مرَّة أنه يؤذينا في شيء. توسّلتُ إذًا إلى أسقف پالنثيا ان يكتب إليه ثانية فيسأله أن ينهيَ المسألة ما دمنا نملك وننفّذ ما يريده. فبعث إليَّ رسالةً موجَّهةً إليه لو سلَّمتها إليه لكنَّا خسرنا كلَّ شيء. والدكتور مانسو، معرّفي ومرشدي، عارض في ان أسلّمها إليه؛ ورغم اتّزانها، فقد تضمَّنت بعضَ حقائق من شأنها أن تزعجَ المطران نظرًا إلى طبعه؛ وقد كان منزعجًا منه بسبب بعض أشياء أبلغه إيّاها رغم أنهما صديقان كبيران. وكان يقول لي : كما أن موت ربِّنا جمعَ في الصداقة مَن لم يكونوا أصدقاء، فهو والمطران صارا عدوَّيْن بسببي. فأجبته أنذَ الواقعَ يبرهن له ما أنا؛ ففي اعتقادي أني عُنيت عنايةً خاصَّة كي أحولَ دون وقوعِ خلافٍ بينهما.

وصول الترخيص

٤٤. ترسَّلتُ إلى الأسقف ثانية، معتمدةً أحسنَ ما استطعتُ من حجج، أن يكتب إلى المطران رسالةً أخرى تفيض صداقةً، فيضع نصب عينيه أنَّ الموضوعَ متعلّق بخدمة الله. ففعل ما طلبتُ منه وهو ليس بالقليل؛ لكن حين رأى أنه بهذا يخدم الله ويساعدنا، وهو ما فعله دائمًا من دون تردّد، كلّف نفسه وكتب إليَّ يقول إنّ كلَّ ما فعله سابقًا من أجل الرهبانية ليس شيئًا إزاء هذه الرسالة. الخلاصة، إنّ الرسالة جاءَت في الوقت المناسب إلى جانب مسعى الدكتور مانسو، فأعطانا الترخيص، وأرسله بواسطة الرجل الصالح هرناندو دي ماتانثا الذي حمله

إلينا ممتلئًا فرحًا. لقد كانت الأخوات هذا النهار أشدَّ حزنًا منهنّ في ايِّ يوم مضى، وكاتالينا دي تولوسا الصالحة في حالٍ لم أستطع معه أن أهدِّئَ روعها، فكأن الربّ أراد أن يزيدَ ضيقنا في الوقت الذي كان مزمعًا أن يزفَّنا السرور؛ وأنا التي ما ساورها الشكُّ من قبل، كنت الليلة السابقة قلقة. فليكن اسمه مباركًا ومسبَّحًا إلى أبد الآبدين، آمين.

الاحتفال بالقدّاس

٤٥. أعطى المطران الدكتور مانسو إذنًا ليقيمَ القدّاس في اليوم التالي ويصمدَ القربان المقدّس. احتفل هو بالقدّاس الأوَّل، ثم إن الأب رئيس دير القديس بولس — للرهبان الدومنيكان الذين تدين لهم رهبانيتنا كما تدين لليسوعيين أيضًا بالكثير — أقام القدّاس الاحتفال وعاونه عددٌ من الكهنة الذين جاؤوا من تلقاء أنفسهم فاكتسب الاحتفال أبَّهةً كبرى.

وغمر السرورُ جميعَ الأصدقاء، بل كادت المدينة كلّها أن تكون مسرورةً لأنّهم أسفوا كثيرًا لرؤيتهم إيّانا في ما كنَّا عليه؛ وساءَهم جدًّا تصرّفُ المطران بحيث إنّي كنت أغتمّ أحيانًا لما يُقال عنه أكثر من أسفي لما يجري. وكان فرح كاتالينا دي تولوسا الطيّبة وفرحُ الأخوات كبيرًا جدًّا فيحرّك في نفسي روحَ التقوى، فأخاطب الله قائلة: "ربّي، وماذا تطلب هؤلاء المتعبّدات لك إلاَّ أن يخدِمْنَكَ، وان يعتكِفْنَ من أجلك فلا يخرجنَ أبدًا من عزلتهنَّ ؟".

طمأنينة العزلة

٤٦. مَن لم يعِشْ في عزلة الحصن، لا يستطيع أن يتصوَّرَ السرورَ الذي يغمرنا في هذه التأسيسات عندما نرى ذواتنا في الحصن حيث لا يستطيع الدخولَ أيَّ علماني؛ فمهما أحببنا هذه التأسيسات، فحبّنا إيّاها لا يوازي الطمأنينةَ العظمى التي نشعر بها في عزلتنا، لأنّ حالَنا فيها بشبه حال الأسماك التي تُصطاد بالشبكة في النهر؛ إنّها لا تستطيع أن تعيشَ إلاَّ إذا أُلقِيَتْ ثانيةً في الماء. وهذا شأن النفوس المكرّسة لتعيشَ في مجاري مياه عريسها؛ فإذا أُخرِجَت من تلك المجاري بشباك أمور العالم، لا تستطيع أن تعيش حقًّا إلاَّ إذا أُعيدت إليها. هذا ما ألاحظه دائمًا لدى جميع الأخوات؛ وهذا ما أعرفه بالاختيار الشخصي. فالأخوات اللواتي يشعرن برغبةٍ في الخروج ومخالطة العلمانيين ومعاشرتهم، فليَخَفْنَ من أنهنَّ لم يجدنَ الماءَ الحيّ الذي ذكره الربّ للسامريَّة، ومن أنَّ العريسَ محتجبٌ عنهنَّ، وبحقّ، لأنهنَّ لا يكتفينَ بالبقاء معه. وأخشى أن يجدنَ أنفسهنَّ في هذا الوضع لسببين: فإما لأنهنَّ لا يَعتنِقْنَ هذه الحالة من أجله فقط، أو لأنّهنَّ، بعد اعتناقها، لا يقدّرن العطيّةَ العظمى التي وهبهنَّ الله باختياره إيَّاهنَّ له وتحريرهنَّ من الخضوع لرجلٍ غالبًا ما يقضي على حياتهنَّ، وقد يقضي أيضًا على نفسهنّ، لا سمح الله.

تسبيح الله

٤٧. آه، أيّها الانسان الحقّ والإله الحقّ، يا عريسي ! أَيُسْتَهان بهذه المنَّة ؟ فلنسبّحه، يا أخواتي، لأنّه وهبنا إيّاها، ولا نَتْعبَنَّن من تسبيح ملكٍ وسيّدٍ قدير كهذا السيّد الذي أعدّ لنا مملكةً لا تزول أبدًا، مقابل مشقَّاتٍ صغيرةٍ يخالطها ألفُ فرح، مشقَّاتٍ تزول كلّها غدًا. فليكن مباركًا أبدًا، آمين، آمين.

صعوبات الريع

٤٨. بعد بضعة أيام من تأسيس الدير، بدا للرئيس الاقليمي ولي أنَّ الريع الذي وقفته كاتالينا دي تولوسا تواجهه بعضُ صعوبات فيكون موضوع دعوى تسبِّب لها متاعب؛ ففضّلنا الاتِّكال على الله فلا نُبقي على ما قد يسبّب لها أدنى كَدَر. ولهذا السبب ولأسباب أخرى، تنازلنا، بإذن الأبّ الرئيس الاقليمي، أمام كاتبٍ عدلٍ، عن جميع الأمور التي كانت قدَّمتها لنا وأَعدنا إليها الصكوك. فعلنا هذا بسريَّة تامَّة كي لا يدريَ المطران بالأمر فيعتبره إهانةً، فيما هو ثقلٌ مُلقى على كاهل الدير. فعندما يكون معروفًا أنَّه ديرٌ يعيش من الحسنات، يجب أن لا نخاف، لأن الجميعَ يساعدوننا؛ أما إذا شُهِرَ بأن له أوقافًا، فهناك خطر في أن يتعرَّض لفقدان الغذاء، كما هو حالنا الآن. وقد وضعت كاتالينا دي تولوسا حلاًّ يُعْتَمَدُ بعد وفاتها، وهو أنَّ ابنتين لها كانتا ستبرزان نذورَهما في ديرنا في پالنثيا تلك السنة وتنازلتا للدير عن أموالهما عندما لبستا الثوب، تُلغيان ذلك الوقفَ وتتنازلات عن الأموال لصالح ديرنا هذا؛ وان ابنةً ثالثةً عزمت على لبس الثوب هنا، تتنازلُ للدير عن حصَّتها من إرث والديها، وهي حصَّةٌ توازي ما كانت وقفته كاتالينا؛ غير ان المشكلة هي أنَّ الدير لا يستفيد من ذلك الوقف منذ الآن. أمّا أنا، فطالما أيقنتُ أنَّ الراهبات لن ينقصهنَّ شيء، لأنّ الربّ الذي يوفّر الحسنات للأديار التي تَعتمد في عيشها عليها، سيُحرِّك هممَ الخيّرين ليوفّروها لهذا الدير أو يؤمّن لراهباته وسائلَ عيشهنَّ. ورغم أنه لم ينشأ إلى الآن دير على هذا الأساس، فكنت أتوسّل إلى الربّ أحيانًا أن يقرّرَ كيف يعالجَ الأمر فتتوافر للراهبات ضروريَّات العيش ما دام أنّه أراد إنشاء هذا الدير؛ وما كنت أودّ مغادرة المدينة قبل أن أرى فتاةً ما تدخله للترهّب.

الربّ يحثّها على الذهاب

٤٩. وفيما هذه الأفكار تجول في خاطري ذات يوم بعد التناول، قال لي الربّ: **فِيمَ تشكّين ؟ فقد تمَّ التأسيس؛ باستطاعتك الذهاب مطمئنَّة**. وبهذا أفهمني أنّه لن يفوتهنَّ ما هو ضروري. فجاء كلامُه وكأني تركتُ لهنَّ ريعًا وافرًا، فما قلقتُ من بعد قطّ. ومن ثمَّ اهتممتُ بسفري، لأنّني اعتبرت ان ما افعله هنا ليس إلاَّ الاستراحة والاستجمام في ديرٍ على هواي، بينما يمكنني، في مكان آخر، أن أؤدّيَ فائدةً أجدى ولو زاد تعبي.

ظلَّ المطران وأسقف پالنثيا صديقين طيّبين. فالمطران أظهر لنا فيما بعد لطفًا وافرًا، وألبَسَ ابنة كاتالينا دي تولوسا الثوب الرهباني[٢٤]، كما ألبسه مبتدئةً أخرى دخلت الدير لاحقًا. وما انفكّ بعض الناس يغمروننا إلى الآن بمساعداتهم، ولن يدع ربُّنا عرائسَه يقاسين الضيقَ إذا خَدَمْنَه وفق إلتزامهنَّ. فليعطِهنَّ ذو الجلال هذه النعمة برحمته العظيمة وبجوده.

٢٤ في هذه المناسبة ترأس المطران الاحتفال وألقى عِظةً عبَّرَ فيها عن أسفه البالغ تخالطه الدموع، لكونه لم يعطِ الإذن من قبلُ لتلك القديسة، وطلب السماح عن كلِّ ما سبَّب للأمّ تريزا ليسوع وراهباتها من ضيقات (دعوى تطويب القديسة تريزيا، آڤيلا ١٦١٠).

[خاتمة]

يسوع مخلّص البشر

انتقال دير آڤيلا إلى سلطة الرهبانية

١. رأيت من الضروري أن اروِيَ هنا كيف أنَّ دير القديس يوسف للراهبات في آڤيلا، وهو أوَّل دير تمَّ تأسيسه — وقد رويتُ قصَّته وأُثبِتَتْ في كتاب آخر –، انتقلَ من الخضوع للأسقف المحلّي[1] إلى الخُضوع للسلطة الرهبانيَّة.

رعاية أسقف آڤيلا

٢. عندما تأسَّس الدير المذكور، كان أسقفًا على [آڤيلا] السيّد ألڤارو دي مندوثا، وهو الآن أسقف پالنثيا، وقد لقيت الراهبات طيلة إقامته هناك أسمى رعاية. وعندما وَعَدْنا بالطاعة له فهمتُ، أنا، من ربِّنا أنَّ من المناسب إطاعته. وأظهر المستقبلُ صحّةَ هذا التصرّف. فقد لقينا منه كلَّ مساعدة في جميع الخلافات التي نشأت في الرهبانية، وظهرت مساعدتُه جليّةً في أمورٍ أخرى كثيرةٍ حصلت؛ ثمَّ إنّه ما رضي قطّ أن يكونَ زائرًا على الراهبات أحدُ رجال الاكليروس، كما لم يكن يفعل في ذلك الدير إلاّ ما أتوسّله منه. واستمرَّ الأمر على هذه الحال أكثر أو أقلّ من سبعة عشر عامًا تقريبًا، لست أذكر على وجه الدقَّة، من دون أن أفكّر في تغيير السلطة التي نخضع لنا.

إخضاعه لسلطة الرهبانية

٣. بعد انقضاء هذه المدَّة، أُعطِيَ أسقف آڤيلا كرسيّ پالنثيا، وكنت في هذه الأثناء في دير طليطلة، فقالَ لي ربُّنا إنَّ من المناسب أن تَخضعَ راهبات دير القديس يوسف لسلطة الرهبانية، وأنْ أسعى في سبيل ذلك، وإلاّ فإنَّ التهاونَ سيعمّ حياةَ ذلك الدير. ولما كنت قد فهمتُ [من ربِّنا] أنَّ من الخير أنْ نؤدّيَ الطاعةَ للرئيس المحلي، فقد بدا لي الآن حصولُ تناقض؛ فحِرْتُ في ما أعمل. فعرضتُ الأمر على معرّفي، وكان آنذاك من يَشغل حاليًا الكرسي الأسقفي في أوسما، وهو ذو علم واجح. فأجابني أنّ لا أهمِّيةَ للأمر؛ ففي ذلك الوقت كان ضروريًّا الخضوع للأسقف؛ أما الآن [فيبدو ضروريًّا] الخضوعُ [للرئيس الرهباني] وظهر جليًّا، في أمورٍ كثيرة، أن هذه كانت الحقيقة، وان الربّ كان يرى ان اتحاد ذلك الدير وهذه الأديرة خيرٌ من أن يكون مستقلاً.

موافقة الأسقف

٤. وأرسلني [الربّ] إلى آڤيلا لأهتمَّ بالأمر، فوجدتُ الأسقف قد غيَّر رأيه تمامًا ويرفض الأخذ برأينا رفضًا قاطعًا. لكن بعد أن أبديتُ له بعضَ الحجج عن قلقي من الأذى الذي قد ينجم للراهبات عن ذلك الوضع،

---

١ أثبتت القصَّة في **كتاب السيرة** فصل ٣٢ – ٣٦ (م).

وكان هو يحبّهنَّ حبًّا جمًّا، أخذ يحلّلها، فوجد براجح فهمه، وبمساعدة الله، براهينَ أوفرَ رجحانًا من حججي، فقرّر الموافقة على طلبي. ورغم أنَّ بعضَ رجال الاكليروس نصحوه بعدم الموافقة، فقد باءَ مسعاهم بالفشل.

موافقة الراهبات

٥. وكان ضروريًا أن توافق الراهبات بواسطة الإقتراع. فرأت بعضهنَّ أن الأمر خطيرٌ جدًّا. إلاَّ أنّهنَّ كنَّ يُحببْنني كثيرًا، فاقتنعن بالحجج التي عرضتُها؛ وكنَّ يخشَين خصوصًا أن لا أبقى إلى جانبهنَّ إذا انتقل من هناك الأسقف الذي تدين له الرهبانية بالكثير وأكنّ له مودَّة. فأثَّرت فيهنَّ هذه الحجَّة أيُّ تأثير، وانتهى النقاشُ في أمرٍ مهمٍّ كهذا بأن رأى جليًّا، جميعهنَّ وجميعهم، عِظَمَ الضّرر الذي يلحق بالدير فيما لو حصل العكس.

فليكن الربُّ مباركًا، هو الذي يعطف بأتمّ عناية على شؤون عابداته ! فليكن إلى الأبد مباركًا، آمين.